محمد نعمة السماوي

العصر الوهّابي

قراءات في أدبيّات التطرّف

دار الكتب التاريخية
ناشرون

العصر الوهَّابي

هوية الكتاب

اسم الكتاب : **العصر الوّهابي**

المؤلف : محمّد نعمة السماوي

الطبعة : الأولى

سنة الطبع : ٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ

دار النشر : دار الكتب التأريخية ناشرون

الموقع الإلكتروني : darkitab.taarekheya@gmail.com

جميع حقوق الطبع محفوظة

يرجى عند النقل والإقتباس من هذا الكتاب عدم الإخلال بالمعنى

وذكر المصدر، رعاية للأمانة العلمية.

العصر الوهَّابي

قراءات في أدبيّات التطرّف

محمد نعمة السماوي

دار الكتب التأريخية
ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

العصر الوهابي

«إنَّ الإسلام لا يستقيم إلا بالعداوة لمن تركه..»

(محمد بن عبد الوهاب: مؤسس الوهابية)

«إنَّ الدين يسلم بالإيمان، وإنَّ الرأي يثبت بالخصومة. فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً. ومن جعل الرأي ديناً فقد صار شارعاً. ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له».

«قد يشتبه الدين والرأي في أماكن، لولا تشابههما لم يحتاجا إلى الفصل..»

(ابن المقفع: فيلسوف عاش في العصر العباسي)

الفصل الأول

العصر الوهابي

ـــ ١ ـــ

قد يثير عنوان هذا الفصل تساؤلاً في أذهان البعض سببه معيارية النسبة المئوية التي تشير إلى ضآلة عدد معتنقي الديانة الوهابية[١] مقابل العدد الكلي للمسلمين وسكان العالم. فهل يعقل أن ينسب عصرنا هذا كلّه، ونحن على أعتاب الألفية الثالثة بكل مستجداتها ومتغيّراتها المثيرة، إلى الوهابية التي تنتمي إلى أزمنة الانكفاء والتقهقر في العالم الإسلامي والمنزوية خلف محيطات الرمال والصحاري والقائمة على الترديد النسقي الميت لبعض الادبيات المحدودة والمنقطعة عن القراءة الصحيحة للإسلام!

وإذا ما كان الأمر كذلك بالنسبة للمسلمين الذين لا يتقبلون الوهابية،

---

(١) لا يعتبر وصف (**الوهابيّة**) أنها ديانة مغايرة للإسلام، خروجاً عن المنهج الموضوعي للبحث. فالتشابه الظاهري بينهما في الطقوس وبعض الممارسات العبادية لا يعطيها الحق في الادعاء بأنها تجسد حقيقة هذا الدين. فهي تختلف في رؤيتها العامة وتصوراتها الاعتقادية (**التوحيد، وتجسيم الذات الالهية**) والممارسات العنفيّة غير المبررة والتكفير والانغلاق والقراءة السطحية للإسلام والقرآن، عن جميع المذاهب الإسلامية المعروفة. ولا تلتقي إلا مع (**الخوارج**)، الذين صنّفوا تاريخياً على أنهم أبعد الناس عن النهج الإسلامي الصحيح.
وتكاد الوهابية أن تكون مطابقة للنسخة الخوارجية المنبوذة من قبل المسلمين والتي لم تؤسس لمنهج مقبول أو عقلاني حتى نهاية عمرها القصير زمن الحقبة الأموية.

ويعتبرونها نغمة نشاذاً في نشيدهم المقدس، فكيف سيكون مع غيرهم الذين نظرت إليهم بكراهية وصنّفتهم في **(فسطاط الكفر)** المنبوذ وشنت حروبها **(الجهادية)** **(المقدسة)** ضدهم؟

وهكذا، فمن حق الجميع أن يتساءلوا:

كيف أصبح هذا العصر وهابياً بامتياز؟ هل لأنه اختطف الاضواء بإيجابياته الكثيرة وعقلانيته ووضوح منهجه؟ وهذا أمر لم يجد أحد له مصداقاً في الحياة الواقعية. أم لأنه تميز بدموية منتسبيه وميلهم المفرط للعنف والتشدد كاشفاً أضواء كل من تميزوا بدمويتهم ومتفوقاً على كل أبطال الارهاب والبطش والحروب الذين عرفوا على مرّ التاريخ؟

إن نسبة معتنقي هذه الديانة لا تتجاوز ١٪ من عدد المسلمين الذي يصل الآن إلى حوالي مليار ونصف. أي أنها لا تصل إلى ربع هذه النسبة الضئيلة لعدد سكان العالم (بمختلف أديانهم وعقائدهم) والذي أوشك أن يبلغ سبعة مليارات.

فهل تعقل نسبة الكل إلى الجزء الضئيل؟

وهل أن سطوة هذا الجزء وفاعليته تبلغ حداً يجعله قادراً على التحكم بمصير وحياة ومستقبل كل هذه المليارات التي شكّلت عوالم أولى وثانية مقابل عوالم ثالثة، وربما رابعة أو خامسة، صنفت الدول الإسلامية، وبعضها حواضن للوهابية، على أنها في السلّم الاسفل منها.

○ ○ ○

ـــ ٢ ـــ

وربما كان حراك الوهابيّين في العقود الثلاثة السابقة متمثلاً في الفعاليات القتالية (للقاعدة) والتنظيمات التابعة أو المتماهية معها، وانتاجهم أساليب تنظيميّة خفية وحديثة لتسلل والنفاذ إلى أي مكان يختارونه لتنفيذ عملياتهم الانتحارية، هو الذي جعل العالم يلتفت إلى ظاهرتهم ويشغل نفسه بهم بعد أن بدأ يشعر بهواجس الخوف منهم. فهؤلاء يتشبثون - بشكل صارم وعنيد - بقناعاتهم وثوابتهم التي لا يتزحزحون عنها وقراءتهم السطحية للقرآن والحديث النبوي، ويتمسكون بشكل مظهري متكلف بالاداء الطقوسي المتخشب ويبتعدون عن روح الإسلام المتحضرة والمتسامحة وتراثه الفكري الكبير.

إن ذلك يعود إلى انحدار قيادتهم للغزو وسفك الدماء ورفض (الآخر) بدعوى الخصوصية والتفرد والحفاظ على الاصل. وقد ظل منهجهم مقبولاً في بيئات المنشأ تلك، طالما أنَّ أجيالاً من الآباء الذين أصبحوا الآن يمثّلون (السلف الصالح) قد تبنّته وشاركت في الفعاليات القتالية ضد المسلمين الآخرين مستفيدة من الذرائع التي قدمها الشيخ الوهابي وخلفاؤه.

غير أن الذي لفت نظر العالم وشغل باله أكثر، وخصوصاً بعد أحداث ١١ سبتمبر المريعة، هو خروج الوهابيين عن نسق الحراك النسبي التقليدي في مناطقهم لاستهداف مواطنيهم المسلمين بسيوف (جهادهم) إلى مناطق أخرى للغزو. فقد جعلوا العالم كله ساحة مفتوحة لفعالياتهم القتالية غير المنضبطة، وأرادوا رفع أعلامهم على بنايات نيويورك وباريس ولندن ومدريد وغيرها كمحميات خاضعة لهم، كما رفعوها من قبل على مدن وبلدات شبه الجزيرة العربية قبل أكثر من قرنين ونصف. وفي مخيالهم

تشخص صور (الأجداد) الذين فتحوا العالم وصولاً إلى الاندلس وحدود الصين للتدليل على شرعية الغزو وجدواه في كل زمان ومكان.

إن دين (الدرعية) الوهابي الذي قام على الغزو القبلي والانتهاك غير المسبوق للدماء والأموال والحرمات بدعوى نشر رؤيته (للتوحيد)، انتشر في أنحاء الجزيرة العربية على أنقاض الامارات والمشيخات القبلية المتناحرة والضعيفة. وقد أوشك على الاندثار في مراحل عديدة من وجوده. غير أنه عاد وانتعش في المرحلة الانتقالية الحساسة التي شهدها العرب قبيل سقوط الخلافة العثمانية، على يد شيخ طموح آخر أراد أن يعيد كيان الاباء وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (١٨٨٠ - ١٩٥٣) مؤسس ما يسمى بالدولة الوهابية الثالثة. ولم يجد إلا الوهابية مطية مناسبة لتحقيق أهدافه التي كادت أن تندثر على أيدي منافسيه الأقوياء من قبائل (شمر) وغيرهم، لولا أنه تسلح بالذرائع والشعارات الدينية التي غالباً ما تنطلي على السذج والبسطاء وقد أثار حماسهم لغنائم الغزو (والفتوحات)..!

لقد انتشرت الوهابية بشكل واضح خارج حدودها الجغرافية التقليدية أيام (فيصل بن عبد العزيز) (١٩٠٦ - ١٩٧٥) بفضل أموال البترول التي كانت توزع بكرم حاتمي على الأشخاص والمؤسسات الدينية والاعلامية لشراء الاعوان والدعاة في كل مناطق العالم الإسلامي وخصوصاً في مصر وباكستان. فقد حاول هذا في غمرة مساعيه لتزعم العالم الإسلامي والترويج للتحالفات القائمة بينه وبين الغرب استقطاب بعض السياسيين القابلين للثراء وأعضاء الجماعات والأحزاب الإسلامية والمراكز الدينية المرموقة مثل جامعة الأزهر لنشر العقائد الوهابية وإسباغ شرعية دينية على جهاز حكمه المطلق ليتسلح بها أمام مواطنيه وغيرهم من المسلمين الآخرين باعتباره آخر حماة الدين والدعاة لحكم شبه ثيوقراطي منفلت ومستبد.

ـــ ٣ ـــ

إن الوهابية بدت - بتأثير التمويهات المضللة والمغالطات المدروسة جيداً، لشيخها المؤسس - محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٢ - ١٧٩١) حركة إصلاحية، خصوصاً في أوساط الطبقات الشعبية الأقل علماً ووعياً.

ومؤخراً حَسِبَ الوهابيون (**المتأفْغنونْ**) أن قوة عقيدتهم الوهابية وحدها هي التي عززت من قوتهم وشدت عزائمهم (**للجهاد**)، وأنهم وحدهم قد استطاعوا تحقيق الانجاز الهائل بطرد السوفيت من أفغانستان. . وقد زادهم ذلك زهواً وتبجحاً عندما تجاهلوا الدور الفعال للولايات المتحدة الاميركية وحلفائها الغربيين والعرب مثل السعوديين وبعض حكام الخليج العربي الذين كانت الدعوات للاشتراكية والقومية وغيرها تقض مضاجعهم على الدوام والتي تطلقها بصخب الانظمة الشمولية سواء في الاتحاد السوفيتي أو في المنطقة العربية بعد موجة الانقلابات في هذه المنطقة، وهي أنظمة قائمة على إرادة شخص أو حزب واحد أو (**عائلة**) واحدة.

إن قناعة الافغان العرب بحقيقة ما قاموا به لم تقم على أساس منطقي صحيح. فقد استخدموا كأداة لتنفيذ أجندات الآخرين. ولم يدركوا أن الظروف الموضوعية كانت تدل على حتمية انحسار قوة الاتحاد السوفيتي. وكان الرغيف أكثر فعالية من البندقية والمدفع المضاد و (**المجاهدين المغفلين**) للاطاحة به. وكانت شعوب هذا الاتحاد أسرع منهم لإزالته والتخلص منه.

إنّ هذه القناعة بفعالية دورهم في هزيمة السوفييت جعلتهم يذهبون حداً اعتقدوا فيه أنهم قادرون (وحدهم) ودون مساندة أي أحد على تقويض أي كيان أو دولة في العالم وأن جميع من فيه أصبحوا رهن مخالبهم الحديدية.

وفيما بعد، تعززت هذه القناعة بعد تمكن انتحارييهم من تدمير أهداف

منتقاة في الولايات المتحدة وبريطانيا وأسبانيا وغيرها وقيامهم بتجنيد بضع مئات من الانتحاريين ضمن منظومات مجهرية وخلايا نائمة اندست في مختلف العواصم والبلدان وقيامها بعمليات هجومية نوعية كان أغلب ضحاياها من المدنيّين الابرياء.

إن ما نتج عن تلك العمليات الانتحارية التي قامت بها **(القاعدة)** وخلاياها النائمة التي تتبنى العقيدة الوهابية بنسختها الاولى والتي يروج لها فقهاء التكفير من نجوم منابر الفضائيات المدعومة من قبل الدول النفطية، والخطباء والمحرضون الاعلاميون وغيرهم، انتشار ظاهرة **(الإسلامفوبيا)** في مجتمعات الدول الغربية.. ولم يكن هذا الخوف قائماً دون تدخل من وسائل الاعلام الغربية نفسها ولعل له ما يبرره في بعض الاحيان.

ولعل هذا قد أثلج قلوب بعض ساسة وزعماء تلك الدول الذين طالما بحثوا عن ذرائع للمواجهة مع المسلمين ولتبرير بعض أجنداتهم ومخططاتهم وعملياتهم الحربية لغرض الهيمنة وخلق واقع جديد. لقد جعلهم ذلك يتمتعون - بنظر شعوبهم - وشعوب العالم الأخرى ببعض المصداقية. فما بحثوا عنه طويلاً أتاحته لهم حماقات وغفلة **(بن لادن)** و**(قاعدته)** و**(خلاياه النائمة)** وكل شيوخ التكفير الذين وقفوا خلف مشروعهم.

ولئن قتل **(بن لادن)** فإن منهجه العدائي القائم على إشاعة أجواء الرعب والعداوة والحرب سيظل قائماً وفعالاً إلى أمد غير منظور.

○○○

— ٤ —

وإذا كانت مشكلة التعامل مع الارهابيين المتأسلمين تبدو الآن مستعصية الحل بنظر بعض الخبراء الستراتيجيين في الغرب والولايات المتحدة، فإن ذلك قد يعود إلى طبيعة ثقافتهم ومعلوماتهم **(التي قد تستقي بعض المعلومات عنها من جهات الموالية للارهابيين أو تحمل بعض تصوراتهم)**. . وذلك لا يتيح لهم التفريق بين أفكار هؤلاء الارهابيين الذين يوظفون باستهانة مفرطة - ولكن بحذف ومكر - بعض آيات القرآن لتبرير نشاطاتهم وفعالياتهم التدميرية، وبين الافكار العامة لبقية المسلمين الذين يتمسكون بالقرآن ويعتبرون تلاوته طقساً عبادياً. إلا أنهم لا يتصرفون بانتقائية الارهابيين و**(اجتهاداتهم)** الخاطئة المبتورة لمواجهة العالم مواجهة مسلحة. . وإنما على أساس التفسير الصحيح للقرآن الذي يدعو بمجمله للتعايش السلمي والتمسك بالثوابت والاليات الحياتية المتعارفة السائدة بين المسلمين وغيرهم على امتداد مئات السنين ولا يرون الخروج عنها تحت أية ذريعة أو مبرر.

لقد أدت فعاليات المتطرفين إلى أن يعتقد بعض هؤلاء الخبراء والمحللين الغربيين بسذاجة أن المشكلة تكمن في القرآن، فطلبوا **(تنقيحه)** أو حذف بعض آياته. وكأن هذا أمر متاح أمام أي أحد ليقوم به. إن ما يجمع عليه المسلمون بمختلف طوائفهم ومذاهبهم المعتدلون منهم والمتشددون وحتى غير المتدينين، هو أن القرآن منزل من قبل الله، وأن لا أحد يملك التلاعب بنصوصه، ولو لتغيير حرف واحد منه، وأن أحداً طوال ١٤٠٠ عام لم يستطع ذلك.

والواقع أن المشكلة لا تقع في القرآن، وهو أمر يعرفه العلماء المتخصصون بالتفسير واللغة وغيرها من العلوم الإسلامية كما تعرفه أغلب

النخب الإسلامية المثقفة والباحثون والدارسون الإسلاميون وربما كان على غيرهم أن يعرفه جيداً لمنع مواجهة جديدة غير مبرّرة وغير ضرورية. وإنما تكمن المشكلة في القراءة الانتقائية الناقصة ذات البعد السطحي الظاهري الواحد، لأن القرآن (**حمّال أوجه**) على تعبير أكبر صحابة النبي وأقربهم إليه وأعلمهم برسالته، وهو الامام علي. أي أنه يحتمل تأويلات وتفسيرات عديدة قد يلجأ إليها ويستغلها من لا علم له ولا حريجة له في الدين. ومهمة تفسيره ليست أمراً كيفياً يقوم به كل قادر على قراءة الابجدية وفك رموزها، وإنما تتم وفق الدلالات الحقيقية وأسباب النزول ومعرفة الناسخ والمنسوخ والمتشابه والمحكم والظروف التاريخية والموضوعية وغيرها وهي سلسلة من العلوم لا تتاح الا بعد تحصيل جدي ودراسة شاقة قد تستغرق العمر كله.

○ ○ ○

إن المشكلة الرئيسية تكمن في تبنّي أفكار وتوجهات خطوط ومنظمات التشدد والعنف مثل (**طالبان**) و(**القاعدة**) والاحزاب القتالية في مصر والمغرب العربي وغيرها القائمة على أساس الوهابية التي هي المرجع الاول والوحيد لها، والذي يتيح اللجوء إلى العمليات الارهابية بنفس الاليات والانماط التي اعتمدتها منذ نشأتها قبل ٢٥٠ عاماً بل وبوسائل أشد فتكاً ودماراً كما تفعل الآن.

إنها ترى في العنف الوسيلة الوحيدة (**للنصر**) والاقتحام والاستيلاء على معاقل وتحصينات العدو، الذي هو - بنظرها - العالم كله؛ الإسلامي وغير الإسلامي.

إن هذا هو ما سيتوصل إليه أي باحث في شؤون الحركات المتطرفة المتأسلمة، ما يعني أن المشكلة لا تكمن في الإسلام بقدر ما تكمن في

الرؤية الوهابية المتشددة التي لا تريد التخلي عن ثوابتها وقناعاتها والتي أصبحت ذات نفوذ واسع إلى درجة أنها أصبحت بنظر بعض الشباب المنتمين إليها كطليعة حداثوية تقدمية تتفوق على كل حركة اصلاحية ظهرت في تاريخ المسلمين، وأنها لا بد أن تحقق هدفها الذي يستهدف تنقية الإسلام من شوائب (**الشرك**) و(**الكفر**) الذي انغمس فيه المسلمون، أي الـ ٩٩٪ الذين لم ينضمّوا للوهابية ولم ينتموا إليها إضافة لِـ (**كَفَرة**) العالم الآخرين.

ولعل التغاضي عن هذا الامر وتجاهله أو تجاوزه، إما بدافع الجهل بخطورته، أو الإهمال أو تغليب أولويات أخرى عليه (**وفق ظروف كل مجتمع أو دولة**)، سيؤخر المواجهة الحقيقية والحاسمة مع الارهاب، وسيسبّب الكثير من الإرباك والضرر والتعقيد، ويتيح للمتطرفين فرصاً أخرى لالتقاط أنفاسهم وانتهاج أساليب أكثر حِدَّة أو حداثة وإلى أن يصبح بإمكان فرد أو جماعة قليلة منهم بناء مفاعل نووي صغير أو حقل جرثومي في بيت أو مزرعة، ليفاجيء العالم بنكبات غير متوقعة جديدة. ويدرك المتطرفون ذلك جيداً، فيتحصنون خلف الواجهة الإسلامية العريضة لعموم المسلمين وخلف شعاراتهم المقبولة حتى وإن جعلوهم بعد ذلك دروعاً بشريّة، بعد أن يتغلغلوا في بنيتهم الاجتماعية ويدّعوا حق وصايتهم وحمايتهم وبعد ضروب من الحركات الاستعراضية التي يظهرون بها أنفسهم (**مجاهدين**) مخلصين للإسلام يتمتعون بمناقب عالية تربعوا على عرشها، وباعتبارهم أصحاب (**ايديولوجيا**) متقدمة تغييرية تدّعي امتلاك الحقيقة، وأصحاب مشاريع قادرة على تحقيق حلم (**دولة الخلافة الإسلامية**) بآليات حركية تنظيمية متطورة ومتطوعين لتنفيذ أي عمل (**استشهادي**) تضحوي قبل غيرهم من (**المتخلفين**) أو (**المتكاسلين**) أو (**الخائفين**) أو (**المكبلين باغلال الشرك والمتع الدينيوية**)!

○ ○ ○

ـــ ٥ ـــ

لقد أصبح العالم يشهد يومياً، بفضل وسائل الاتصالات المتطورة مثل الانترنت والفضائيات، أغلب ما يحدث من أعمال عنف وحشية، ويتفاعل معها شجباً أو تأييداً، انطلاقاً من التوجهات الايديولوجية أو السياسية أو المصلحية. إن حشداً هائلاً من المشاهد والاحداث المثيرة، يضخ على مدار الساعة ليربك ويشوش المخيلات، ويوحي بأنّ العالم يحترق بشكل غير مسبوق، وأنّ ما تبّقى منه على وشك الفناء والدمار. مع أنه قد احترق وتدمّر قبل ذلك عشرات المرات، ولكن دون أن ترصده كاميراتنا المتطورة كما تفعل الآن.

ولأننا لم نعش تلك العصور ولم نشهد كل ضروب الفتك والتنكيل، ولم نستهدف نحن بالعمليات الارهابية - كما هو الأمر الآن، وإنما استهدف غيرنا. وهؤلاء قد مضوا وأصبحوا جزءاً من تاريخ قديم لم تسجل كل فصوله ومآسيه، وقد لا تكون لنا علاقة أو صلة بأغلبهم، فإن الكثير منا يعتقدون أنّ هذا هو عصر الارهاب الوحيد، دون غيره من العصور وقد تربع على عرشه عديدون من معتنقي الدين الوهابي. . . والواقع أنه أشدها همجية بسبب الاساليب والوسائل التدميرية المتطورة التي لجأوا إليها.

إن الشعور بالأمن لم يعد يراود الناس الآن وهم يرون هذا الكم الهائل من الخراب والتدمير الذي يحصل كل يوم، ويسمعون التهديد بالمزيد. لا كما كان الأمر في السابق مع أسلافنا وهم لا يرون حتى ما يجري في الحارات أو القرى المجاورة لهم، ويحسبون أن الدنيا بخير طالما أنهم لا يرون شيئاً. . فكيف سيشعرون بالخوف أو القلق، وكل ما يحدث في القارات والجزر التي تفصلها بحار ومحيطات شاسعة، محجوب عنهم؟

أما وقد دخلت مشاهد العنف والرعب منازلنا وغرف نومنا، وأصبحت

عوائلنا تروّع وهي تنعم بخلواتها داخل هذه الغرف، فلنا أن نتصور المشاعر بالخوف والانزعاج الذي يمكن أن ينتابنا ونحن نعيش الاحداث ساخنة ساعة بساعة، ونرى كل مشاهدها وتداعياتها المرعبة التي لا تدعو للتفاؤل بمستقبل آمن وسعيد.

ربما تكون هذه الاسباب كافية لجعل الجميع يعتقدون أنّ هذا هو عصر الارهاب الحقيقي أو الوحيد الذي تمر به البشرية والذي لم يسبق له مثيل، خصوصاً وأنّ وسائل التنكيل والتخريب المتطوّرة تفوقت على السيف والبندقية بالآف المرات، وأنها تتطور باستمرار لتجعل من شعوب بأكملها لقمة واحدة، تلتهمها أو تقضي عليها بطرفة عين، وأن مثل هذه الوسائل، بل وأكثر منها قابلية على التدمير قد تقع بأيدي إرهابيين لا يتمتعون بأي قدر من المسؤولية أو شعور بالذنب أو الندم ليفجّروا العالم بأجمعه..

ولا يعلم أحد بشكل واضح، أية جهات أو أجندات منظورة أو خفية تخطط لذلك. غير أن الجميع يعلمون أنه قائم وممكن فعلاً، وأن قوى غير متعقّلة أو موزونة تلعب أدواراً فاعلة على مسرح الاحداث الذي يتأزم كل ساعة. ولا يمنع اختلافهم الديني أن يكونوا لاعبين على نفس الحلبة.

وما بين مشاعر الخوف والقلق المترقبة للأسوأ والأكثر دموية، تتصاعد تساؤلات وشكوك في صدور الأغلبية من سكان هذه الكرة القرية التي أزيحت عنها السدود والحدود، للتعرف على هؤلاء وكيفية امكان إيقافهم ومنعهم من ارتكاب المزيد.

○○○

ـــ ٦ ـــ

ولن نتحدث هنا عن جميع هؤلاء، غير أننا نشير إلى المتطرفين الذين تبنوا السفسطات والتنظيرات والايديولوجيا غير المنضبطة والتي لا تمس أي واقع مقبول والتي تدفعهم للتقدم إلى الوراء عندما أصبحوا منسجمين مع حزمة الأفكار والعقائد التي انتجتها، والتي تقوم على المتبنّيات الساذجة التي أورثهم إياها شيخهم الوهابي (**محمد بن عبد الوهاب**) والتي ورثها بدوره من سلفه المتطرف (**ابن تيمية الحرّاني**)، كما نشير إلى العقلية التي يحملونها وعن (**اليقين المطلق**) الذي تلبّسوه واستحوذوا عليه باعتبارهم رؤوس الفرقة الناجية أو المنصورة، من بين جميع المسلمين المعاصرين والماضين واللاحقين.

إن شيخ الوهابيين الذي انتهج مبدأ العداوة لكل من خالف نظرته وعقائده، أورث أتباعه هذا المبدأ وجعله في مقدمة سلّم تعامله مع (**الآخر**)؛ المسلم غير الوهابي، وغير المسلم أيضاً.. ومبدأ العداوة الذي صرّح به علانية لا يتم إلا بالمواجهة العنيفة المبنية على القهر والتغلب بالقوة، لا بوسائل الاقناع والحوار وإخضاع الجميع الذين لا يتبنّون رؤيتهُ والهيمنة عليهم وفق نفس الاداء الذي اعتادوه أيام التأسيس، أي بحملات الغزو والإبادة والترويع وإن اختلفت الاساليب والادوات.

○ ○ ○

إن سر بقاء الوهابيّة يعود إلى حرص المؤسسة السعودية الحاكمة المتنفذة والمؤسسات والجمعيات التابعة لها، وبعض دول الخليج العربي، للابقاء عليها كرادع لكل تحرك وطني مطالب بالاصلاحات والدستور، ومنتج دائم (**للشرعية**) التي تحرص بعض المؤسسات الحاكمة على التمترس بها والاختباء خلفها..

إن تداعيات تجنيد (**المجاهدين**) في حرب أفغانستان بعد غزو السوفييت لها، وحلول البديل الاميركي والدولي لها بعد انتصار هؤلاء المجاهدين وردود فعلهم بعد حرب الخليج الثانية التي أججتها أحلام وحماقات رجل مخبول مسكون بهواجس العظمة وهو (صدام حسين) الذي استخدم كأداة لتصعيد التوتر والعداوة في الخليج والعالم كله فيما بعد، أتاح لنصف مليون جندي أميركي وغربي دخول المملكة السعودية لطرده من الكويت. وربما كانت تداعيات ما قام به قد أدت إلى زلزال الحادي عشر من سبتمبر الذي هز العالم وأحدث صدمة رعب هائلة لدى الغربيين والاميركيين. فشهية (المجاهدين) الذين حسبوا أنهم هم الذين حققوا (**الانتصار**) على القوات السوفيتية قد تفتحت مرة ثانية لانتصارات أخرى على الاميركان وغيرهم. ولم يعد بالامكان - بعد حملة الدعم والتأييد لهم من قبل الحكومة السعودية ومؤسساتها الدينية وجمعياتها الخيرية وكذلك دعم دول الخليج الأخرى، وبعد عرضهم كمجاهدين استشهاديين ذوي قدرة خارقة لمواجهة أية قوة في العالم - أن يتقاعد هؤلاء ويتخلوا عن سلاحهم ولا يمارسوا أية فعاليات قتالية حتى ضد (**وليّ الأمر**) الذي اعتادوا طاعته.

إن موضوعات كهذه قد تطرقت إليها أقلام عديدة، وتناولتها بالبحث والتنقيب من زوايا عديدة قد لا تتجاوز المرغوب والمألوف.. غير أن مستجدات الاحداث ومتغيراتها تستدعي البحث الدائم وعرض وجهات نظر مختلفة قد لا تكون مستساغة أو مألوفة، وقد نتطرق إلى بعضها في هذه الفصول، وقد نجد في ذلك مفتاحاً وطريقاً لتلافي بعض مشكلات التطرف وتخفيف آثاره المدمرة التي تبدو مستعصية أو غير قابلة للحل حتى هذه اللحظات.

○ ○ ○

إن العالم يبدو في غمار المواجهة والحرب العالمية الراهنة على

الارهاب، فاقد الزمام، وكأنه يقاد من قبل عصبة من الجهلة أو المجانين المتهورين الذين لا يبالون بإحراق العالم كله وإبادة جميع سكانه أو جعلهم دروعاً بشرية غير مصونة أو محميّة، وليست لدمائها أو أمنها أو حريتها حرمة. وستظل رهناً بحماقات متصارعين غير منضبطين لا تبدو لحماقاتهم نهاية منظورة.

وما لم يتم التعرف على طبيعة هذه الحرب الخفية في جوانب عديدة منها ودوافعها الحقيقية وطبيعة الجهات المتحاربة وأجنداتها المعلنة وغير المعلنة والايديولوجيات التي يتسلحون بها فإن العالم بأجمعه سيظل ساحة صراع ساخنة قابلة للاشتعال في أي وقت. وستظل العمليات القتالية قائمة على ما لا نهاية. وهذا لن يكون موضع ترحيب من قبل جميع سكان العالم الذين يريدون نهاية سريعة لكل الحروب.

والأهم من ذلك أنهم لا يريدون أن لا تتكرر تحت أية ذريعة أو غطاء ديني، وأن لا تكون الحروب الدينية وسيلة لتدمير العالم. . . وحسب من يريد ذلك أن يدرس أفكار وآليات عمل المؤسسة الوهابية النزيلة والطارئة على الإسلام والتي تتحصن خلف الطقوس والشعارات الظاهرية البرّاقة لتدعي أنها تمثل الإسلام الحقيقي. وبذلك يمكن فهم حقيقتها وأنها ليست من الإسلام في شيء حتى وإن ارتفعت وتيرة الاصوات الصاخبة المؤيدة لها والداعية لمنهجها بفعل نفوذ الدولة الراعية لها، وهي الاكثر ثراء وفعالية بما تتيحه لها أموال البترول والسيطرة على الاماكن الإسلامية المقدسة. . غير أنه سيدرك أيضاً وهو يعيش هذا الصخب غير المنضبط، أنه يعيش نهاية الفترة المزدهرة للعصر الوهابي الذي يحاول استلاب ومصادرة الإسلام الحقيقي.

○ ○ ○

ـــ ٧ ـــ

لقد التفت (ابن المقفع)[١] إلى نقطة دقيقة، قد تنطبق على الخوارج والوهابيّين والحركات والتوجهات المنحرفة الاخرى في الإسلام، وهي أن الدين إذا ما أخرج عن خانة الايمان الفطري المطلق الذي تتقبله النفوس وتطمئن إليه، إلى خانة الخصومة ومواجهة الآخر لتحقيق أي غرض نفعي مصلحي أو سياسي أو لتحقيق الغلبة والتفوق، أصبح مجرد رأي كبقية الآراء يراد التدليل على صحته بمختلف الوسائل والحجج حتى وإن كانت غير صحيحة أو غير واردة أصلاً في أساسيات وثوابت ذلك الدين وجعله بديلاً من المقدس المأثور.. وقد يعمد إليها البعض لإثبات أدلة غير موجودة أساساً لتحقيق بعض الاهداف.. وبذلك فإن من سيعمد إلى ذلك سيكون كمن شرع لنفسه ديناً ليس هو الدين الاصلي الذي يتخلى عنه في غمرة حرصه على إثبات وتعزيز آرائه الشخصية.

أي أنه سيكون بلا دين حقيقي، إلا الدين أو الرأي الذي يريد إثبات صحته وحسب.. مع أن الذي يحدد الدين وصحته وثوابته ليس هو أو غيره، وإنما ربُّ الدين ومُنزله.

إن ذلك قد يعود إلى التشابه الظاهري المموّه بين الدين الحقيقي والنسخة أو النسخ المزوّرة منه والتي تعزز بالرأي والحجة والدليل، وقد تفرض بالقوة والإكراه لإقناع السذج والبسطاء من الناس الذين تنطلي عليهم الاكاذيب والحجج الملفقة. وبسبب هذا التشابه المموه بين الدين وبعض

---

(١) عبد الله بن المقفع: أديب وفيلسوف كبير عاش في الصدر الاول من العصر العباسي. قُتل شاباً بعد وشاية به إلى الخليفة. لم يتعرف عليه أحد إلا من خلال كتابه «كليلة ودمنة» وهو كتاب أمثال وحكم على لسان الحيوانات لكن له كتب أخرى مثل الادب الصغير والادب الكبير ورسالة الخلفاء. يمكن أن يعد من طبقة الفلاسفة والمفكرين الإسلاميين الكبار.

الآراء التي تعرض عرضاً جذاباً، يحتاج الأمر هنا إلى الفصل الواضح بين الدين الحقيقي والمزور القائم على الرأي.

وهذا أمر دقيق وحساس لا يلتفت إليه عامة الجمهور، غير أنه لا ينطلي على النخبة من العلماء والدارسين والمفكرين...

لقد كانت الوهابية نتاج رأي شخصي محدود، لم ينتم صاحبه إلى أية مدرسة فقهية معروفة. وقد خالف آراء جميع علماء المسلمين على امتداد العصور الإسلامية حتى الذين ادعى أنه أخذ منهم.. وقد فرض مبتدع الوهابية ومؤسسها الشيخ محمد بن عبد الوهاب آراءه الدينية بالقوة والاكراه وحدّ السيف واستقطب إلى جانبه الطبقة الجاهلة من البدو التي تميل للغزو والنهب.. وهي أغلبية في شبه الجزيرة العربية ساندته ووقفت إلى جانبه بعد أن حقق لها غنائم لم تكن لتحلم بها من قبل.. وأصبحت تشكل الجمهور العام للوهابيين الذين دافعوا عن شيخهم وعقائده، مع أن هذه العقائد لم تكن إلا نتاج رأي شخصي أراد (إثباته) بالخصومة واللجاج والغلو.

وهكذا أصبح الدين رأياً لا ينسجم إلا مع أفكار الذين تبنوه ودافعوا عنه، وأصبحوا يشرعون لأنفسهم حسب فهمهم الناقص بحجة الاجتهاد. وهو إجتهاد ناقص لا يقوم على أية ركيزة معرفية معتمدة ولا يقوم على أساس القراءة الصحيحة للإسلام، أي الدين الذي يسلم بالايمان لأنه دين الفطرة الذي لا يحتاج إلى دليل أو برهان، وإنما إلى تدبّر وتأمل عجائب خلق الله والدعوة بالتي هي أحسن ونبذ الاكراه والعنف.

ولدقّة هذه المسألة، وللاشتباه الذي قد يحصل لعامة الناس بشأنها أطلق ابن المقفع تحذيره الذي يدل على وعي متقدم.

وحسبنا أن نجد اليوم تداعيات الآراء الوهابية المتطرفة ومنها - بشكل

لافت - وجود آلاف المفتين (مفتٍ لكل خلية نائمة على سبيل المثال) يقومون بعرض آرائهم على أنها تمثل الشريعة الإسلامية. حتى وإن أدت تلك الآراء إلى قتل الابرياء.

ولأن أغلب الذين يرددون آيات القرآن ترديداً ببغائياً يحسبون أنفسهم من العلماء بأصول الدين وفروعه وأحكامه وتشريعاته.. ولأن مؤسسة قوية متنفذة تحتضنهم وتمولهم وتوصل أصواتهم إلى كل بقاع العالم عبر مختلف وسائل الاتصال المتطورة، لمجرد أنهم ينتمون للمدرسة الوهابية، فإن صخب هؤلاء المتعالمين ومدّعي الاجتهاد والمفتين حتى في بنية خلية إرهابية صغيرة يقلق الجميع والمسلمين قبل غيرهم.

حتى ليمكن القول أن هذا الفصل من تاريخ المسلمين، بل العالم يشهد سطوة طاغية لهم بسبب ما يقومون به من أدوار حماسية في استقطاب الاعوان والانصار وتحريضهم لاستهداف هذا العالم كله، لا فرق في ذلك بين المسلمين وغيرهم..

فصوتهم الأقوى بين الاصوات، وجهدهم الاعلامي والتعبوي يثمر نتائج مذهلة لصالحهم.. وإذ أنه الصوت الأقوى نبرة.. فإن جميع المسلمين يتحملون نتائج نغماته النشاز.. مع أن العازف والمغني ليس جميع هؤلاء المسلمين، غير أنه قد امتلك الاداة وهو في طريقه لشراء الجمهور أو من يحشد أو يجمع له الجمهور.

ولو أن العالم اكتوى بنار الوهابية واطلع على حقيقتها كما اطّلع عليها المسلمون وعرف قوة نفوذها وإمكاناتها وهيمنتها على أغلب دول الخليج ومرجعيتها لجميع حركات التطرف المتأسلمة في مصر والمغرب العربي وباكستان والاردن وغيرها لأدرك أن عصرنا هذا هو العصر الوهابي بامتياز. وما سيليه سيكون هو العصر الحجري الثاني، إن لم نكن بدأنا نشهد فعلاً بداية هذا العصر.

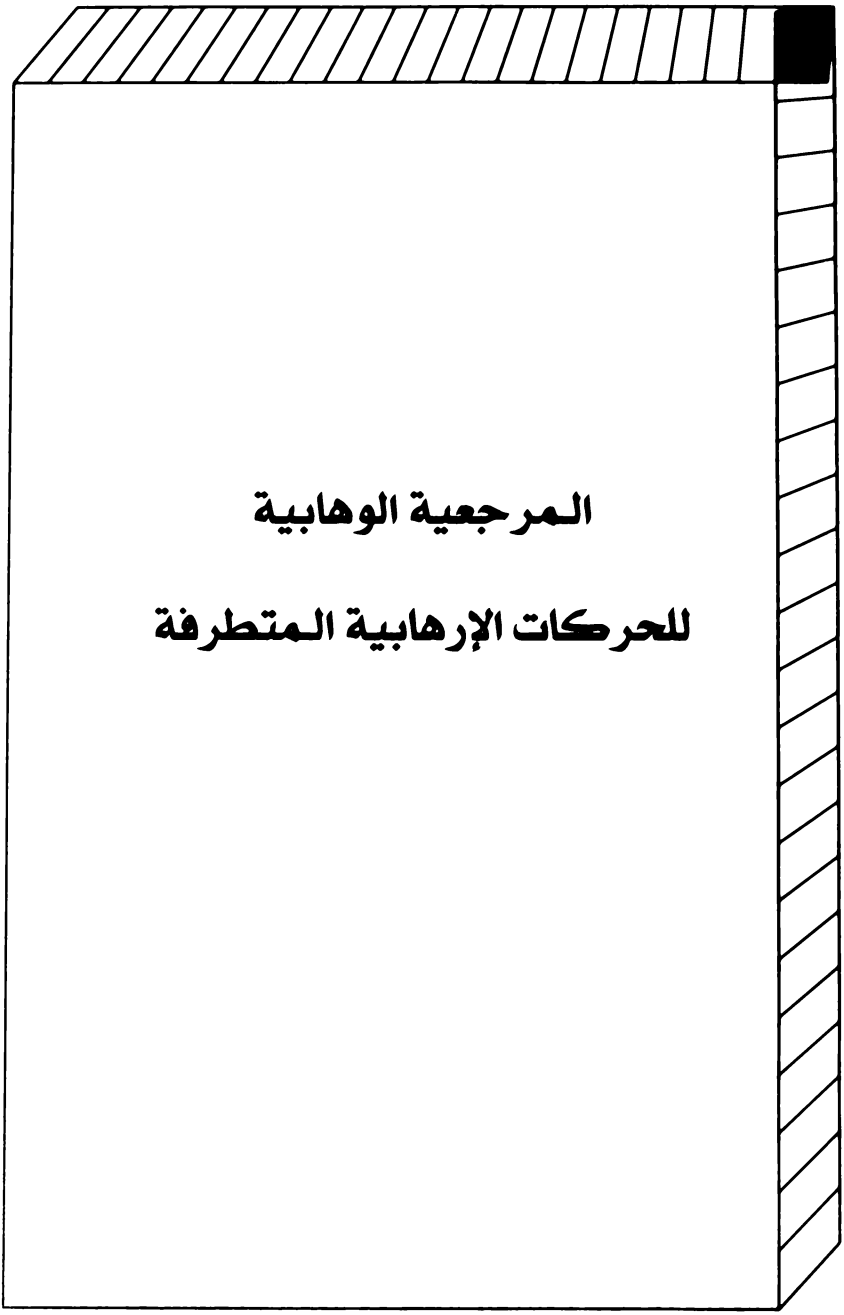

المرجعية الوهابية

للحركات الإرهابية المتطرفة

توظيف الدين لتمرير مشاريع الهيمنة والغزو

ـــ ١ ـــ

لا يمكن تبرئة المشروع الوهابي وداعميه السعوديين وإمبراطوريات الجمعيات (**الخيرية الإسلامية**) السائرة في فلك دولة آل سعود من وجود أجندات خفية، وإن يكن بعضها واضح المعالم، لتدمير العالم كله بدءاً من العالم الإسلامي بإشغاله في حروب ومعارك ماراثونية متلاحقة بدعوى الدفاع عن (**المقدّس**) الديني الذي تحاول استحضاره من مجاهيل التأريخ وبعثه قضية ساخنة لدى جميع الاطراف التي تحاول زجها في هذه الحروب والصراعات (**الدينية**) و(**الطائفية**).

ولا يعتقد أي متخصص بشؤون الحركات المتطرفة المعاصرة التي تتصدرها القاعدة، أن دوافع السعوديين، ورديفهم القطري فيما بعد، هي مناقبية بريئة بالدرجة الأولى، تستهدف الدفاع عن الإسلام ورموزه - وإن كان هذا هو الادعاء الوارد - لما يرونه من تساهل المؤسسة الحاكمة بالدرجة الأولى وأبناء العائلة المالكة وازدرائها العملي الواضح لضوابط الدين والتزاماته وخروجهم الواضح عليها. كما لا يعتقد أي من هؤلاء المتخصصين أن السعوديين وتابعهم القطري وجمعياتهم (الخيرية) المنبثة في جميع دويلات البترول الخليجية، يتمتعون بالكفاءة اللازمة لإدارة الصراع وفق توجههم، لو لم تكن هناك جهات أخرى مهيمنة وذات خبرات خارقة ترى أن الوقت قد حان لاستثمار المشروع الوهابي وحاضنته، المملكة

السعودية في لعبتها الكبرى. وإلاّ فإن الأموال الاسطورية التي تملكها لن تكون كافية لذلك.

ووجود إمّعات وملوك للشطرنج مثل بندر وسعود الفيصل وآل حمد وأشباههم لن يكون جديراً إلا بألعاب محدودة قد تعود عليهم بالضرر أولاً ولن يكون جديراً بهذه اللعبة التي قد تمتد إلى عقود من الزمن.

○○○

ـــ ٢ ـــ

ولا شك أن فصولاً مثيرة من اللعبة التي تُوظَّف بها الوهابية كغطاء ديني، يؤديها لاعبون رئيسيون يقفون خلف كواليس المسرح الذي يؤدي فيه لاعبون ثانويّون دور البطولة الذي قد يتقمصه بعضهم ويعتقد أنه بطل هذا الزمان الحقيقي.

فكيف حدث ما لم يفكر به أحد.. واستطاعت قوى تنتمي إلى قرون التخلف والجهل أن تستقطب فئات عديدة من (**المسلمين**) وتجندهم فدائيين (**جهاديين**) لتنفيذ مشاهد الموت المرعبة بدعوى الدفاع عن الإسلام؟ وكيف أريد لهذه المشاهد أن تكون البديل عن سماحة الإسلام ودعوته للسلم والحوار والتراحم والتعايش؟

لا شك أن الغرض من ذلك هو عرض صور (**المسلم البشع**) أمام أنظار العالم، والتمهيد لمواجهات عسكرية شاملة بين المسلمين وغيرهم من شأنها أن تؤخر عجلة التقدم والتعايش البنّاء بين جميع أنباء العالم.

تداعيات المشروع الوهابي وهيمنته على كثيرين لم يكن ليتم بتخطيط ساذج ودون توظيف أموال البترودولار الطائلة.

وإذ أن اللعبة (**الجهادية**) بدأت من أفغانستان لطرد (**الكافر السوفيتي**) الذي كان يعد العدّة لتفكيك نفسه كاتحاد شامل يضم جمهوريات عديدة.. وبدا انهيار الاتحاد السوفيتي كنتيجة لما قام به (**المجاهدون**) الذين أرسلهم بندر وبرعاية المخابرات الباكستانية... وبذلك فإن صور هؤلاء المجاهدين قد جرى تلميعها وعرضوا على أنهم أبطال حقيقيون قادرون على تحطيم الامبراطوريات، وإعادة (**دولة الخلافة**) الغابرة إلى عهدها السابق. وقد صدقوا هم هذه الاكذوبة وتوهموا أنهم أبطال هذا الزمان الجديرون بتحقيق حلم الخلافة خصوصاً بعد إقامة دولة (**طالبان**) الفلكلورية التي تبدو وكأنها تستعرض بعض مشاهد الحياة التي كان يعيشها العرب، والبدو منهم على وجه الخصوص، قبل مئات السنين.

إن (**الجهاديين**) المغفلين يبدون مبهورين بهذه المظاهر الحياتية القديمة التي تتمثل بالجلوس على الأرض وتقصير الاثواب وإطالة اللحى ورفع الراية السوداء التي زُعم أنها راية رسول الله ﷺ، كما بدوا مغرمين بقطع رؤوس أعدائهم وإراقة دمائهم وإزالة كل مظهر حديث للحياة بدعوى مخالفته (**لصفاء الإسلام**) الأول..

وفي كل مشهد لهؤلاء (**الجهاديين**) نراهم يتحلّقون حول (**أمير**) لهم، كما تحلّق بعض أصحاب (**بن لادن**) حوله في لقطة أخذت له قرب كهوف (**تورابورا**) في أفغانستان.. وبدت تلك بنظرهم صوراً تعبر عن الاصالة والبساطة التي دعا إليها الإسلام.. وكأن هذا الدين جاء لفرض نمط حياتي قديم على مظاهر الحياة المتجددة وكأنه جاء نقمة ودعوة للقتل وسفك الدماء وترويع الآمنين.. أنهم مع ذلك لا يلتفتون إلى مظاهر البذخ التي يعيشها امراؤهم في السعودية وقطر ويتغاضون عنها باعتبار أن المساس (**بولي الأمر**) أو نقده مساس بالعقيدة الإسلامية.

○○○

ـــ ٣ ـــ

أن التعرف على طبيعة الشرائح الاجتماعية التي تضم هؤلاء الجهاديين من مختلف الامكنة والانتماءات يوضح لنا أنها من الفئات الاصغر عمراً والأقل ثقافة ووعياً. وقد لُقّنوا بأسلوب نمطي مكرر بمفاهيم وقيم منتزعة من المذهب الوهابي الهجين الذي لا يطابق أياً من المذاهب الإسلامية المعروفة، ويكاد أن يكون صورة جديدة (للخوارج) الذين انطلقوا من مفاهيمهم الخاصة وفهمهم المحدود للإسلام والذين رفضوا التخلي عنها وخاضوا معارك دموية ضارية للترويج لها والدفاع عنها.

ولعل أي معني بشؤون الثقافة والتطور لم يتوقع أن ينحدر أحد بعد عهود التنوير والانفتاح على العلوم والثقافات الحديثة إلى هذا الحد البهيمي الذي يلغى فيه العقل ويقزّم إلى حدوده الدنيا وإلى عهود ما قبل التاريخ. غير أن ما لم يتوقعوه قد حصل، وأصبحنا نشاهد ونطلّع على ممارسات وحشية بذرائع انسانية دينية سامية مسخت وسوّقت على أنها ممارسات نبيلة تنطلق من أهداف دينية نبيلة.

إن من يطلق هذه الوحوش من كهوفها المظلمة ويمدها بالمال والسلاح يدّعي أحياناً براءته منها ويحتج على بعض تصرفاتها بل وقد يعمد - لتلميع صورته - على اعلان الحرب الظاهرية عليها ومع ذلك فإن هناك زواجاً كاثولوكياً بينهما. فالايدي التي تسيّر هؤلاء خبيرة وماهرة وهي تمد الخيوط مع مجموعة من العابثين ومحترفي الدين وفقهاء السلطة الذين لديهم سطوة كبيرة على منفذي مشاريع القتل محدودي النظر والثقافة.

إن ممارسات القتل والتفنن في أساليبها الوحشية أصبحت أكثر الالعاب تسلية لهؤلاء، وقد يكون فسح المجال لهم لممارسة هذه الهواية، رسالة موجهة للآخر - غير المسلم - يراد القول فيها: انظروا إلى وحشية

المسلمين وقسوة دينهم وحذار من التعامل معهم على أنهم بشر أسوياء كبقية أبناء العالم.

○○○

— ٤ —

إن ثقافة الغزو التي كانت سائدة إلى عهد قريب في الصحارى والبراري، والتي ساهمت عوامل الطبيعة القاسية فيها وفرضتها بعض التقاليد البالية التي يرفضها أي مجتمع متمدن، كانت أحد مرتكزات الدعوة الوهابية في مراحلها الأولى. ومنذ ١٧٤٦م تاريخ إنشاء أول إمارة وهابية في الدرعية التي اعتبرت في المفهوم الوهابي ناجحة وموفقة أصبح الغزو - بذرائع دينية ضد (**الكفار والمشركين**) أي كل من لا يتبنى العقيدة الوهابية - مشروعاً وواجباً مقدساً بعد أن كان يتم لأسباب معيشية في معركة البقاء التي تفرضها الصحراء.

والآن، وبعد انحسار تلك الظروف، وجريان الذهب الاسود، تتراءى في المخيال الوهابي (**بطولة**) الفرسان الوهابيين الاوائل الذين اخضعوا جيرانهم وأبناء جلدتهم بحد السيف. وبدت طريقة أولئك (**الابطال**) هي المثلى لتحقيق نموذج (**الدولة الإسلامية**) الذي تحقق في الدرعية التي بدت مثالاً للمدنية الإسلامية الفاضلة.

الطريف أن الوهابيين مارسوا غزواتهم الأولى ضد جيرانهم في هضبة نجد وهم من الحنابلة الذين يدعي الوهابيون أنهم ينتمون إلى مذهبهم بحجة أن لديهم بعض الممارسات الشركية مثل زيارة أضرحة بعض الصحابة أو الأولياء أو الاهتمام ببعض الظواهر الطبيعية والنباتات والاحجار نتيجة الجهل، وكان بإمكان الوهابيين أن يوجهوا الناس إلى تجنب الاهتمام بتلك النباتات والاحجار ويوصلهم إلى أسس الاعتقاد الصحيح. غير أنهم وقعوا

في الشرك الذي ادعوا أنهم حذروا الناس منه وهو تجسيم الذات الالهية وأن الله يشبه شاباً أمرد له وجه ويدان وساقان وأصابع وأنه يضحك وينزل إلى السماء الدنيا وما إلى ذلك من التصورات الحسية الساذجة التي لا تنتمي للتصور الإسلامي الصحيح عن الذات المقدسة.

إن ثقافة الغزو وقطع الرؤوس وتنظيم مذابح جماعية وحمامات دم، تبدو التقليعة الأشدّ معاصرة وحداثة ولعلها تعكس صورة الوحش البدائي المتعطش للدم الذي استعاد هؤلاء صورته لعرضها في وسائل إعلامهم الذي تسوقه لهم جهات عديدة ومنها فضائيات معروفة مثل (**الجزيرة**) و(**العربية**).

لقد أريد لعاصفة الارهاب المتأسلم أن تقتلع ما تبقى من الواحات الخضراء وتحرق الجميع. فلم يحصل أن حدثت مواجهات عنيفة في مجتمعاتنا الإسلامية بلغت هذه الشدة. وتكاد أقطار عديدة أن تعود عشرات الاعوام للوراء بفعل الازمات المفتعلة التي حصلت فيها. ولو أن المخططات الرهيبة نجحت ولم يتم التصدي لها كما حصل في مصر لصرنا إلى مستقبل مجهول العواقب غير أنه مظلم دون شك. غير أن هذه المجتمعات بما فيها النخب القائدة لم تتعرف بعد على حجم وطبيعة هذه المخططات. ولعل فئات عديدة من هذه المجتمعات تساق بصورة إرادية أو لا إرادية للاشتراك في معمعة الصراع المحموم الذي لن يكون صراعاً حميداً وإنما سيأكل ويضعف الجميع.

ولا شك أن واضع هذه المخططات سيضحك ملء شدقيه وهو يرى نجاحها الباهر في هذه المجتمعات التي لم تتخلص من الامية ويلف الفقر والتخلف قطاعات واسعة منها. ولعله سيفكر بمخططات أكثر فعالية وسرعة ما لم يتم التصدي لها بوعي استثنائي وكشف دوافعها غير البريئة حتماً.

لقد تجاوز الأمر حدود المعقول بعد أصبحنا نشهد ما لا يكن توقعه

حتى قبل مائة عام. فالغول الوهابي المولع بالغزو وقطع الرؤوس ينهض ثانية ليجد رؤوساً كثيرة حان قطافها - على حد التعبير المعروف لأشهر الجلادين في تاريخنا الإسلامي - وفلول الخوارج تبعث من مجاهيل التاريخ الاسود وتزود بالمال والسلاح لتعبث في كل بقاع الأرض، تنظيمات إسلامية متطرفة وخلايا نائمة لا تتورع عن حرق كل شيء.

○ ○ ○

ـــ ٥ ـــ

يعتقد هؤلا ء المتطرفون أنهم حداثويّون حقاً وأنهم بسبيل إنجاز المشروع الاكثر انسجاماً مع طبيعة الإسلام ومبادئه الاصيلة ويتماهون مع المشروع الوهابي بكل دمويته وحراكه غير المنضبط إلى درجة تبنّيه وجعله مرجعية عليا لهم. لقد تقمصوا حتى الشكليات التي دعا إليها. ولا نكاد نجد حركة (إسلامية) اليوم - إلاّ ما شذّ منها بفعل التباين المذهبي تشذ عن هذه القاعدة.

وعلينا أن نتعرف على طبيعة العقلية التي يحملها الوهابيون والمعجبون بهم والتي لا تنسجم بحال مع العقلية الإسلامية السوية المعتدلة ليتسنى لنا انتهاج الطريق الصحيح للمواجهة الايديولوجية الفعالة لايقافها ومنعها من التمدد والانتشار.

ولعل مشروع المواجهة الايديولوجية هو السبيل الاكثر فعالية ونجاحاً إذا ما وضعت آلياته بالتعاون مع المؤسسات الدينية المعتدلة والثقافية والاجتماعية الاخرى. فهو مضمون النتائج حتى على المستوى المنظور. كما أنه مشروع غير مكلف عكس المشاريع العسكرية التي تنجز أغلبها بتخبط واضح بسبب طبيعة المعارك التي تخوضها والتي تبدو كأنها معارك ضد أشباح غير مرئيِّين.

ماذا لو لم يبعث ابن تيمية: سؤال صاعق

الشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الحنبلي والمتمرد على نهج شيخه أحمد بن حنبل في الكثير من الامور، توفي منذ ما يقارب سبعمائة عام (١٣٢٨م) بعد حياة عاصفة وصراع مرير مع فقهاء عصره.

عُدَّ ممثلاً لفقهاء التكفير والعنف، وخاض سجالات كلامية مع الفقهاء الذين لا يجارونه في الرأي واستمال تياراً شعبياً من الجهلة وأنصاف المتعلمين والمتعصبين لترجيح كفته عليهم. وقد أججت مقالاته وفتاواه وكتبه وفهمه الخاص للإسلام واسلوبه التحريضي المتوتر، معارك كلامية تحوّل بعضها إلى نمط استدمائي استنفر غضب وحقد معجبيه وأنصاره ضد الآخرين من جميع أبناء المذاهب الإسلامية ودفعهم للانسياق والتحيز لرؤيته الخاصة إلى حد اعتباره أهم شخصية إسلامية مما جعله أحد أبرز أقطاب الفتن والانقسامات والمعارك الطائفية التي لا يزال العالم كله الآن يئن من تداعياتها. فقد أجج بؤر التطرف المذهبي الخلافي ناشراً ألغام الغلو والمبالغة في خطابه. حتى ليمكن اعتباره المؤسس الحقيقي للخطاب الوهابي السطحي الذي تموضع في تلال نجد في بداياته الأولى ثم أخذ ينتشر الآن في كل أنحاء العالم الإسلامي وغيره بفعل أموال البترول السعودي، وأصبح طلابه والمعجبون به ينتشرون خارج حدود الجغرافيا المذهبية للوهابية في نجد.

ولا يزال أتباع الخط الوهابي السعودية الحاكمة ورديفتها الوهابية، بكل مفاصلها وتياراتها الثقافية والحكومية لعقد ندوات عنه ونشر طبعات

فاخرة من كتبه وتدريسها في المدارس والجامعات والمساجد في المملكة وفي كل أنحاء العالم امتداداً إلى اوروبا والولايات المتحدة.

بعث (**شيخ الإسلام**) ابن تيمية على هذه الأرض مرتين بعد وفاته:

مرة على يد تلميذه ابن القيِّم الجوزية الذي جمع آثاره ووضعها بين أيدي مريديه والمعجبين به بعد أن تبعثرت وأوشكت على الضياع. ثم ظلت حبيسة في أيدي هذا البعض القليل إلى أن بعثها ثانية بعد أربعة قرون ونصف معجب آخر أخذ يطالعها بحماس ويتبنى كل ما ورد فيها من آراء وفتاوى دون مناقشة أو تدقيق. لأنه لا يمتلك الادوات التي تمكنه من ذلك، وهو محمد بن عبد الوهاب النجدي. مؤسس الدولة الوهابية (١٧٠٢ - ١٧٩٢)، وبذلك حفظها بعد أن كادت تندرس حتى بين أتباع المذهب الحنبلي نفسه.

إن حضور ابن تيمية الآن في ساحة (الجهاد) حضور لافت، فهو العراب الاكبر والاب الروحي والمرجع لكل حركات التطرف (الجهادية) التي تنغل الآن وتتكاثر كالفئران في أكثر المناطق تخلفاً وتستلهم أفكاره وتستحضر فتاواه حول في مقارعة (**الكافرين**) و(**المشركين**) أي جميع المسلمين الذين لا ينتمون للوهابية، لقد سلوا سيف هذه الفتاوى الجاهزة والمعلبة وسلطوه على رؤوس (**أعداء الإسلام**) (**المارقين**) لاسباب واهية مفتعلة لا علاقة لها بالدين.

ولأن اعجاب شيخهم مؤسس الوهابية به لا حدّ له بعد أن اكتشفه وبعثه من زوايا الاهمال والنسيان، فإن إعجابهم به فاق الحدود المتصورة فأصبح هو الملهم الذي يدلهم على الطريق إلى الجنة. بل لقد كادت شخصيته بنظرهم أن توازي شخصية الرسول الأعظم ﷺ نفسه، فكأنه الوحيد من دون الصحابة والتابعين وعشرات الاجيال السابقة واللاحقة من علماء المسلمين وقع على حقيقة الدين الإسلامي.

لا يمكنك الحديث عنه أمام أتباعه المبهورين المعجبين إلاّ وأنت واضع يدك على قلبك أو رأسك تحية له. وليكاد هذا القلب يطير شعاعاً وهو يتساءل: ما كان سيحدث لنا لو لم يبعث شيخ الإسلام ويتعرف المسلمون على علمه الزاخر! وسيأتيك الجواب حالاً: لا بد أننا سنضيع ونبقى تائهين كما كان اسلافنا في كل عهودهم منذ صدر الإسلام إلى اليوم! فهو وحده الذي اكتشف مواقع الخلل لدى الاغلبية الساحقة من المسلمين بما فيهم (**الصحابة**) والعلماء!

فهو طوق النجاة الوحيد الذي أرسله الله إلى المسلمين بعد رسوله الأكرم ﷺ.

وهو الشيخ الأوحد الذي هداه الله لفهم رسالات السماء. وهو الصدر الأول للفتوى والتشريع وكلامه الفصل في كل نزاع.

هذا ما ستعرب عنه نفوس أتباعه حتى ولو لم تنطق الالسنة. فمكانة الرجل فيها ثابتة لا تتزعزع وقد كفاهم مشقة الرجوع إلى غيره بعد أن وجدوا (**العلم**) عنده وحده، فكأن الوحي تنزل عليه وهو ولم يتنزل على خاتم النبيّين!

(**شيخ الإسلام ابن تيمية**): ما يكاد يذكر حتى تخرس كل الاصوات وتتحول إلى همس. فجلالة قدر الرجل أعظم من كل كلام، وحسب القلوب أن تحتضنه دون أن تكلف نفسها عناء السباحة في محيطه الزاخر! وحسبه أنه شيخ الإسلام ابن تيمية.

سيفه الذي أورثه تلميذه ابن عبد الوهاب أنتج عشرات الالاف من السيوف القاطعة البتّادة الجاهزة لاختطاف الرؤوس وفتاواه أنتجت مئات المفتين والأمراء وشيوخ الإسلام مثل ابن لادن والزرقاوي والظواهري

ونجم فضائيتنا المتألقة (الجزيرة) القرضاوي وكل أتباع السلف الصالح اللطفاء ذوي الوجوه الملائكية التي تفيض بالبراءة والمحبة والود.

كما أنتج فكره المتشنج عشرات الحركات السلفية الجهادية في كل بقاع عالمنا الإسلامي ابتداءً من مصر وانتهاءً بأقصى بقعة في الأرض. وقد مهّد مريدون جدد الأرض المصرية وحرثوها وزرعوا فيها أفكاره وأفكار تلميذه ابن عبد الوهاب، ثم أعادوا تصديرها من هناك بعد إعادة صياغتها بشكل جذاب واسلوب مؤثر. ونستعرض هنا أسماء ثلاثة منهم عملوا بجد في أرض الكنانة لتصدير الفكر الوهابي إلى بقية العالم:

- محمد رشيد رضا الشامي (١٨٦٥ - ١٩٣٥) الذي حاول تفجير مسألة الطائفية في مصر في وقت مبكر ونشر الفكر الوهابي بدعم من عبد العزيز آل سعود. تتلمذ عليه حسن البنا مؤسس حركة الاخوان المسلمين.
- محب الدين الخطيب الشامي (١٨٨٦ - ١٩٦٩) أسس المكتبة السلفية ومطبعتها وجمعية الشباب المسلمين في القاهرة وحاول دس كتب ابن تيمية في المناهج الازهرية.
- محمود السبكي (١٨٥٨ - ١٩٣٣) «ثم ولده وحفيده» أسس الجمعية الشرعية للتعاون بالكتاب والسنة.

لقد مهد هؤلاء لظهور مؤسسات وحركات بديلة هي وجه آخر للوهابية بصياغة مستحدثة لا تزال تظهر كل يوم بمسمّى جديد وتتحفز للانقضاض واستلاب السلطة وتشكل عالماً سرياً خاصاً لا يمكن اختراقه بسهولة.. وهكذا تبرز امامنا اليوم في أحداث «الربيع العربي» الساخن وغيره حركات وهابية متعددة: «جبهة النصرة»، «حركة فتح الإسلام وعصبة الانصار»، «جيش الامة»، «جيش الإسلام»، «فتح الإسلام»، «سيوف الحق»، «جند

الشام»، «قاعدة الجهاد في بلاد الشام»، «قاعدة الجهاد في ارض الرافدين»، «قاعدة الجهاد في أرض الكنانة»، «قاعدة الجهاد في المغرب العربي»، «تنظيم الوعد»، «تنظيم المنصورة»، «مجموعة الزيتون»، و«داعش»... وغيرها، وغيرها..

المسميات والاذرع الحديدية الضاربة التي تريد أن يدين الناس بدين ابن تيمية وابن عبد الوهاب لن تنتهي وسيشهد عالمنا فصولاً جديدة من قطع الرقاب والاوصال والتشرد والفقر وهجر الاوطان وسيكون المسلمون جميعهم مهجرين ولاجئين.. وأية بركة أكبر من هذه أتاحتها لنا وسطية، فكر شيخ الإسلام وتلميذه شيخ الإسلام المجدد وتلاميذه المجاهدين الذين نوروا الكون بعد أن انطمست أنواره.

الا يحق لنا أن نفخر أننا نعيش أيام الشيخين بحق وأن الوهابية تمر بعصرها الذهبي على أيدي أشد شيوخ وحركات التكفير تطرفاً؟

○ ○ ○

لا بد أن نتعرف جيداً على هذا الفقيه المتطرف ونحن نسمع عنه كل يوم، لنجيب على السؤال الذي طرحناه في البداية.

فهو أحمد بن عبد الحليم تقي الدين الحراني الحنبلي (٦٦١ هـ - ٧٢٨هـ). مرجعه القبلي مجهول والذين ترجموا له لم يذكروا قبيلته ولا منحدره القومي. نشأ وترعرع في دمشق بعد أن ولد في (حران) وأمضى سنيَّ الستّ الأولى فيها. وهي مدينة لم تعرف الامان إلا سنين متقطعة. أما أهلها فقد غلب عليهم الهوى الاموي وقد توارثوه عن الاباء فكانوا أشد الناس تعصباً لبني أمية وكانوا يرون أن صلاتهم لا تتم إلا بلعن الامام علي وأعلنوا صراحة: (لا صلاة إلا بلعن أبي تراب) وهي موطن الحشوية من الحنابلة دون منازع. أما دمشق فلم تعرف إلا إسلام معاوية ونشأ أهلها على

النصب (سير أعلام النبلاء ٣/ ١٢٨) لا يعرفون الا معاوية رمزاً وعنواناً للإسلام وأن الباطل والضلال في خلافه (**ابن تيمية - صائب عبد الحميد** ص ٢٨). وقد شايعوا يزيداً من بعده وكانوا جنداً له في اقتحام المدينة يقتلون صحابة الرسول ويستبيحون الاعراض. أما آل مروان فلم يكونوا أقل نصباً من سابقيهم، فعاشت دمشق أموية أكثر من قرن من الزمن وكانت مغالية في الامويين مفرطة في النصب.

عاش ابن تيمية في عصر المماليك حيث العنف وغلبة السيف مما تسبب في تفشي الفقر والجهل والاوبئة والمجاعات وانفلات الاوضاع الامنية ونشاط بعض الفرق الشاذة.

وقد ورث عن أبيه مشيخة دار الحديث في دمشق بعد أن تتلمذ على عدة مشايخ وعدد من النساء المحدّثات. كان حاد الطبع، حديد الذهن، قوي الحافظة، برز على أقرانه ولما يجاوز العشرين وكان أبوه يعلمه الافتاء ويدربه عليه (صائب عبد الحميد ٥٧).

خاض معارك عنيفة مع فقهاء المذاهب الاخرى وشيوخ الصوفية بلغت ذروتها أثر خطبة تكلم فيها في ذات الله تعالى وصفاته، فعمق البحث وتوسع ودخل طرقاً لم يسلكها أحد قبله ناصر فيها عقيدة القائلين بالتجسيم الذين نسبوا إلى الله تعالى صفات هي صفات الاجسام كالوجود في جهة واحدة والاستواء على العرش حقيقة والحركة والانتقال، وأن الوجه والايدي والاعين والارجل المذكورة في بعض الايات والاحاديث إنما هي حقيقة وليست مجازاً وكان ذلك في إجابته لأهل حماه عن أسئلتهم في الاستواء وإضافة الكرسي لله سبحانه في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] التي نشرها في الرسالة الحموية.

أثار خلاف كثيرين، كما استهوى بالاعجاب كثيرين، فكان له

موافقون، وأكثرهم من تلاميذه ومديديه، أي من الجيل الذي يليه.. وقد خالفه كثيرون غيرهم.. ومنهم من ضاق صدره حرجاً بدرسه.. ومنهم من كفره.. وفريق قاومه ونازله..

قال الذهبي فيه: أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية. أمّا الذي حمل لواء الاعتراض فهو قاضي الحنفية. وسنجد في مجرى حياته أنه في أكثر الاحوال كان العامة في الشام إلى جانبه.. وقد وقف ضده القاضي المالكي في مصر **(محمد أبو زهرة - ابن تيمية ص ٣٢ - ٣٤)**.

لقد ناصره في أول معاركه أمير دمشق. ثم خاض معركة أخرى في مصر عندما عين هناك قاضياً أسفرت عن سجنه هناك سنة ونصف وإقامة جبرية في الاسكندرية. وخلال مدة إقامته خاض حملات ضد الصوفية أنتجت فتناً كثيرة. وهنا ناصره السلطان الناصر إذ أكرمه وعينه مدرساً في المدرسة التي أنشأها في القاهرة ثم عاد إلى دمشق سنة ٧١٢هـ أي بعد أربع سنين من إقامته في مصر.

○ ○ ○

ولعل ابن تيمية لو أطلع على قوانين الكون - حسب الاكتشافات الحديثة - لربما بدل رأيه، رغم أن اتباعه (السلفيين) لا يزالون متمسكين بجهة العلو التي تقع فيها السماء ويقيم الله فيها عرشه ويجلس عليه حسب زعمهم، فيشيرون إليه بأحد أصابعهم عندما يتشهدون في نهاية الصلاة. فجهة العلو لمن يسكن استراليا والصين هي ليست نفسها جهة العلو لمن يسكن الجزيرة العربية أو أوروبا أو الولايات المتحدة. فالأرض كروية وهذا ما لم يعترف به بعضهم مثل الشيخ ابن باز. وما قد يكون جهة عالية فوق رؤوس أحد سكان منطقة ما قد تكون جهة سفلى لمن يسكن الجزء المقابل لهذه المنطقة في هذه الكرة.

إن قوانين الطبيعة لم تكتشف كلها بعد.. وسماء الله الواسعة لم يتعرف عليها الناس ليعلموا أن تقع حتى يشيروا إليها بأصابعهم في الصلاة ويشير إليها ابن تيمية من فوق رأسه في الشام على أنها هي السماء الحقيقية التي يضع الله فيها عرشه ويدافع عن رأيه بالأدلة العقلية والنقلية التي لا تقبل المناقشة حتى من قبل علماء الفلك!

وإذا ما آمن المرء بأن الله هو خالق السماوات والأرض وصدق بذلك وتيقن منه فإن مصاديق إيمانه تتمثل بتصديق أنبيائه. وإذ أن القرآن يشير إلى (العرش) و(اليد) و(الوجه) و(السماء) اشارات واضحة بمعنى الاستطاعة والقوة والرفعة وما إلى ذلك، فإن حشوية الحنابلة بزعامة ابن تيمية فسروها تفسيراً حسياً بدائياً.. فالوجه هو الوجه كما يعرفه الناس وكذلك اليد أو العرش الذي (يستوي) عليه الله. ويؤكدون أن (الاستواء) على العرش معلوم إلا أن الكيفية مجهولة.. فكيف يكون الاستواء معلوماً ومن الذي علم به حتى يؤكد ذلك.

إن خزيناً هائلاً من الاحاديث المحرفة المنسوبة للرسول ﷺ قد تسربت من خلال متأسلمين تسللوا إلى الإسلام وادّعوا الايمان به أمثال: كعب الاحبار وعبد الله بن سلاّم ووهب بن منبّه وغيرهم.. وقد ضخوا أحاديثاً وقصصاً اسرائيلية مزورة حتى على الديانات السابقة نفسها، انتشرت بين المسلمين بعد أن سمح لهؤلاء (المحدثين) أو القصاصين بالتحدث في المساجد وغيرها.

أصبح الكلام المزور وبعض الاساطير أحاديث قدسيّة منسوبة للرسول ﷺ لا يجوز الشك فيها أو مناقشتها حتى وإن رفضتها أبسط العقول ما دام رواتها من (جيل الحيزية) المعصوم الذي لا ينبغي التشكيك فيه. وبدا بعض هذا الكلام كخرافات من عهود الطوطمية والانسان البدائي

الطفولي الأول الذي لا يؤمن إلا بالحس وبما يراه أمامه ويلمسه أو يتذوقه.

تبنى حشوية الحنابلة تصورات متأسلمي اليهود وغيرهم عن الذات الالهية وتصويرهم لها على صورة البشر وأنها تتحيّز في مكان ما وتتنصل وتنفعل غضباً أو ضحكاً وما إلى ذلك، وكأنهم يتحدثون عن شخصيات كارتونية مسلية وكأن الأمر لا يتعلق بخالق ومدبر للسماوات والأرض أو كأنه يتعلق بأحد الهة الاغريق الخرافية وأرادوا للمسلمين جميعاً أن يتبنّوا هذا التصور المضحك الذي لا ينسجم مع المنظومة الاعتقادية التي أراد القرآن الكريم ترسيخها في أذهانهم.

التطرّف الديني

توظيف الأيديولوجيا لبسط الهيمنة

محمد نعمة السماوي

باحث في شؤون التطرف،

ومؤلف (موسوعة الثورة الحسينية)

بحث مقدم إلى المؤتمر الثالث عشر

لمجلس علماء المسلمين الشيعة

في أميركا الشمالية واشنطن، الأول من ايلول ٢٠١٣

التطرّف الديني

توظيف الأيديولوجيا لبسط الهيمنة

ـــ ١ ـــ

لا يمكن أن تعزى الدوافع الحقيقية للتطرّف الديني بكلّ أنماطه وأطياف منتجيه إلى مناقبية من قيم أو مُثُل دينية أو إنسانية رفيعة. فهي ليست بريئة من محاولات تحقيق أجندات خاصة أو مصالح شخصية. فالتطرّف، وما يرافقه عادة من عنف وإرهاب[1] صناعة بشرية لا تنتمي لأيّ دين، وإن تقمصته أو

(١) ترد في أمثال هذه الدراسة مصطلحات مثل (التشدّد) و (التطرّف) و (الإرهاب)، وهي كلمات ذات مدلولات خاصة للتعريف بالحالات السلوكية العنفيّة الشاذة التي يمتنع أصحابها عن التعايش مع الآخرين بسلام أو قبول رؤيتهم أو أفكارهم، والذين لا يسعون أبداً للبحث عن حلول وسطى أو التوصّل إلى آليات للحوار والتفاهم.
المعاجم اللغوية تشير إلى أنّ المتطرف هو الذي يبلغ في رؤيته وسلوكه أقصى مدى ولا يتوخى الاعتدال (**فالطرف هو نهاية كل شيء**) أنه عادة ما يلجأ لتحقيق أهدافه، إلى أشد الوسائل إيلاماً، وهو العنف الذي يقترن بالتعذيب، والذي وصف بأنه المعاملة بالشدّة والقسوة، فهو ضد الرفق واللين. والأمر نفسه مع المتشدّد أو الشديد، وهو بيّن الشدّة، والقوي الوثيق الصعب.
أما الإرهاب فهو التخويف والترويع. ولذا يفخر الإرهابيون بأساليبهم العنيفة التي يدّعون أن الغرض منها إحداث صدمات مروّعة للخصوم لشلّ حياتهم وتعطيلها أو تدميرها كوسيلة إعلامية فاعلة للإعلان عن قوتهم وسطوتهم حتى ولو طالت الأبرياء.
وترد هذه المصطلحات المتلازمة غالباً لدلالتها المتشابهة لوصف أفعال الجماعات المتشدّدة أو المتعصبة لدين أو مذهب أو جماعة أو عنصر مما يؤدي إلى وضع العالم في حالة حرب أو صراع. ومعلوم أن المتطرفين المتأسلمين من (**القاعدة**) و(**الحركات** =

رفعت شعاراته. إنّ هذا يبدو جلياً من مجمل معطيات ونتائج العمليات الإرهابية البشعة، رغم حماس أغلب المتطرّفين المغفلين وقناعاتهم القاطعة بما يقومون به، ورغم (تديّنهم) المظهري المضلل واستعدادهم غير المحدود للتضحية في سبيل قضايا مفتعلة وغير واقعية زُجّوا فيها دون معرفة أو علم من خلال شحن إعلامي وأيديولوجي مضلل.

إنّ هؤلاء المنفّذين - حالهم حال المنخرطين في العصابات الاجرامية كيدٍ ضاربة - أقصر نظراً من أن يدركوا أنهم مضلّلون ومجرد أدوات ودمى، وأن العقول المحنكة التي تتلاعب بهم تمتلك قدرات فائقة على التحايل والغش والخداع بشكل يفوق تصوراتهم. وأنها تستفيد من الخبرات المتراكمة في مجال الانحراف والتضليل لتعطيل عقولهم وأنها قادرة على تدنيس المقدّس وتقديس المدنّس. فهذه أقدم ألاعيب حكام الأمم وسدنة المعابد والعروش تستعرض أمام من لا خبر له ولا وعي من الذين لا يجيدون القراءة الابجدية ناهيك عن قراءة التاريخ التي تستدعي أكبر قدر من الوعي والفهم حتى لا يعيد نفسه عسفاً وظلماً وحروباً. فالتاريخ يعيد نفسه لمن لا يقرأ التاريخ.

وطالما استعار السَحَرةُ مسوحَ الكهنة وجبب المتنسكين المتحلقين حول

= **الجهادية)** المتماهية معها والتي تحمل نفس توجهاتها، عمدوا إلى تصنيف العالم - رغم امتزاج الشعوب وتعايشها السلمي إلى فسطاطين أو دارين **(كفر وإيمان أو حرب وسلم)** - ووضعوا قوانين وتعليمات لذلك مستنبطة من عهود التقاتل الديني قبل عدة قرون والتي لم تعد قائمة الآن.

وتظل هواجس الخصومة والعداوة هي الطاغية والغالبة عليهم، ولعلّ مصطلح **(الإرهاب)** المتداول حالياً يعني الاستعمال المفرط والمنظم للعنف الذي تطوّرت أساليبه ووسائله، لتمرير أجندات أو أطماع سياسية للضغط على الخصوم وإخضاعهم وكذلك اللجوء إلى أعمال **(نوعية)** لم تكن مألوفة من قبل ذات أثر تدميري بالغ بدل اللجوء إلى المواجهات العسكرية المباشرة.

عرش السلطان ومائدته يبرّرون انتهاكاته ويمكّنون له في الأرض نائباً عن الله وخليفة له حتى وإن كان فاسقاً أو ظالماً ويضعون الجميع تحت مظلّته، رعايا مخلصين لا يفكرون بالخروج عليه أو انتقاده وإلاّ أُبيحت دماؤهم وأموالهم وأعراضهم. وتحوّلت ساحة المعبد الوثني إلى بقعة مباركة تقام عليها قنوات فضائية تسبّح بحمده وتقدّس له وتعتبر طاعته أمراً عبادياً واجباً، يتصدّرها كبير الوعّاظ ورئيس علمائهم، مازجاً كلمات التقوى وما تراكم من محفوظاته ومنقولاته بسموم التكفير وسهامه، يرمي بها من لا يوافقه الدين أو المذهب، لتبدو الصورة وكأنّها من الصراع المحتوم والواجب بين (**المؤمنين**) و(**الكفرة**) يقتضي (**جهاداً**) أو (**حرباً مقدّسة**)، مع أن الدين، مهما اختلفت مسمّياته، واحد، ظاهره وباطنه المحبة والرحمة والمودّة وأساسه العدل. غير أن (جهاد) الرحمة والمحبة الذي أعلنه جميع الأنبياء عليهم السلام وخاتمهم صلى الله عليه وآله وسلم أصبح (جهاد) الكراهية والدم بنظر فقهاء التكفير.

○ ○ ○

ـ ٢ ـ

مصالح محتكري السلطة والمال والنفوذ تقتضي أن يكون المشهد دموياً على الدوام. وإذا لم يوجد عدوٌ فعلي فيجب خلقه وابتكاره والايحاء بأنه البعيد الديني أو المذهبي بل وحتى القريب المذهبي إذا كان منافساً حقيقياً. وإذا ما تساءل أحد: هل أن دوافع (**الحروب الدينية**) أو الانتصار لدين أو مذهب ما عقائديةً حقاً! يجيبنا واقع حال الصراعات التاريخية إنها ليست كذلك فعلاً إلاّ في شكلها المظهري والدعائي لكي يتم تجييش الجيوش وتعبئة المقاتلين. ويظل الدافع الرئيس هو التنافس على المصالح والنفوذ والهيمنة.

الوقائع التاريخية المسجّلة تثبت لنا أنَّ من قتل المسلمين على أيدي المسلمين يفوق أضعافاً كثيرة من قتل منهم على أيدي غيرهم. وأنَّ من قتل من المسيحيّين على أيدي المسيحيّين يفوق أيضاً أضعاف من قتل منهم على أيدي غيرهم. وأمامنا تاريخ الحروب الدينية الدموية في أوربا قبل عصر التنوير وكذلك الحربان العالميتان الأولى والثانية. وأمامنا معروض كبير لغزوات العذاب والتنكيل التي نظمها الحكام المسلمون ضد بعضهم وضد شعوبهم طيلة تاريخ دموي أسود لا يزال مُسلسله قائماً حتى الآن. أما المبررات فهي جاهزة وقائمة معها.

لقد توسل الحاكم (**أمير المؤمنين، الخليفة، الملك**) بشرعية دينية ملفقة يكون بموجبها خليفة لله، وولي أمر مطاع وصاحب ملك عضوض (**وراثي**) له ولذريته، ونجح العديد من الطموحين والمغامرين في تأسيس ممالك وامبراطوريات وراثية بحجج دينية وأقوال منسوبة للرسول ﷺ توجب طاعتهم وتبجيلهم وعدم التفكير بمخالفتهم أو الخروج عليهم، وإلاّ عُدَّ ذلك كفراً بواحاً يوجب قتل من يقوم بذلك لأنه خروج عن جماعة المسلمين. ولم يكن لهم أن يفعلوا غير انتحال الصفة الدينية والتوسل بها وهم يسعون لتحقيق مثل تلك المشاريع الكبيرة[1].

العقلية المسلمة الجانحة للتديّن غالباً تميل لمن يثبت أنه ممثل وصاحب تلك الشرعية. أما مهمة (إثبات) ذلك وتلفيقه، فسيكون من المهمات التي تقوم بها كلاب الحراسة من فقهاء السلطة الذين تربّوا في

---

(١) وقد أشار لذلك أحد المفكرين المسلمين، (ابن خلدون) في (المقدمة) بقوله: «**إنّ العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين..**». عناني، محمد وسرحان، سعيد، (المختار من مقدمة ابن خلدون) ص ٩٨، ط١. الهيئة المصرية للكتاب. القاهرة ١٩٩٧. والواقع أنه حتى غير العرب من المسلمين الطامحين للحكم توسلوا بالصبغة الدينية لتحصيل الملك. وشواهد التاريخ كثيرة على ذلك.

أحضانها وكانت لهم حصة من غنائمها. غير أن ما كان مقبولاً في السابق دون نقاش، أصبح الآن ينظر إليه بحذر بعد تنامي وعي المسلمين وحصيلتهم المعرفية فأصبحوا يطمحون بإدارة شؤونهم عن طريق مؤسسات تمثلهم فعلاً دون التعرّض لأساسيّات الدين ومبادئه العامة. بل أن هذه الأساسيات هي التي يعوّل عليها لتحقيق العدالة. كما أنهم ينظرون بحذر إلى الدعوات المطالبة بعودة الخلافة وحكم (إسلامي) بإدارة خليفة امبراطور على غرار خلفاء الامبراطوريات السابقة التي ينظر إليها بتبجيل واحترام في أدبيات كتّاب السلطة ومؤرخيها ويتساءلون: هل أن انسان تلك العهود قد نعم حقاً بالعدالة والحرية والأمان والقوت اليومي أم أن أغلبية الناس عوملوا كالعبيد أو الحيوانات وعاشوا فقر وذلّ وتخلّف.

ويأتي حراك التنظيمات الإسلاموية المتطرّفة[1] التي تدار بطرق خفية من قبل مخابرات الدول الخليجية النفطية، وفي مقدمتها (السعودية) استمراراً لمساعيها الأولى في إنشاء (القاعدة) و(طالبان) في أفغانستان باللجوء إلى استخدام (المقدس) الملفق الذي لا يحقّق في نهاية المطاف إلاّ مصالح فئات محدودة من الحكام والمنتفعين. وطالما أن هذه التنظيمات تستفيد من جنود بندر وأخوة موزة فإنها تغضّ الطرف عن طبيعة الانظمة الحاكمة الاستبدادية في السعودية وقطر ودويلات الخليج وهي تعلم أن زواجها مؤقت ومنقطع مع هذه الانظمة لأنها تعلم أنها عدوة لها في نهاية المطاف ولا يمكن أن يعيش الجميع سوية فلا بد أن تختفي الدويلات أو تختفي التنظيمات.

---

(١) مصطلح (الإسلاموي) يستخدم للدلالة على انتحال الإسلام وقيمه الروحية ذريعة مقدسة للقيام بأعمال متطرّفة مع أن الغرض الحقيقي هو استخدامه سلاحاً سياسياً فعالاً لاستقطاب واستمالة الرأي العام في الساحة الإسلامية.

فطبيعة (**الوعي**) المتجدّد وامتزاج اتباع المدرسة الوهابية التقليدية بمقاتلين (**أكثر تنوراً وثقافة**) من مصر أو الشام أو المغرب العربي انتج نظرة جديدة للحاكم المسلم ومواصفاته. وبدا الحاكم الحالي حتى وان كان مسانداً لهذه التنظيمات موضع ارتياب وشك في صلاحيته كحاكم أو (**خليفة**) كما رسمته مخيلاتها.

لا شك أن هناك هَوَساً لاقامة دولة دينية كبرى تبدأ بنواة صغيرة على غرار (**دولة الدرعية**) السعودية الوهابية التي أقيمت عام ١٧٤٦ أو طالبان في نهاية القرن الماضي. فأي مشروع اصلاح حقيقي تحمله مثل هذه الدويلات الفلكلورية الهشة والذي لا يصلح حتى لإدارة قرية حتى تنبري جميع منظمات التطرّف للمطالبة باستنساخ هذه التجربة. وهل أن (**طالبان**) و(**القاعدة**) وفقهاء البترول ورؤساء مافيات التطرّف تصلح لإدارة دول كمصر أو العراق أو الشام أو الجزائر؟ وهل سيكون المسلمون سعداء إذا ما اقتنصت هذه الحركات السلطة وحكمت وفق رؤيتها المتخلّفة التي لا تحمل أي مشروع نهضوي يواجه تحديات المستقبل وظروف العالم المتقلّبة وهل سيكون الزعيق وضخ الشعارات والمناداة بأنّ الإسلام هو الحلّ كفيلاً بحل جميع المشاكل المعقدة أم أن ذلك سيفاقم منها. فأي إسلام يدعو إليه هؤلاء إن لم يكن إسلام محمد بن عبد الوهاب الذي أجّج الخصومات والمعارك بين المسلمين في المرحلة التي اعقبت قرون الانحطاط والتخلّف والتي انتجت ومن المتوقع أن تنتج المزيد منه.

لقد حملت الوهابية منذ نشأتها مشروع إقامة إمارة (**إسلامية**) وفق تصور وتوجهات مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي وشريكه محمد بن سعود بن مِكرن وأرادت توظيف رصيدها الديني المتمثل برؤية الشيخ المؤسس للتوحيد في إطار الجغرافية المذهبية في نجد. وقد أعلنت أن مشروعها اصلاحي بحت يهدف إلى تخليص الدين من مظاهر (**الشرك**)

وإعادته إلى صفائه الأوّل وحقيقته التي ادعت أنها تغيّرت وانحرفت بعد عهد الصحابة والتابعين! وهي ذريعة رفعها الوهابيون للقيام بعمليات وغزوات قتالية غادرة ضد مواطنيهم النجديين في البداية، والذي ينتمون - وهنا المفارقة - للمذهب الحنبلي الذي يزعمون الانتماء إليه والدفاع عنه كما ادّعوا أن ما يقومون بتأسيسه، وهي (**إمارة الدرعية**)، ما هو إلاّ تمهيد لإقامة دولة الخلافة الإسلامية الكبرى، مع أن المتخصصين في تاريخ الوهابية يعلمون حقيقة هذه الحركة ودوافعها والظروف التي أدت إلى انتشارها وتوسعها[1].

لقد استخدم (**التكفير**) سلاحاً في كلّ مراحل الحراك الوهابي لتبرير العنف المفرط الذي لجأوا إليه. ولو كان هدفهم الحقيقي هو الاصلاح وتنقية الدين من الشوائب لاكتفوا بالنصيحة والتوجيه وبث الواعظين والمرشدين لتعليم الناس ما يعتقدون أنه حق. إذ لم يكونوا في سدوم وعمورية حتى يقوموا بما قاموا به، ولم يكن الأمر يستدعي إراقة الدماء لمجرد تمسك الناس بالنبي ﷺ وأهل بيته وبعض الأولياء والصالحين بحجة أنهم يعبدون الطواغيت والقبور. وهي حجة مفتعلة لا تصمد أمام أي دليل ينفي تمسّكَ المسلمين بالتوحيد وتوجّههم للخالق وحده بالعبادة. غير أنه لم يكن أمامهم إلاّ إشهار هذه الحجة المصطنعة التي تتيح لهم اتهام المسلمين بالشرك وإباحة دمائهم وترويعهم واخضاعهم ليكونوا مطيعين لامرائهم الوهابيّين. فهي سلاحهم الوحيد لاستلاب السلطة وادعاء

---

(١) لكاتب هذه ا لسطور كتاب قيد النشر بعنوان (**محمد بن عبد الوهاب والوهابية**): منهج في التطرّف وصناعة الإرهاب. وقد ترجم إلى الانكليزية بعنوان:
(The Birth of Terrorism in Middle East)
(Muhammed Bin Abed al-Wahab, Wahabism, and the Alliance with the ibn Saud Tribe)
سيصدر عن دار أمازون في الولايات المتحدة الاميركية.

الشرعية. ولو أنهم تخلّوا عنها فماذا سيقولون في تبرير كلّ ذلك العنف المفرط؟ ثم أليس الطاغوت هو الدكتاتور المستبد كأنماط الحكام السعوديين على امتداد تاريخهم طوال أكثر من ٢٥٠ سنة؟

وجدير بأي مشروع إصلاحي نهضوي حقيقي أن يحارب أمثال هؤلاء الحكّام وأن لا يمهد لسلالات جديدة من طغاة الممالك الاستبدادية الوراثية. وبالتأكيد فان الصدع الذي أحدثته الوهابية في جدار النسيج الإسلامي لم يعادله صدع آخر. ولا يزال على المسلمين، والعالم أيضاً، دفع ثمن باهظ لتداعيات أخطر حركة منحرفة على امتداد تاريخهم. فما يشهدونه الآن قد يشير إلى أنهم يعيشون فصول عصر جليدي آخر.

○ ○ ○

ـــ ٣ ـــ

إنّ المفارقة الكبيرة هنا أيضاً أن هذه الحركة المفتعلة والمنبوذة من قبل الاغلبية الساحقة من المسلمين على اختلاف مذاهبهم الفقهية، أصبحت مرجعية لكلّ حركات التطرّف العاملة بالساحة الآن دون استثناء ابتداء من **(القاعدة)** وانتهاء بأنصار الطريقة النقشبنديّة التي بدأت صوفية وانتهت قتالية تدعو للعنف يرعاها عزّت الدوري، بل وامتد تأثيرها على حركة الاخوان المسلمين التي تبنّت منذ **(سيد قطب)** مبدأ تكفير المسلمين بدعوى عودتهم للجاهلية وضرورة نبذهم واعتزالهم والتمهيد لتغيير أوضاعهم بالقوة. ولولا الذهب الأسود وكرم الراعي السعودي وجمعياته **(الخيرية)** في السعودية والخليج لقُبِرت الوهابية ولما بعثت لتصبح مرجعية لهذه الحركات[1].

(١) يؤكد محمد ابراهيم مبروك وهو كاتب إسلامي يدعو لعودة **(الخلافة)**، أن مرجعيات الحركات الدينية الإسلامية تقتضي **(الأخذ عن كبار الأئمة في التاريخ الإسلامي** =

المتخصصون في شؤون الحركات المتطرفة يجدون أنها الوعاء الوحيد الذي يمكن أن يحتضن ويستوعب كلّ فعاليات العنف والتطرّف التي تقوم بها هذه الحركات، لأن المذاهب الإسلامية الأخرى لا تحمل العداوة لبعضها أو للآخرين وتنظر باحترام بالغ للنبي الأكرم ﷺ والصالحين من أهل بيته وصحابته وغيرهم من المسلمين، ولا تلجأ إلى مطرقة التكفير لتفجير رؤوس الذين لا ينتمون لمذاهبهم. كما أنها تحترم خيارات غير المسلمين لممارسة شعائرهم وطقوسهم وتتعايش معهم بسلام ودون حساسيات.

لقد بدا المنتمون للحركات التكفيرية المسلحة، وأغلبهم من ذوي المستوى المعرفي المتدنّي، ينظرون للوهابية كاكتشاف خارق يحمل حلاً سحرياً لجميع مشاكل المسلمين والعالم، وقد بدوا مبهورين باكتشافهم المذهل! وهذا يعود إلى طبيعة الشحن العقائدي وطريقة الأداء النسقي التلقيني الذي تلجأ إليه المؤسسات الوهابية المهيمنة على تنظيماتهم عبر كلّ وسائل الإعلام والإتصال المعروفة ابتداء بالمسجد والكتّاب وانتهاء بالفضائيات وشبكات الانترنت إضافة لوسائل الاتصال التنظيمي المباشر وغير المباشر عبر شبكات دولية سريّة عابرة للحدود تديرها وتمولها أجهزة المخابرات السعودية والقطرية والخليجية الأخرى والجمعيات الخيرية مثل جمعية الاغاثة الإسلامية العالمية في السعودية وجمعية التراث الخيرية الإسلامية في الكويت التي تقوم بضخ أفكار ومنشورات الشيخ محمد بن

= وخصوصاً الأئمة اللصيقين بمنابع الدين الأساسية! مثل ابن حزم وابن تيمية وابن القيم والشاطبي والإمام محمد بن عبد الوهاب والإمام المودودي والإمام البنّا..) وأن ظهور محمد بن عبد الوهاب كان (بمثابة صدمة للعالم الإسلامي أدّت إلى ارتجاج ما كان سائداً فيه من عقائد ومفاهيم وبدع وخرافات واقتلاع الكثير منها من العقول والقلوب.. وقد تأثرت الحركة الإسلامية بالدعوة الوهابية كثيراً..) إبراهيم محمد إبراهيم: (مواجهة المواجهة) ص ١٦ (ط دار ثابت ١٩٩٤ م).

عبد الوهاب ومنظومة دعاة الوهابية إلى المجتمعات الفقيرة في العالم الثالث مع صحن الشوربة ورغيف الخبز عبر مدارس تحفيظ القرآن الكريم والحديث الشريف.

إن ألنتائج المأساوية التي سيتمخض عنها الحراك غير المنضبط للمنظمات السلفيّة المتطرّفة وسعيها للحروب والتقاتل ستحقق ما عجزت (سايكس بيكو) عن تحقيقه وستجزىء المجزّأ وتؤدّي إلى تقسيم البلدان العربية والإسلامية إلى إمارات وإقطاعات مجهرية ضعيفة متصارعة في مدى لا يتجاوز عقداً أو عقدين، وستحقق نتائج باهرة لقوى الهيمنة في العالم للتمدّد حتى داخل غرف النوم وتحقيق كلّ مصالحها وأجنداتها إذا ما استمر الحراك والتقاتل على هذه الوتيرة.

إن هؤلاء الطائشين الذين أنتجتهم ظروف التخلّف والاهمال، كنز مخبوء لم تفكر قوى الهيمنة أنّه سيكون مفيداً لها إلى هذا الحد. وربما يبدون في نظرها هبةً من السماء أرسلت لتنفيذ بقية مخططاتها. ولعلّ استمرار اللعبة سيتيح لها وضع المزيد من الخطط التي لم تفكر بها من قبل وكما تشتهي.

ولا بد أن من جملة المساعي الاستراتيجية للمتطرفين هو تقويض أمن العالم وسلامه في كلّ مكان تطاله أيديهم. وهل سيشعر أحد بالأمان بعد أن وصلت ضرباتهم إلى قلب نيويورك ولندن ومدريد؟!

وهنا لا بد من توخي الحكمة والحذر في التعامل مع هؤلاء وعدم السماح لهم بالعمل والانتشار في أي بلد تحت أية ذريعة، فهم يخططون أيضاً ولهم أجنداتهم المحكمة للحلول في أي مكان كفايروس قاتل سيودي في النهاية بحياة أي جسم يحل فيه بشكل غير منظور وغير محسوس في البداية كما حدث في سوريا إذ احتضنتهم بعد تحرير العراق من صدام بحجة

مقاومة الاحتلال الاميركي للعراق حتى لا تتكرر التجربة هناك. فاستقطبتهم في معسكرات للتدريب ثم صدرتهم للعراق. ومنذئذ بدأ خطرهم الأكبر على سوريا نفسها. وهذا ما تدفع ثمنه الآن. فقد بلعت الطعم وانطلى عليها الغزل السعودي رغم وجود أكبر مؤسسة حزبية تآمرية فيها إضافة لمنظومة مخابراتية متمرسة. ولو أن هناك ديمقراطية حقيقية فيها لوجدنا هناك من ينبّه القيادة إلى مخاطر عملها دون خشية من النصيحة وإبداء الرأي. غير أن الأمر عندما لقي قبولاً من الرئيس والقيادة العليا لم يجد الجميع خياراً إلاّ الموافقة وتأييد قرار القيادة الحكيمة! وهكذا يدفع الشعب السوري ثمن القرارات الطائشة باستقبال عتاة الإرهابيين الذين لفظتهم أوطانهم.

إن القيادة التركية المتأسلمة في ظلّ علمانية موروثة تريد التخلي عنها لصالح تحقيق حلم إعادة الخلافة العثمانية أو الوصاية على الدويلات الإسلامية المتشرذمة أو التي في طريقها إلى التشرذم والتقسيم بقيادة حزب الحرية والعدالة المستحدث والمثير للجدل تخوض نفس المطبّات الخطرة التي خاضها السوريون فتجعل من نفسها راعية للمتطرفين الدينيين الذين يفدون إليها من كل بلدان العالم لإرسالهم إلى سوريا. وبذلك فإنها قد تتعرض لهزات صاعقة تعيدها إلى نهاية عهد دولة الرجل المريض لتنتهي جثة هامدة ملتحقة بدول الربيع العربي التي لا تزال تتساقط أو في طريقها إلى السقوط.

○ ○ ○

ـــ ٤ ـــ

إنّ الدول التي تعمل بآليات مؤسساتية ومعلوماتية رصينة وبأجواء ديمقراطية ينبغي أن لا تتهاون بهذا المجال، وأن لا يكون المتطرفون ذريعة لصدام حضارات أو ديانات مفتعل، وأن لا تتصرف الإدارات فيها بنفس

حماقة الدول الاستبداديّة في عوالمنا الثالثة والرابعة وما دونها. ولعل الفهم الواقعي والتعايش والحوار هو أفضل سبيل لسلام دائم بين أكبر الكتل الدينية والعرقية في العالم. وربما يكون عليها أن تقف دائماً في صف الاعتدال وأن لا تكتفي بشجب الارهاب ثم تغضّ النظر عن جرائم الإرهابيين وتشجعها من طرف خفي فهذه ممارسة تنطوي على مخاطر غير محسوبة.

وإذ أنه لا يبدو في الأفق ما يشير إلى تراجع المتطرفين أو تخلّيهم عن دعاواهم المضللة بضرورة تطبيق (**الشريعة**) التي أصبحت (**شرائع**) بفضل ابطال الانحراف والتزوير وفقهاء السلطة، فإن بريق هذه الدعاوى يستقطب الآن كثيرين ومنهم بعض المنتمين الجدد للإسلام في الدول الغربية بعد تجنيدهم معتقدين أنهم قد توصلوا إلى حقيقة الإسلام إذا ما انخرطوا في (**الجهاد**) ضد أعداء (**الشريعة**)، مع أنهم لا يعرفون عن الإسلام إلا معلومات ضئيلة. وكان الأجدر بمن يدعونهم للإسلام أن يبصّروهم بحقيقة مبادئه السمحاء بدلاً من تجنيدهم في عصابات إجرامية مسلحة أو إعدادهم ليكونوا قنابل موقوتة في خلايا نائمة تفجر أي مكان في العالم في اللحظة التي تراها مناسبة.

○○○

وبتنامي دواعي الهيمنة وتعقد دوافعها لا نجد ما يشير إلى انحسار التطرف والارهاب عن الساحة العالمية. فمن العسير أن يتخلى اولئك الذين يتربعون على عروش السلطة والمال والنفوذ عن المكاسب التي قاتلوا للحصول عليها بشق الأنفس وبعد صراعات ومغامرات ومخاطر عديدة. وإذ أن الارهاب لا يمكن دحره إلا في اجواء طبيعية من الحرية والعدالة وعدم الاستغلال المفرط للآخرين، فان تحقيق هذه الاجواء الصحيّة وحده الكفيل بدحر طغيان الارهاب والتشدد والتخفيف من غلوائه ومخاطره.

ولعل في مقدمة وسائل مقاومته اعتماد المواجهة الايديولوجية[١] مع الأفكار المتطرفة ومرجعيتها الوهابية التي يعتنقها جميع المتطرفين (الجهاديين) ولها سلطان طاغ عليهم.

إن مشروع المواجهة الايديولوجية يتم عبر مؤسسات اعلامية ودور نشر وشخصيات متخصصة في التاريخ والحركات والاحزاب الدينية والسياسية وكذلك عن طريق انشاء مراكز بحوث واكاديميات ومؤسسات بحثية يديرها ويعمل فيها باحثون متخصصون وعلماء دين متنورون لنشر ثقافة التسامح والحوار وتشجيع إقامة حلقات دراسية وندوات ومؤثرات وأسابيع ثقافية ولقاءات وحوارات تخصصية وفتح مواقع الكترونية لصحف ومجلات وانشاء فضائيات بلغات مختلفة تعمل بهذا الاتجاه. والتعاون مع دور نشر سينمائية ومسرحية وتلفزيونية لعرض افلام ومسلسلات تعالج مسألة العنف والإرهاب والتطرف الديني وتداعياته المدمرة على المجتمعات الإسلامية والعالم.

إن الجهد المتعلق بمكافحة الارهاب والتطرف يقتضي قيام بعض الدول الأوربية العظمى بالاتصال بالدول الحاضنة لبؤر الفكر السلفي المتطرف مثل السعودية وبعض دول الخليج لاشعارها بمخاوفها وقلقها من خطورة استمرارها برعاية ودعم مروّجي أدبيات الخطاب الوهابي المشحون

(١) وضع كاتب هذه السطور دراسة بعنوان (**منهج في المواجهة الايديولوجية**) أوضح فيها طبيعة الصراع مع قوى التطرّف وحقيقة الخطاب السلفي المتفجر وقراءته الناقصة للإسلام وتداعيات الحروب والنزاعات وأعمال العنف التي تتصاعد كل يوم. وعرض ملاحظات أولية لمشروع مواجهة مقترح لأفكار التطرّف قد يمكن الاستفادة في الحرب العالمية الراهنة ضد الارهاب والتي تتخذ مسارات متناقضة لا يمكن وصفها بالجديّة أو النزيهة أو الفاعلة. وتؤكّد الدراسة على أسبقية المواجهة الايديولوجية التي لم توضع لها استراتيجية واضحة لحد الآن.

بالعداوة. كما أن هذا المشروع يقتضي أن تقوم هذه الدول بالإستفادة من المراكز والمؤسسات البحثية والثقافية والإعلامية العربية المتخصصة واتخاذها جهات استشارية للتعامل مع هذا الموضوع الشائك والرجوع إليها قبل اتخاذ أي قرار خاص وتبادل الخبرات والمعلومات والعمل على توجيه الرأي العام الإسلامي لتشكيل لجان ضغط على المؤسسة الوهابية لتخفف من وطأة خطابها وفعالياتها العنفية. وقد تقوم لجان الضغط بوضع السلفية الوهابية المتشددة في ملف تذكر فيه تداعيات أدبياته وخطابه التحريضي التكفيري، يقدم للأمم المتحدة وهيئات الدفاع عن الحقوق الدينية وحقوق الإنسان لاستصدار قرار باعتبارها أكبر بؤرة للتطرف الديني المنتج للعنف كما انتجته النازية والفاشية واقناع مؤسسة الحكم الاستبدادية السعودية لإعادة النظر في الوهابية كأساس لشرعيتها والبحث عن بدائل دستورية وقانونية لممارسة السلطة، والإنفتاح على التجارب العالمية. فمن شأن ذلك أن يفوت الفرصة على ردود الأفعال المتشنجة وغير العقلانية في الغرب سواء من قبل أشخاص أو جمعيات أو منظمات على ما يقوم به المتطرفون المنتسبون للإسلام.

إن أموراً عديدة يمكن أن تنجح مشروع المواجهة منها العمل على تخفيف نبرة الخطاب الطائفي وفتح باب الحوار بين المؤسسات الدينية والثبات على المشتركات وإعطاء دور أكبر لهذه المؤسسات وعلماء الدين العاملين فيها للعب أدوار إيجابية في توجيه المجتمع وتحذيره من مخاطر التطرف التي حملتها التوجهات الانحرافية المضلّلة للشيخين ابن تيميّة وابن عبد الوهاب.

كما أن أموراً عديدة أخرى مثل التمسك بالدستور وآليات العمل الديمقراطي ومحاربة الفساد والبيروقراطية وإصلاح الخلل الدستوري والإداري وإعداد برامج تنموية وتربوية وتعليمية شاملة واتاحة فرص عمل

وتدريب واسعة لانتشال المواطنين من حالة الفقر والتخلف من شأنها أن تخفف من وطأة العنف والانحراف لانشغال الناس ببرامج حياتهم اليومية الضرورية.

وفي هذا المجال يمكن الاستفادة من مؤسسة اجتماعية فاعلة لها ثقلها الكبير في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وهي (القبيلة) عن طريق تشجيع التواصل البنّاء والتعاون مع الدولة ومكونات المجتمع الأخرى وترسيخ الأعراف والقيم الايجابية التي ترفض الاعتداء والتقاتل والخروج على سلطة القانون.

كما يهمنا أن نشير إلى الاهتمام بجيل الشباب، الذي سيتحمل المسؤولية في المستقبل واعطائه الأولوية في عملية البناء والإدارة والتنمية.

ومن نافلة القول أن نذكر هنا أن استعادة أجواء الثقة بين أبناء الشعب الواحد والنخب السياسية والدينية التي تمثل الجماهير من شأنه تفويت الفرص على قوى التطرف لتمرير خطابها وخططها.

بدون الوعي والإدراك اننا سنخسر جميعاً دون استثناء في أي معارك أو حروب نخوضها ضد بعضنا، وبدون مواجهة متكاتفة وتضامن بين الجميع فإنّ يد التطرف ستكون هي العليا وسيكون الدرس الذي نتلقاه قاسياً ومتأخراً.

واشنطن في الأول من أيلول ٢٠١٣

موجات الغزو الوهابية: الإرهاب لإقامة الدولة

لا يحمل الخطاب الوهابي أية آلية لتقبّل النقد أو الحوار، وطموح الحليفين، **(الشيخ محمد بن عبد الوهاب)** و**(محمد بن سعود)** لتحقيق دولتهما **(الإسلامية)** جعلهما يلجآن إلى اسلوب وحيد لنشر مفرداته وقراءته الفقيرة والمحدودة للإسلام والترويج لأفكاره وهو اسلوب القتال والعنف. وقد عملا على تطوير آلياته بشكل مبالغ فيه حتى أصبحت الوحدات الوهابية القتالية نموذجاً للتطرّف المفرط حينما استقطب التيار الوهابي فيما بعد الاف الأعوان والمقاتلين المتحمسين لمشروعه التدميري.

وقد طور ورثة الشيخين فيما بعد هذا التوجه المتطرّف، حتى أصبح سمةً ملازمة لكلّ الجهات التي تبنّت الأفكار الوهابية حتى اليوم، ومنها الأحزاب **(الدينية)** مثل **(القاعدة)** و**(الجهاد)** وغيرها ن الحركات السلفية التي تنتشر الآن في معظم بلدان العالم الإسلامي في آسيا وافريقيا وغيرها[١].

---

(١) يؤكّد محمد إبراهيم مبروك وهو كاتب إسلامي يدعو لعودة الخلافة في كتابه (مواجهة المواجهة. دار ثابت، القاهرة، ط ١٩٩٤، ص ١٧ - ١٩): أن مرجعية الحركات الدينية الإسلامية تقتضي **«الأخذ عن كبار الأئمة في التاريخ الإسلامي، وخصوصاً الأئمة اللصيقين بمنابع الدين الاساسية»** وذكر منهم **«إبن تيمية والإمام محمد بن عبد الوهاب والإمام المودودي والإمام البنّا»**. وعن (محمد بن عبد الوهاب) **يقول مبروك «إن ظهوره كان بمثابة صدمة للعالم الإسلامي أدت إلى ارتجاج ما كان سائداً فيه من عقائد ومفاهيم وبدع وخرافات واقتلاع الكثير منها من العقول والقلوب... وتأثرت الحركة الإسلامية بالدعوة الوهابية كثيراً»**. =

إن حياة (**الشيخ محمد بن عبد الوهاب**) ومعاركه ووصوله للسلطة مع شريكه (**محمد بن سعود**) بذريعة إقامة دولة إسلامية، شكّلت حافزاً لدى (**الإسلاميين المتأخرين**) من انصار الخط السلفي لإعادة تجربته التي انتهت بالفشل على أيدي شركائه الذين استأثروا بالحكم وجعلوه وراثياً استبدادياً.

إن المدرسة الوهابيّة تدعي أن قراءتها للإسلام هي وحدها الصحيحة، وإن ما عداها تقود إلى الكفر والهرطقة، وأصرت على أن اتباعها هم الفرقة الناجية التي تستحق الجنة من بين جميع المسلمين.

واستناداً إلى فهمها هذا، نستطيع أن نتعرف على طبيعة نظرتها التصادمية التقاطعية مع بقية المسلمين واتباع الديانات الأخرى.

لقد كان مشروع (**الشيخين**) منذ البداية توسعياً طموحاً، سعياً لتحقيقه بمختلف الوسائل التي سنشير إلى بعضها. ومن الطبيعي عندما يكون لهما اتباع مقتنعون بدعوتهما فإنهما يسعيان لبسط نفوذهما بمختلف الوسائل وفي مقدمتها اللجوء للغزو بآلياته القاسية القديمة التي ظلّت تمارس طيلة مئات السنين.

إن الأجيال الوهابيّة السابقة وحتى المعاصرة تنظر باعتزاز وفخر إلى أعمال الغزو والسلب والاجتياح الوهابيّة كأعمال من أعمال البطولة النادرة، وتعرض في المدارس على أنها مآثر جليلة مهدت لحياة إسلامية جديدة صافية. مع أنها كانت تمهيداً لعهود من الدمار والتأخر والتناحر جرّت الويلات على المسلمين ثم على العالم بعد ذلك.

○ ○ ○

= ولأن افكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب تمثّل النسخة النهائية للأفكار السلفية، ولأنه أصبح المرجع الأعلى لأتباع الخط السلفي، فإن تبنّيه للعنف أصبح تقليعة أو منهجاً وهابياً مقبولاً، بل ضرورياً لنشر أفكاره ودعاواه.

ظلّت المعارك الوهابيّة سجالاً بينهم وبين جيرانهم في شبه الجزيرة وغيرها. وقد تطوّرت خبراتهم وإمكاناتهم القتالية في بضع سنين ليصبحوا قوة ضارية اشتهرت بقوتها وضراوتها.

لقد تحدّث المؤرخون السعوديون من مناصري واتباع الخط الوهابي السعودي عن حقيقتين:

الأولى، تثبت أن محمد بن سعود لم يكن مقاتلاً أو ذا خبرة قتالية على الاطلاق وكان شيخاً ضعيفاً[١].

الثانية، تؤكّد أن الحليفين لم يكن لهما جيش أو حتى كتيبة ذات قدرة قتالية ملموسة[٢].

○ ○ ○

(١) يحدّثنا مؤلف (لَمْعُ الشهاب) في تبرير لضعف محمد بن سعود وعدم خبرته القتالية قائلاً: «.. في تلك الغزوات لم يظفر محمد بن سعود نفسه، بل الرئيس وأمير الجيوش هو ابنه عبد العزيز، وذلك ليس لضعف من القوة لمحمد بن سعود، بل كان غير مدبر للحروب» لَمْعُ الشهاب. ص ١٢٥.
وحتى عبد العزيز هذا لم يكن ذا خبرة أو قوة كافية كما يحدّثنا هذا المؤلف أيضاً: «فأول غزوة ركب فيها عبد العزيز بن محمد بن سعود على أهل الوشم اتفق معهم (صادفهم) في البرية، فحاربوه وقتلوا منه خلقاً كثيراً، وانكسر فرجع إلى الدِّرعِيَّة». المصدر ص ١٢٦.
كما يحدّثنا الشيخ عبد الله البسام عن ضعف محمد بن سعود قائلاً: «فبعد أن انتقل الشيخ إلى الدِّرْعِيَّة واتفق مع الأمير - محمد بن سعود - صار عثمان بن معمّر يشن عليها الغارات من العيينة ويرسل كوكبات الخيل عليها الفرسان، وكان الأمير محمد بن سعود من الضعف وعدم القوة والعدة بحال لا يستطيع معها مقابلة حملات عثمان بن معمّر، ولذا كانت بنت محمد بن سعود تقول من قصيدة لها شعبية:

ما شاقني كود سربة لابن معمّر تطل على الزلال كل عشية
يا يبه شوف للخيل خيل مثله وإلا فزل عن شيخة الدِّرْعِيَّة

والزلال مكان قريب من سور الدِّرْعِيَّة» علماء نجد خلال ستة قرون - الشيخ عبد الله البسّام. ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) يقول مؤلف كتاب (لَمْعُ الشهاب): «وإنّ أول حرب أوقعه محمد بن سعود بأمر محمد بن

لا شك أننا نلمس من البداية نزعة واضحة لدى مؤسس الوهابيّة للعنف واخضاع وتغيير الآخرين بالقوة، طالما أنهم لا يريدون الانصياع للاطروحات الوهابيّة وقبولها على علاّتها. وقد اقترنت هذه النزعة بنزعة مماثلة لدى شريكه السعودي مما مهد لنشوء أوضاع قتالية متشنّجة ظلت سائدة إلى أمد طويل. وأصبح قانون الغزو والصراع هو الأساس في ظلّ هذه الأوضاع.

وقد صدّر العنف الوهابي عبر أجيال متعاقبة وإلى يومنا إلى كلّ معتنقي الفكر الوهابي في جميع أنحاء العالم حتى أصبح أساساً لثقافة العنف التي تتبنّاها الحركات المتطرّفة التي ولدت في الجزيرة العربية وانتقلت إلى باكستان وأفغانستان وغيرها مثل (**القاعدة**) وغيرها، وأصبح هذا العنف قاعدةً وما عداه إستثناء.

○ ○ ○

لقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب المسؤول الأول وصاحب القرار الوحيد في إمارة الدِّرْعِيَّة الناشئة، بل إنه المؤسس الحقيقي لها بعد أن تحوّلت من مشيخة صغيرة مغمورة إلى إمارة قويّة لها ثقلها السياسي والعسكري، ويمكن تحميله المسؤولية منذ البداية عن كلّ عمليات الغزو والإبادة التي شهدتها منطقة شبه الجزيرة والمناطق المجاورة فيما بعد، لأن شريكه، محمد ابن سعود لم يكن شريكاً الا بالاسم، كما يؤكّد ذلك ابنْ غَنّام:

عبد الوهاب هو حرب بن دوّاس. وكان عدد غزوه إذ ذاك عشرين ذلولاً وسبعة أفراس». لَمْعُ الشهاب. ص ١٢٥.

ويؤيد ذلك ابن بشر متحدثاً عن ضعف الدِّرعيَّة في بداية أمرها قائلاً: «ثم أمر الشيخ بالجهاد فامتثلوا. فأول جيش غزا سبع ركايب، فلما ركبوها وأعجلت بهم النجائب في سيرها سقطوا من أكوارها، لأنهم لم يعتادوا ركوبها» ابن بشر - عنوان المجد في تاريخ نجد. ص ١٤ - ١٥.

«. . وقد بقي الشيخ بيده الحل والعقد، والأخذ والعطاء، والتقديم والتأخير، ولا يركب جيش ولا يصدر رأي من محمد بن سعود ولا من ابنه عبد العزيز إلا عن قوله ورأيه وحتى عبد العزيز لم يكن يقطع أمراً دونه، ولا ينفذه إلاّ بإذنه. .»[1].

---

(١) تاريخ نجد. ص ٨٩ و٩٠. ورغم كلّ ما قيل عن (الشراكة) في البداية، فإن مؤرخي الدولة السعودية أنفسهم ذكروا أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد سيطر على كلّ الأوضاع في الدِّرعيَّة فأصبح الرجل الأول يدير كل شيء ويتحكم في سياسة وشؤون الدولة الناشئة. ورغم ما ادعاه المؤرخون المتأخرون عن حاجته لسيف يحميه وينشر دعوته فإن مما لا شك فيه أنه لم يكن حاجة لذلك بعد أن أدرك قوة تأثيره على اتباع ومريدين أبدوا استعدادهم للسير معه حتى النهاية. ولم تكن الدِّرعيَّة سوى مركز لتجميعهم حتى تبدأ اللحظات الحاسمة التي يبدأ فيها غزواته ومعاركه ضد الإمارات والمشايخ المجاورة. ويمكن القول أن آل سعود هم الذين استفادوا من الوهابيّة. ولم تكن هي التي استفادت منهم، اللهم إلا في أمر واحد وهو - كما قلنا - جعلها مشيختهم الدِّرعيَّة مركزاً لتجمعهم ومنطلقاً لغزواتهم ومعاركهم الحربية.

وعن انفراد الشيخ ابن عبد الوهاب بإدارة شؤون الإمارة الناشئة يقول ابن بُشر: «. . .**صار الأمر كلّه بيد محمد بن عبد الوهاب، فإن ارتضاه ارتضوه، وإن أباه أبوه بلا كلام. وكانت العادة جارية بأن محمد بن سعود يزوره كل يوم مرتين صباحاً ومساء، هو وابنه عبد العزيز وبقية أولاده، وكانوا يجلسون عنده متئدين صامتين لا ينطقون بشيء ما لم يحادثهم به أولاً، ويدرسون على يده علم التوحيد الذي صنفه، لكن يدرسهم درساً خاصاً في مجلس على حدة. ثم إن أمر محمد بن عبد الوهاب قوي قوة تامة، وصار جميع أهل الدِّرعيَّة في قبضته، وكذلك من حواليها من القرى وأهل الرساتيق**». لَمْعُ الشهاب. ص٣٥ و٣٦.

ويعترف حسين خلف الشيخ خزعل بنفوذ الشيخ قائلاً: «. . . **فلم يقم الأمير محمد بن سعود بأي مشروع أو يصدر قراراً ذا شأن إلا بموافقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فإن ارتضاه ارتضاه الأمير وإن أباه أباه. . .**» تاريخ الجزيرة العربية. ص ٢٦٥ - ٢٧١.

وهو ما ذكره ابن بشر: «. . . **فكانت الأخماس والزكاة وما يجيء إلى الدِّرعيَّة من دقيق الأشياء وجليلها، تدفع إليه بيده ويضعها حيث يشاء ولا يأخذ عبد العزيز ولا غيره من ذلك شيئاً إلا عن أمره، بيده الحل والعقد والأخذ والعطاء، والتقديم والتأخير**، =

وهو ما ذكره ابنْ بُشر بنصه كما رأينا في الهامش.

ويبرر عبد العزيز سيد الأهل العنف الوهابي بقوله:

«.. في المراحل الأولى لغزو القبائل والبلاد، كان وجه الدعوة كلّه وهابياً سوى أن اليد كانت سعودية، فظهر الجد في الدعوة الذي سمّاه بعضهم عنفاً، وسمّاه الجهلاء بحقائق الدين بدعة. وكان مبعث هذا الجد أو العنف، أن الدعوة دينية في أساسها، والسياسة تسايرها وتسندها، فلم يكن هناك مجال لمراعاة المشاعر المنحرفة، مهما كانت هذه المشاعر قد أصبحت من الأمور المقدّسة عند أصحابها»[1].

○ ○ ○

إنّ نزعة الشيخ الطاغية للعنف والتكفير انتقلت إلى اتباعه عبر الأجيال لإعجابهم به وتصورهم أنهم حينما يفعلون ذلك فإنهم سيرضونه حتى وهو في قبره ويحققون طموحاته ومشروعاته.

وقد أدلج بعضهم لتوجهات الشيخ العنيفة كما فعل (سيد الأهل) واعتبروها الوسيلة البديلة للحوار والإقناع لأن المجتمعات بنظرهم قد انحرفت ولا يمكن اعادتها إلى الخط (**الإسلامي الصحيح**) إلا بالقوة.

○ ○ ○

من المعلوم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد وجد له أعواناً

= ولا يركب جيش ولا يصدر رأي من محمد وابنه عبد العزيز إلا عن قوله ورأيه... وكان هو الذي يجهز الجيوش ويبعث السرايا ويكاتب أهل البلدان ويكاتبونه، والوفود إليه والضيوف عنده، والداخل والخارج من عنده» تاريخ نجد. ص ١٥، ص ١٩.

(١) عبد العزيز سيد الأهل - داعية التوحيد - محمد بن عبد الوهاب، ص ١٢.

ومريدين تبنّوا دعوته في مختلف أنحاء نَجد، وقد حدّثنا مؤرخوه عن هؤلاء الأعوان ونشاطاتهم في حُرَيْمَلة والعُيَيْنة التي سيطروا عليها إلى أن تخلى عنهم أميرها عثمان بن معمّر الذي تحالف معهم أولاً.

إن نشاطه الدؤوب لنشر دعوته وعزيمته التي لم تتناقص لحظة لاجبار الناس لتبني ما توصل إليه من قناعات لامست قناعات ومشاعر العديد من أبناء مختلف القبائل، وقد اندفعوا لنصرته ونشر أفكاره بين أفراد قبائلهم وأصبحوا يشكلون تنظيماً منحازاً له أجندته وبرامجه وخططه.

وقد التحق به الكثير منهم في الدِّرْعِيَّة - كما سبق وان ذكرنا - لكن أغلبهم بقي ضمن موقع إقامته السابق مع قبيلته. فكانوا نواة أو طليعة عسكرية لقواته الغازية فيما بعد، أو طابوراً خامساً داخل (**بلدانهم**) كما ذكر الاستاذ عبد الرحيم عبد الرحمن[١].

ورغم أن هذا الكاتب يحاول أن يوحي أن النفوذ كان سعودياً منذ البداية، وأن محمد بن عبد الوهاب لم يكن سوى شريك ثانوي لمحمد بن سعود، مع أن الأمر كان عكس ذلك تماماً، فهو يذكر أن من جملة أسباب انتصار الوهابيّة أو السعوديين على حد تعبيره هو وجود عناصر اعتنقت مبادىء الدعوة السلفية في معظم بلاد نَجد وقراه قبل أن يصل إليه النفوذ السعودي، فأصبحت هذه العناصر بمثابة طلائع عسكرية (طابور خامس) داخل بلدانهم لآل سعود، الذين يعملون على نشر مبادىء الدعوة الوهابية. بالاضافة إلى أن هناك عناصر أخرى تركت بلدانها وهاجرت إلى الدِّرْعِيَّة خير عون لها في معرفة نقط الضعف في مواقع البلدان الأخرى المنافسة

---

(١) الذي يذكر أنه قد توصل إلى (**أن الوهابية كانت دائماً أسبق في الوصول إلى المناطق التي يتعرض لها آل سعود وبالتالي لعبت دوراً كبيراً في انتصارهم على تلك المناطق..**) عبد الرحيم عبد الرحمن - الدولة السعودية الأولى ص ٩.

لها. وقامت بدور كبير في القضاء على رؤوس المقاومة ضد النفوذ السعودي. ووجود هذه العناصر يفسر لنا حقيقة هامة، وهي أن انتشار مبادىء الدعوة الوهابية كان دائماً يسبق الخضوع السعودي، وكان يمهد له سبيل النجاح في معظم الأحوال ويعمل على ترجيحه)[١] و(إن مبادىء الدعوة السلفية كانت دائماً أسبق في الوصول إلى المناطق التي يتعرض لها آل سعود، وبالتالي لعبت دوراً كبيراً في انتصارهم على تلك المناطق)[٢].

○ ○ ○

ويعترف الاستاذ عبد الرحيم عبد الرحمن بأن الدعوة الوهابية انتهجت طريق الحرب والعنف، وإن قادتها وعلى رأسهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب حاولوا إخضاع الناس بالقوة:

«. . فقد كان يلفت نظري دائماً عند قراءة المصادر الأصلية لهذا التأريخ أنني لا أكاد أجد يوماً من أيام تاريخ هذه الدولة يخلو من غزو أو غارة يشنها آل سعود

---

(١) المصدر السابق. ص ٨١ و٨٢. ومع أن الاستاذ عبد الرحيم يريد أن يثبت أن آل سعود هم أصحاب القوة والنفوذ وأن الشيخ مجرد فقيه صاحب دعوة إلا أنه يعترف ضمناً أن قوة آل سعود ما كانت لتتم لولا نفوذ الشيخ الديني وخضوع أتباعه له وانتشارهم في مختلف الانحاء وكونهم طابوراً خامساً يساعدهم في كشف نقاط الضعف لدى أعدائهم. وهو ما يشير إليه عبد العزيز سيد الأهل رغم محاولاته إثبات أن القوة الضاربة كانت لآل سعود وليس للشيخ محمد بن عبد الوهاب.

يقول سيد الأهل: «فسارت فتوحات آل سعود في الجزيرة قدماً تحت راية الوهابية، وكان على من لم يطع الدعوة الخالصة عن رضا أن يطلبها عن هيبة أو رهبة. . .» داعية التوحيد. ص ٧٧.

يستبدل سيد الأهل كلمة (غزوات) بكلمة (فتوحات) وكأنه يستنسخ الحالة الإسلامية الأولى ويعترف بأن التخويف والإرهاب هو ما لجأ إليه الغزاة الوهابيون لإخضاع خصومهم الذين لم يقتنعوا بالدعوة الوهابية.

(٢) الدولة السعودية. ص ٩.

وأتباعهم على منطقة من مناطق شبه الجزيرة العربية، أو قبيلة من قبائلها، أو على أطراف الولايات العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية، العراق وبلاد الشام»[١].

يمكن اعتبار تاريخ الحركة الوهابيّة تاريخ حروب وغزوات ومعارك، استخدم فيها أنصارها أشد الأساليب قسوة وضراوة، فقد أرادوا إخضاع من لم يقتنع بدعوتهم بالعنف وجعلوه وسيلة لتحقيق طموحاتهم.

ولعلّ سبب هذا يرجع إلى طبيعة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الدموية المحاربة والمسكونة بهواجس القطيعة والغضب والمحبطة جراء المقاومة التي جوبه بها منذ بداية جهره بأفكاره الغريبة وأطروحاته غير المألوفة وغير الواقعية والتي لا تلامس جوهر الإسلام وحقيقته.

إنّ اسقاطات تلك الشخصية على أتباع ألفوا الغزو واعتادوه وأصبح جزءاً من ثقافتهم، جعلت من أولئك الأتباع نسخاً من الشيخ ترى فيه ملهماً وقائداً للتغيير الذي فهموه كما أراد هو ذلك، وقد اعتقدوا أنه سيحقق طموحاتهم بغزوات و(**فتوحات مشروعة**) ينالون فيها حظهم من الدنيا إضافة لما سيحفظ لهم من حظ سعيد في الآخرة، وبدت وعود الشيخ بالنصر في الدارين أكيدة خصوصاً بعد تحقيق انتصاراته الأولى، وبدا لهم أنه مسدد بعناية إلهية خارقة. ويمكن اعتبار الشيخ استناداً لما نعرفه من سيرته عرّاباً لموجات العنف التي اجتاحت العالم بدعوى الدفاع عن الإسلام أو نشره، واعتباره مرجعاً لحركات التطرّف التي رأت فيه أباً روحياً لها.

○ ○ ○

الملاحظ أن المعارك التي خاضها الوهابيون اتسمت بقدر كبير من القسوة والبشاعة ضد خصومهم وضحاياهم. وقد نسفوا كلّ التعليمات

(١) نفس المصدر. ص ٨.

الإسلامية بخصوص الجرحى والأسرى والضعفاء من كبار السنّ والأطفال وكذلك الممتلكات وهو ما يعد جريمة بنظر الأديان والقوانين الوضعية. غير أنهم بذلك أثاروا الرعب لدى أولئك الخصوم وأصبحوا اسطورة في انتهاك الحرمات وعدم الوقوف عند حد في القتل والترويع، وأصبح الرعب الوهابي هاجس جميع جيرانهم في شبه الجزيرة العرب والعراق وسوريا.

لقد كانت أيام الرعب تلك من الذكريات السعيدة التي يستعيدها الوهابيون المعاصرون بزهو وإعجاب باعتبار أنها قد حقّقت لهم دولتهم المنشودة التي كان يمكن أن تمتد وتحكم إلى ما لا نهاية، وأنها قد حقّقت طموحات شيخهم الذي نام قرير العين بعد أن سلم مهماته لخلفائه من آل سعود والمؤسسة الدينية الوهابيّة الداعمة لها.

○ ○ ○

عشرات القصص عن حوادث الرعب والقسوة المفرطة ترويها المدونات التأريخية السعودية وغيرها، وقد حشد كم هائل منها في بطون تلك المدونات. ولعلّ السعوديين قد تغاضوا عنها، بل أنهم ألمحوا إليها بتندر رغم ما قد تثيره من نقد ضدهم. ولعلّ مرد ذلك يعود إلى حرصهم على تصدير سمعتهم سيئة الصيت في مجال حرصهم على تثبيت عروشهم ومصالحهم ووضع خطوط حمراء أمام كلّ منافس أو طامع أو ناقد[1].

---

(١) ومع ذلك يذكر مؤرخو الدولة السعودية أن أهل الدِّرعيَّة (**الذين كانوا في غاية الجهالة وما وقعوا فيه من الشرك الأكبر والأصغر والتهاون بالصلاة والزكاة ورفض شعائر الإسلام..**) هم الذين جاهدوا مع الشيخ بعد سنتين بعد أن (**استقر في قلوبهم معرفة التوحيد بعد الجهالة واشرب في قلوبهم محبة الشيخ وأحبوا المهاجرين وآووهم**). ابن بشير. ص ١٤. قد أصبحوا بقدرة قادر وبهذه الفترة الوجيزة جنوداً مخلصين جاهدوا بين يدي الشيخ الذي (**أمرهم بذلك وحضهم عليهم فامتثلوا**)، ابن بشر، ص ١٤. وقد أسالت الغنائم لعاب (**المجاهدين**) الذين انطلقوا في أطول عملية كر وفر في تاريخ الجزيرة منذ أن كتب هذا التاريخ واكتسحوا كل المدن والبلدات والقرى والواحات والتجمعات القبلية =

. . . . . .

= ومناطق الجوار في العراق وغيرها. يتحدّث ابن بشر عن (فتوحات) و(وقعات) و(غزوات) و(سطوات) تأخذ الحيز الأكبر من تأريخه.
لقد عمد الحليفان في أكبر الحملات الانتقامية إلى تصفية خصومهم ومنافسيهم والقضاء على الشخصيات المرموقة من علماء دين ورؤساء قبائل وامراء. وكان ابن معمّر من أوائل الذين طالتهم يد الانتقام السعودية الوهابية فاغتيل في مصلاه بالجامع بعد انتهاء صلاة الجمعة وبعد أن سلّم من صلاته بحجة الخروج على (الإسلام) ونقض العهد والخيانة وموالاة الأعداء.
لقد عمدوا في غزواتهم إلى قتل الناس دون تمييز حتى الشيوخ والأطفال واستباحوا أعراضهم وأموالهم وهدم مدنهم وقلع زروعهم بحجة أنهم مشركون خارجون عن الإسلام.
وكان (الشيخ) يشارك أتباعه في بعض الغزوات والوقائع حتى لأنه سار إلى العيينة فأمر بهدم قصر (ابن معمّر) وبقية المدينة فهدمت ولا تزال اطلالاً حتى اليوم.
لقد كان عبد العزيز بن محمد بن سعود بطل أغلب الغزوات الوهابية التي كانت تدار من قبل الشيخ، وقد اشتهر بقسوته وأساليبه العنيفة لذلك فإنه كان مقرباً جداً من الشيخ وكان يثني عليه ويمدحه في كل مناسبة حتى أنه أوصى بأن يتولّى (خلافة) أبيه. وهكذا كان الأمر وقد انتهى عهده الدموي بعد اغتياله بعهد أشد منه دموية حينما خلفه ابنه سعود بن عبد العزيز المعروف بـ (سعود الكبير)..
لقد افتخر المؤرخون (السعوديون) بكثرة الغنائم التي وصلت الدِّرعيَّة بعد الغزوات وقارنوها بالغزوات التي قادها (خلفاء الإسلام) الأوائل. كما افتخروا بأساليب الشدة التي لجأوا إليها مع أهل العيينة والرياض والاحساء والطائف وغيرها.
أما غاراتهم على كربلاء، من مدن العراق المقدسّة التي تضم مرقد الإمام الحسين حفيد رسول الله ﷺ فإنها مبعث فخرهم واعتزازهم لحد الآن، رغم أنها لم تكن مدينة مقاتلة ولم تضم إلا السكان المدنيين والزائرين.
يقول ابن بشر في (تاريخ نجد): (وفي سنة ١٢١٦هـ سار سعود بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة وقصد أرض كربلاء ونازل أهل بلد الحسين عليه السلام.. فحشد عليها المسلمون، وتسوروا جدرانها ودخلوها عنوة، وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت! وهدموا القبة وأخذوا ما فيها وما حولها وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك ما يعجز عنه الحصر ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك =

لقد تحدّث بعض المؤرخين برومانسية عن محاولات الشيخ السلمية ودعوته الناس بالقول والموعظة الحسنة وإنه كان يبذل في ذلك جهوداً مضنية رغم الاستجابة البطيئة لتلك الدعوة، وإنه لم يجد بداً من الاستعانة بالسيف بجانب دعوته الإرشادية (**فأذن بالجهاد وحضّ اتباعه عليه مقتدياً برسول الله ﷺ فامتثلوا لأمره**).

لا شك أن الشيخ هو صاحب القرار باللجوء إلى الغزو والعنف ضد من لم يستجيبوا لدعوته، والملاحظ أنه كان يلجأ إلى اجبار الناس لحضور الدروس التي كان ينظمها لتعليم مبادىء دعوته. وقد لجأ إلى أساليب غير مشروعة وغير معروفة لمعاقبة من لم يحضروا رغم عدم وجود أية سابقة قانونية أو تاريخية لمثل تلك العقوبات.

«ثم أنه وضع درس (كتاب التوحيد) في المسجد صباحاً ومساءً كل يوم. وكان يأمر النساء والصبيان بحضور الدرس ليستمعوا قواعد التوحيد منه. وقد نقل لنا أن رجلاً من أهل الوادي ما كان ليحضر الدرس، فأمر محمد بن عبد الوهاب بإحضاره، فقال له: لم لا تحضر الجماعة للدرس؟

فأخذ الرجل يتعذّر، فقال محمد بن عبد الوهاب: لا بدّ لقبول توبتك من أن تحلق لحيتك أو تغرم مائة ذهبة.

= الأموال وقتل من أهلها قريب الفي رجل..). ص ١٢١ - ١٢٢.
لقد عمد الوهابيون على هدم أغلب الآثار العمرانية الإسلامية واستخدموا أشد الأساليب وحشية مع (**خصومهم**) وضحاياهم كما فعلوا في كربلاء وجنوب البصرة وغيرها.
وكان اسلوب حرب العصابات الذي اعتمدوه قد ساعدهم على الكر والفر والهروب السريع عند مواجهة أي شيء أو قوة نظامية.. وفي كل الأحوال نجد التبريرات الوهابية لتلك الغزوات مثل الشرك أو الخيانة أو (**تضييع بعض فرائض الدين وايواء المحدثين**) وغير ذلك وهي تبريرات لها مفعول السحر لدى اتباع الخط الوهابي.

وكان الرجل متوسط الحال، فرضي بأداء المال لأن حلق اللحية أقبح ما يكون شرعاً وعرفاً عربياً»[١].

○ ○ ○

كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو المسؤول العسكري الأول (وكان هو الذي يجهز الجيوش ويبعث السرايا ويكاتب أهل البلدان ويكاتبونه، والوفود إليه والضيوف عنده، والداخل والخارج من عنده)[٢].

ويكاد كلّ كتاب الدولة السعودية يعترفون بأنه الرجل الأول، رغم محاولة بعض المتأخرين إنكار ذلك رغم اعترافهم الضمني بإشرافه العام ومسؤوليته عن كلّ الحروب والغزوات.

إنّ محاولة إقامة إمارة في الدِّرْعِيَّة بذرائع إسلامية كانت تستدعي امتلاك قوة مالية وعسكرية قوية لامتصاص البطالة الناشئة عن وفود النازحين الفقراء أو المهاجرين على حد التعبير السائد لدى المنتسبين لهذه الإمارة، وقد رأينا أن قرية الدِّرعِيَّة الفقيرة لم يكن بإمكانها استضافة اعدادهم المتزايدة.

إن إعداد هؤلاء نفسياً وتثقيفهم بأفكار الدعوة الوهابية أتاح للشيخ نشر تلك الأفكار باسلوبه التلقيني وأتاح له فرصة شحنهم وتعبئتهم لتحقيق مشروعه التوسعي ضارباً على وتر تحقيق طموحاتهم الشخصية بالحصول على المغانم كما حصل مع أسلافهم عندما فتحوا فارس والعراق ومصر وغيرها.

لقد أسال لعابهم لغنائم اسطورية ما كانوا ليحلمون بها في أجواء نَجْد الفقيرة. وعندما اكتسح كربلاء والطائف والعُيَيْنة وغيرها بدت لهم نبوءاته

---

(١) لَمْعُ الشهاب. ملحق. ص ١٢٢.

(٢) ابن بشر. ص ١٥.

صادقة، إذ تغيّر حالهم وأصبحت الدِّرْعِيَّة غارقة بالذهب والفضة والأموال وقد اعتبروا ذلك دليلاً على نجاح دعوته.

إدّعاءات التكفير وبريق الذهب كان لهما الأثر الفاعل في تحشيد الأنصار خلف الشيخ وأعوانه، كما أن طموح الشركاء الثانويين من آل سعود في أن يوسعوا نفوذهم ودورهم في الشراكة وأن يكونوا أمراء حقيقيين لا مجرد شيوخ قبائل محليين صغاراً، جعلت عبد العزيز بن محمد بن سعود وولده سعود يطلقان العنان لوحشيتهما غير المحدودة ضد كلّ من قاومهما أو وجد فيه منافساً حقيقياً.

○ ○ ○

لا بدّ أن نؤكّد هنا حقيقة مهمة وهي: أن أمور (الإمارة) الناشئة لم تكن تدار ببساطة من قبل مسؤولين قليلي الخبرة، بل يمكن القول أن المسؤول الأعلى عن كلّ شيء، وهو الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان يتمتع بحنكة وخبرة تثير التساؤل والحيرة حينما يمتلكها شيخ من المفروض أنه متخصص في الأمور الدينية البحتة. فقد عمل على تطوير البندقية القتالية والمدافع وبناء الحصون والقلاع والحرب النفسية وتسليح المقاتلين بالإيديولوجيا، وإرسال الجواسيس، والايقاع بين الخصوم، ورشوة بعض المشايخ، وحضر السفر على بعضهم والزامهم بالإقامة الإجبارية، وضبط ميزانية الإمارة وميزانية الحرب والتخطيط المسبق لأية عمليات حربية مقبلة، وتنظيم الجيوش وتجهيزها. وهو أمر لم يكن متاحاً لأي أحد في تلك البيئة المنقطعة الفقيرة.

هنا قد يتساءل القارىء بعد قراءة (لَمْعُ الشهاب) و(مذكرات المستر همفر): هل أن وراء الشيخ يداً خفية تدير الأمور بتلك البراعة والمهنية التي تتمتع بها دول، لا امارات صغيرة على حافات المدن المتحضرة وكيف

اتيحت للشيخ الخبرة في كلّ تلك الأمور الشائكة والتي تحتاج إلى خبرة فرق من الخبراء؟

لقد رأينا أن آل سعود لم يكونوا سوى شيوخ بائسين مغمورين ولم يكونوا سوى أقزام أمام شخصية الشيخ المتألقة والممسكة بزمام الأمور، وكانت أدوارهم ثانوية في تنفيذ المهمات، وما ذكره المؤرخون الموالون للدولة السعودية، لغرض تضخيم تلك الأدوار وعرض آل سعود كأمراء حقيقيين ذوي ثروة وقوة كبيرة، لا يعدو أن يكون خيالاً أو أكذوبة كبيرة، وقد رأينا أن هؤلاء كانوا من جملة الأتباع للشيخ إلى أن تنازل هو عن السلطة في أواخر أيامه لصالحهم بعد أن وجد أنهم وجدوا في تجربته طريقاً وحيداً لتحقيق مصالحهم وأن قناعاتهم قد رست لصالحها وأن مسيرتهم معه نهائية لا عودة منها لذلك **(أمر الشيخ رحمه الله تعالى في سنة ١٢٠٢هـ، أهل بلدان نَجد وغيرهم أن يبايعوا سعود بن عبد العزيز وأن يكون ولي العهد بعد أبيه)**[١].

إن القسوة التي اشتهر بها (سعود الكبير) والتي كانت طابعاً مميزاً للقيادات الوهابية السعودية، لم تكن تماثلها إلا قسوة والده عبد العزيز وجدّه لأمه، الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي رأى فيه وريثاً مؤهلاً لاخضاع كل من لا يستجيب لدعوته بالسيف.

إن صور البشاعة التي تقطع فيها رؤوس المعارضين أريد لها أن تمثل أمام أنظار أي معارض محتمل في المستقبل وقد اعتبروها مشروعة ومبرّرة طالما أن الهدف منها (الدفاع) عن مصالحهم وامتيازاتهم وردع وإرهاب منافسيهم وخصومهم[٢].

---

(١) ابن بشر. ص ٨٣.

(٢) يقول حافظ وهبة، مستشار الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن مؤسس الدولة السعودية الثالثة، في كتابه (جزيرة العرب في القرن العشرين). =

لا يمكن تبرير العنف الوهابي السعودي إلا بحرص أقطاب الحكم على التمتع بما حصلو عليه من ثروات طائلة لم يكن أجدادهم ليحلمون بالحصول على جزء بسيط منها. ومهما حاولت المؤسسة السعودية التستر

= «كان سعود الكبير مشهوراً بالقسوة على المجرمين (أي المعارضين) سمعت مراراً من جلالة الملك أنه حبس مرة بعض شيوخ مطير، فجاء بعض كبارهم للاستشفاع لهم، وأنس منهم روح الاعتزاز، فأمر بقطع رؤوس المسجونين، وأحضر رؤوسهم على مائدة قدمت لبني عمهم الذين جاؤوا للاستشفاع منهم، ثم أمرهم بالأكل من المائدة. وقد قص هذه الحكاية الملك عبد العزيز على شيوخ مطير الذين جاؤوا للاستشفاع في فيصل الدويش.. وقد كرّر عبد العزيز هذه الواقعة...

ففي ٦ جمادي الأولى عام ١٣٣١ الموافق ١٣ ابريل ١٩١٣م احتل الملك عبد العزيز الأحساء بمساعدة بعض الشخصيات. وفي اليوم ذاته أقام الملك وليمة دعا إليها بعض الأهالي وفي مقدمتهم تلك الشخصيات التي أخفت جنوده يوم الاحتلال وعدد من شيوخ البادية وقطع رؤوس بعض منهم، ثم وضعها إلى جانب صحون الطعام، وأمر بقية المدعوين بالأكل، وأخذ يرحب بهم: (يا هلا وسهلا! حياكم الله) فتردد القوم وامتنعوا عن الأكل، فما كان منه إلا أن سلّ سيفه وقال: (أقسم بالله أن أي واحد منكم لا يأكل سوف يسقط رأسه عن كتفه..) فأكلوا.. وكان قصده من ذلك الإرهاب، كما قال لهم». الحكم السعودي. ص ١١٨.

ويقول ابن بشر عن سطوة سعود واعتماده الإرهاب والقسوة وسيلة لاخضاع خصومه: (.. أعطي السعادة في مغازيه، ولا أعلم أنّه هزم وله راية. بل نصر الرعب الذي ليس له نهاية، وكل أيامه مواسم، ومغازيه غنائم، وقذف الله الرعب في قلوب أعدائه، فإذا سمعوا بمغزاه ومعداه هرب كل منهم وترك اخاه وأباه وماله وما حواه). تاريخ نجد. ص١٦٨.

(فإذا صلى الصبح ركب بالمسلمين وضجو بالتكبير واغاروا فتظلم السماء والأرض من إثارة النقع وضجيجهم بالتكبير، فيغيب الذهن في تلك الساعة، ويوقن المسلمون بالنصر. فيوقع الله بأسه في من قصدته تلك الجموع. فلا يرفع السيف إلا عن من لم يبلغ الحلم أو امرأة أو شيخ كبير وتؤخذ جميع الأموال، ثم يرحل عن معارة القوم. بجميع تلك الغنائم). ص ١٧٠.

ويتحدث ابن بشر في أماكن عديدة من كتابه عن وقائع الرعب الوهابية السعودية باعجاب وتلذذ باعتبارها من مآثر (المسلمين) وبطولاتهم أمام (الكفّار) و(المشركين) من غير اتباع دعوتهم.

على بذخها وفسادها وحياة الترف التي عاشها الأمراء السعوديون، فإن ما نقل إلينا من قبل بعض المحسوبين على هذه المؤسسة يدلل على أن (الدين) لم يكن في حسابهم إلا بمقدار ما تحققه بعض شعاراته من امتيازات جديدة لهم[١].

لقد ضاعف الشيخ التخصيصات المالية الهائلة لنفسه ولشركائه من آل سعود، وقد بلغت مئات الألوف من الدنانير الذهبية[٢]. . فهل كان مشروعه مجرداً من المنافع المادية له ولشركائه، أم أن تلك المنافع كانت في مقدمة أهداف إقامة الإمارة الوهابية السعودية؟

○ ○ ○

لن نتعرض لمسلسل غزوات الرعب الوهابية التي أحصاها المؤرخون الموالون للإمارة، بل سنذكر الدافع لها، كما برّره أولئك المؤرخون أنفسهم، وهو تبرير بدا لهم مشروعاً في غياب أية رقابة دينية أو مدنية عالمية. ففي محيطات الرمل النائية ما كان ليسود إلا قانون الغزو والغلبة والعنف، وقد بدا قانوناً طبيعياً بعد أن حكم على أهل نَجد والحجاز والجزيرة كلّها بالكفر والهرطقة والخروج عن الإسلام، وكانت فتاوى الشيخ تلهب سيوف الغزاة الذين انطلقوا بحماس لتحقيق مشروع شيخهم لتحقيق إمارته الوهابية.

○ ○ ○

إن الانتهاكات التي ارتكبها عبد العزيز بن محمد بن سعود في العُيَيْنة لم تكن أقل من تلك التي قام بها في الوشم:

---

(١) يعترف مؤلف (لَمْعُ الشهاب) بأن (سعود) اعتاد الترف في حياة والده قبل أن يصبح ولياً لعهد الامارة السعودية الاولى.

(٢) نفس المصدر ويراجع تاريخ نجد.

«التي دخلها قهراً وجعل كلّ من فيها علفاً للسيف حتى الاطفال والشيوخ، فقيل له: هذا فعل لا يرضى الله به، اتقتل من لا يقاتل؟ فسكت ولم يجب حينئذ لأنه خاف من أن الانتقام ذلك الوقت يؤدي إلى الفتن»[١].

أي أنه لم ينتقم من المعترضين عليه خوف الفتن أما عندما أصبح قوياً متمكناً فإنه لم يتح فرصة لأحد لكي يوجه أي نقد إليه.

إننا سنَجد تبريرات واهية من قبل كاتب (لَمْعُ الشهاب) وغيره لأعمال العنف التي قام بها أقطاب الامارة الجديدة، وهي خارجة عن المنطق الإسلامي والإنساني عموماً غير أنهم وجدوها مقبولة طالما أنها تهدف إلى ترسيخ كيانهم الوليد[٢].

---

(١) لَمْعُ الشهاب، ص ٣٧.

(٢) يقول مؤلف (لَمْعُ الشهاب) متحدثاً عن صدور أوامر الشيخ لعبد العزيز بعد تسع سنوات من احتلال الوشم وارتكاب الفظائع فيها لغزو العيينة التي لم تستجب للوهابية رغم مقتل أميرها عثمان بن معمر: «فركب عبد العزيز على العيينة بأربعة آلاف محارب فدخلها بالسيف، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وكتب لمحمد بن عبد الوهاب كتاباً يخبره بأمره فيهم، فأمره أن أخرجهم من بلادهم كلا وجمعاً، ثم هدّم السور والبيوت وخرّب البساتين واقطع النخيل.. وينبغي أن تجعل أرضهم هذه كأرض ثمود، ففعل حسب ما أمر به، بل زاد على ذلك...

وإنما كان أمر محمد بن عبد الوهاب وعبد العزيز في أهل العيينة هكذا، لأن أهل العيينة هم أشراف نجد على الاطلاق، وإن كان هناك رياسة تدعى في بلاد نجد كلها فهم الحريون بها، لأنهم نسباً يرجعون إلى بني حنيفة القدماء الذين كانوا ملوك كوارت (مناطق) نجد عموماً، ولأنهم من المحال أن يتابعوا محمد بن عبد الوهاب على أمره صادقين، وذلك قد عرفه من شأنهم بقرائن سابقة وشواهد ساطعة! فاقتضى الحال أن لا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً.

وحين علم الناس شدة وطأة عبد العزيز بن محمد بن سعود وأنه مستقر على هذا الأمر مع محمد بن عبد الوهاب، وأنهما ذوا بأس وقوة، دخلوا بطاعتهما، راضين بالدين، بعض محبة له، حيث قاسوا في أنفسهم قياساً إلى القبول، قائلين: لو لم يكن هذا حقاً لما=

فإذا ما بطش محمد بن عبد الوهاب وأتباعه برؤساء أهل نَجد وأشرافها، فإن أولئك الذين هم أقل منهم شأناً سيحسبون ألف حساب للقوة الوهابيّة الصاعدة.

ولهم في هذا سابقة في التأريخ الإسلامي عندما نفذ الأمويون بقيادة يزيد بن معاوية جريمتهم في كربلاء فقتلوا الحسين حفيد رسول الله ﷺ وقطعوا رأسه ورؤوس أصحابه، فإنهم أرسلوا إشارة مفادها: مادمنا قد أقدمنا على مثل هذا العمل الذي لا يجرؤ أحد على القيام به، فإن بإمكاننا أن نقوم بأي عمل مماثل وعلى الجميع أن يحذروا منا وأن لا يخالفوا أوامرنا. وهكذا فعلوا فيما بعد بالمدينة ومكة رغم كلّ ما لها من قداسة.

○ ○ ○

مدوّنات التأريخ السعودي ستكفينا الحديث عن فظائع الوهابيين على امتداد تأريخهم وخلال مراحل دولهم الثلاث. إن ثقافة الغزو والعنف الوهابية التي تبرر شرعية عملها بما حققته من مكاسب وغنائم، تظل مخزونة في عقل ابن الصحراء المسكون بهواجس تكفير الآخرين واستباحتهم طالما أنهم يشكلون عقبة في طريق حياته وطموحاته، وتظل تلك المكاسب والغنائم الهدف الكبير الذي يمثل أمامه على الدوام معتزاً به كحق شرعي مكتسب.

وهكذا نَجد بعض مؤرخيهم يقارن حال الدِّرْعِيَّة قبل حملات الغزو

= استمر وانتصر، ولكنه انتصر فيكون حقاً. وبعض لم يعتبروا رواجه إلا من قبيل الاستدراج، لكنهم قبلوه خوفاً.
فعلى هذا، أخذ يتفحص بالفراسة، فمن تبيّن له أن قبوله هذا ظاهراً وباطناً، قرّبه لديه، وأعزّه، وأعطاه شيئاً يكفيه، وصار عنده مسموع الكلمة. ومن ظنّ دخوله على وجه الخوف والتقية، أعطاه أماناً ولكن يتحذر منه، ويرقب أحواله آناً فآناً..» لَمْعُ الشهاب. ص ٣٨ - ٣٩.

ويعدها معتبراً أموال الغزو جزاء ومنحة إلهية لأهلها لأنهم نصروا الشيخ ابن عبد الوهاب وصبروا ووقفوا معه أيام العسر[١] وإنها كانت بمثابة المن والسلوى التي منحها الله لأصحاب موسى من بني إسرائيل.

○○○

(١) وقد ذكرنا أقوال ابن بشر عن حال الدِّرعيَّة قبل وبعد قدوم محمد بن عبد الوهاب إليها. ونذكر استطراده في الحديث عن ثروات سعود: «وملك من الخيل العتاق الفا واربعمائة فرس ومماليكه الذكور أكثر من خمسمائة مملوك وقال غيره ستمائة وقال آخران مماليكه ألف. وعنده من المدافع ستون مدفعاً منها ثلاثون كباراً. وما يجيء إلى الدِّرعيَّة من الأموال من القطيف والبحرين وعمان واليمن وتهامة والحجاز وغير ذلك وزكاة ثمار نجد وعروضها وأثمانها لا يستطيع أحد عدّه وما ينقل إليها من الأخماس والغنائم أضعاف ذلك. مماليكه عبيد سود ومعهم السيوف الثمينة والمحلاة بالذهب والفضّة. فإذا أقبل على المجلس قام له الذين في طريقه لئلا يطأهم العبيد. فإذا تكامل سعود جالساً التفت للعلماء والرؤساء فسلموا عليه وردّ عليهم السلام». ص ١٧٢ - ١٧٥.

على هامش كربلاء

دولة الظلم بين شرْعَنة الانحراف
ومشاريع طمس الأضرحة والعمائر الإسلامية

محمد نعمة السماوي

مؤلف: موسوعة الثورة الحسينية

على هامش كربلاء

دولة الظلم بين شرْعَنة الانحراف ومشاريع طمس الأضرحة والعمائر الإسلامية

دولة الظلم تعيد نفسها.. والتاريخ يعيد نفسه لمن لا يقرأ التاريخ

يظل نهج كربلاء الرافض للظلم والإنحراف مؤرقاً لسلالات العسف والاستبداد التي تتمسك بإمتيازاتها ولا تجد مسوغاً للتنازل عنها في أي ظرف وتحت أية ذريعة بعد أن حصلت عليها بحد السيف.

إن معارك دائمية - غالباً ما تكون إستدمائية ذات طابع عنيف - تظل قائمة بين شرائع المستبدين وشريعة الله التي تدعو للعدل والمساواة التي دافع عنها الحسين عليه السلام بدمه الزكي وحافظ عليها، فظلّ مثلاً أعلى لكل المتمسكين بها، ولم يعد من الممكن تغييب اللون القاني لهذا الدم عن الآفاق وعن الذاكرة. وتظل كربلاء شوكة في أعين أولئك الذين لم يبصروا نور الحسين أو يتعرفوا عليه والذين يبحثون عن الهيمنة المطلقة التي لا تحدّها ضوابط أو حدود.

كما أنها تمثل الانتصار والنجاح في ذاكرة المحرومين والمستضعفين الذين يجدون فيها أملهم الدائم للخلاص من الظلم وخزينهم من الحرية والدافع للإستشهاد والتضحية في سبيل نفس المبادىء التي دافع عنها بطل كربلاء وأنصاره الذين فاقوا مقاتلي بدر الذين وُعدوا بالنصر بينما وعد

هؤلاء بالشهادة في قتلةٍ مريعة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. وحسبُ كربلاء أنها كربلاء الحسين، المثل الأعلى الذي حافظ على التجربة الإسلامية وأتاح لها البقاء بعد أن كادت تنهار أمام يزيد. وظلت تقلق الطغاة ليحسبوا ألف حساب قبل التمادي في الظلم أو إرتكاب أية حماقة.

ولأن دولة الظلم - على إختلاف مسمَّياتها وأشكالها - تريد أن تحكم وتبسط سلطانها، فإنها تلجأ إلى أساليب تضليل وتزوير متطورة رديفة لأساليب القمع والقوة. ولا بد أن تعمد - لكي تتمكن من البقاء والصمود - إلى تشويه صور خصومها ومعارضيها وعرض معاركهم معها على أنها عدوان منهم غير مبرّر وأنهم هم الجناة والمعتدون والخارجون على القانون وعلى (**المقدسات الاجتماعية**).

وبفعل المال والنفوذ، أمكن - إلى جانب تجنيد أتباع ومحاربين مرتزقة في خدمتها والدفاع عنها - توظيف مؤسسات دينية وفقهاء تابعين للبلاط لتبرير أعمال الحكام وإلباسها لباساً شرعياً وتكفير الخصوم والمعارضين وإتهامهم بالردة والشرك والخروج على (**ولي الأمر!..**).

إن اللجوء إلى ضربات استباقية وبدء الهجوم على الخصم وتلفيق التهم له تنبع من عقليات ذات خبرة بفنون الدهاء والمكر والهيمنة، إذ يساعد على وضعه في زاوية حرجة وفي دائرة الدفاع عن النفس. فتهمة الشرك أو الردة أو الخروج على (**إجماع**) أو إجتماع الأمة أو (**ولي الأمر**) المزيف، قد لا يمكن دفعها بسهولة أو التخفيف من العقوبات المعدة لها.

تراكم خبرات القمع والترويض والدجل والتحريف والإحتواء طيلة أكثر من ثلاثة عشر قرناً من شأنه أن يكون إرثاً تاريخياً مقبولاً وحميداً وجذاباً لدى هؤلاء قابلاً للتطور والإضافة طالما أنه حقق نتائج طيبة في السابق

وطالما أن سلسلة من الاباء والاجداد تستحضر لها الذاكرة الجمعية صوراً ناصعة على الدوام.

ولا بد أن يجد المتحكمون الحاليون أن أسس (الشرعية) الأموية كانت هي المعتمدة دائماً لدى الدول اللاحقة لأنها تؤكد على قبول (ولي الأمر) الظالم أو الفاسق أو الجائر الذي يعتدي على الناس ويسلب أموالهم ويضرب ظهورهم وتمنع الخروج عليه أو إنتقاده بشكل علني بل وتأمر - على لسان فقهاء السلطة ومزوري الأحاديث - بطاعته والدعاء له.

إن حلفاً غيرَ مكتوبٍ قائم بين دول الظلم وحتى وإن بدت متعادية في الظاهر، فالطعن بشرعية أية حكومة يعني عدم شرعية الدول المشابهة الأخرى.

وهكذا فإن النقاش في مسألة الشرعية هذه لا يدخل في باب البحث عن الحقيقة والقاء الحجة فالكل يعرف الحقيقة لكنه يبحث عن (الحقيقة الملفقة) التي تضمن مصالحه. لذلك فإن التهوين أو القول بعدم شرعية الدولة الأموية التي كانت لها ريادة الإنحراف المعلن عن الإسلام يعني القول بعدم شرعية الدول المعاصرة القائمة التي تحكم بمبادىء الإسلام الأموي وهذا أمر لا يمكن أن يكون مقبولاً بنظرها حتى ولو سيقت مختلف الحجج والأدلة لإثبات ذلك.

يوميات تلك الدول البائدة وسجالاتها ومعاركها مع الخصوم أثبتت أنها لم تهادن أو تتهاون بشأن السلطة وأنها سعت على الدوام لإبتكار مختلف التهم الصقتها بأعدائها لتتمكن من استئصالهم والقضاء عليهم.

في معركة البقاء هذه تتسع الحيلة وتتعدد وتتطور الوسائل ويتيح تراكم الخبرات مواجهة الخصوم والمعارضين وإظهارهم كمعتدين وجناة فإلى

جانب سيف الجندي يلوِّح فقيه السلطة بفتوى القتل ولن تسمح أية سلطة للحسين عليه السلام أن يعود وأن تظل كربلاء مؤرقة أو حاضرة. ولكي تغيب لا بد أن تستحضر كل الوسائل القديمة إضافة لما استخدمته آلة القمع والمنع المعاصرة لمحوها نهائياً.

وهذا مشروع استراتيجي تخطط له وتجند امكاناتها لتنفيذه. فيزيد المعاصر لا يريد أن يتنازل عن كرسيه كما لا يريد أن يتنازل عن قناعاته (**لا خبر جاء ولا وحي نزل**) حتى وأن لم ينطقها بلسانه. بل أنه يعرض نفسه الآن حامياً للشريعة ومتفانياً في الله وقد يكلف نفسه عناء ما لم يتكلفه يزيد الأول فالحسين عليه السلام له منزلة ومكانة في القلوب وقد تتهاوى العروش لمجرد ذكر اسمه واستحضار مواقفه. ولا بد من تدمير مثل تلك المكانة حتى يمكن التصدي له أو لخطه.

وإذ أن باب الحيلة لمن لا يحسب حساباً لمكر الله مفتوح على الدوام فإن أكبر ابتكار لجأت إليه دولة الظلم المعاصرة هو إعلان غريب للتوحيد ألصق تهمة الكفر والشرك بالمسلمين الذين لا ينتمون لهذه المدرسة المستحدثة التي تبنّته بحجة اهتمامهم وتبرّكهم بالاضرحة والمساجد المقدسة للرسول وأهل بيته وأصحابه وأضرحة ومساجد بعض الصالحين والأولياء والعلماء بدعوى أن المسلمين سينشغلون بها عن توحيد الله وعبادته.

وهكذا جاء اعلانُ (**ابن بليهد**) في المدينة المنورة قبل حوالي ثمانين عاماً الذي أنتجته ثقافة التوحيد الوهابي بداية لتدمير الاضرحة والآثار الإسلامية وسرقة كنوزها ليظل هذا المشروع قائماً تتبناه منظمات التكفير الارهابية لا في الجزيرة العربية والعراق وحسب وإنما في مصر وليبيا والشام وفي كل بقعة من العالم الإسلامي وكأن هذه الاضرحة والمساجد

المقدسة لاحكام الاستبداد والانحراف هي التي تحول دون التوجه بالعبادة لله الواحد الاحد. .[١].

وبالتأكيد فإني في هذا الجمع المؤمن الذي يتوجه بالعبادة والصلاة إلى الله وحده سواء في المساجد أو البيوت أو قرب ضريح أحد الأولياء لن آتي بجديد حينما أؤكد ذلك وهم يعرفون حقاً بعض قدرة الله في خلق سماواته وأرضه وإن كل شيء هالك إلا وجهه وما من بناية أو ضريح أو أثر مهما عظم لن يبلغ مبلغ ذرة أو جزء من ذرة من قدرة الله الهائلة التي لا يقاس بها شيء. ونحن في عصر العلم والمكتشفات الحديثة ندرك ذلك. فكيف تصدّنا بناية أو منارة أو ضريح عن التفكر في عظمة خلق الله وننكفىء عليها مكتفين بما شيدته يد البشر. غير أننا ندرك أن تلك الاضرحة تضم الخلاصات الانسانية للناس المؤمنين المتفانين في الله.

ربما كان البدو أصحاب الخيم هم وحدهم الذين يبهرون بالبنايات والعمارات ووسائل الحضارة والعمارة.

لسنا هنا لتبرير اهتمامنا وولعنا بأضرحة الأولياء الصالحين وخصوصاً رسول الله وأهل بيته ﷺ. فكل واحد منا يدرك أنها لا تصرفه عن الله ولكن من فيها يصرفه لله وأننا لا نتوجه إليها وإنما منها ومن بيوتنا ومن كل بقعة حتى ولو كنا على متن سفينة أو طائرة إلى الله نعبده وحده لا شريك له. ولو اقسم كل واحد منا جهد أيمانه على ذلك لما رضي أنصار مدرسة التكفير بذلك ولأصروا على أنه شرك وكفر. فقد حسموا أمرهم إذ أنهم عندما لا يكفرون الاخرين سيلغون مبرر وجودهم ويعودون إلى الصف

(١) مع أن هذا المشروع طبق بعد إقامة أول إمارة وهابية في الدرعية سنة ١٧٤٦ وذلك عند اجتياح كربلاء ومرقد الامام الحسين عليه السلام وسرقة محتوياته وإبادة أغلب اهالي المدينة.

كغيرهم لكنهم يلجأون إلى ذلك لإعلان أنفسهم أمراء وأولياء أمور واجبي الطاعة.. فالسلطة لها بريقها وسلطانها فمن يتنازل عن ملك عضوض وقد أتيح له الجلوس على كرسيه؟!

إن المشروع التكفيري الذي يحاول توطيد سلطته ونفوذه يحقق جملة أهداف مهمة مرة واحدة وله مبرراته بنظر حامليه ودعاته. وسنتناول هنا باختصار بعض هذه الأهداف والمبررات:

محو التاريخ الإسلامي

١ - في مقالة لأستاذ واكاديمي وباحث فرنسي في المنهج التاريخي هو فكتور لانجلوا (عاش في القرن التاسع عشر) ورد قوله: **(إن التاريخ يصنع من وثائق، والوثائق هي الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم. وكل فكرة أو فعل لا يخلف أثراً مباشراً أو طمس معالمه هو أمر ضاع على التاريخ كأن لم يكن البتة. وبفقدان الوثائق صار تاريخ عصور متطاولة من ماضي الانسانية مجهولاً إذ لا بديل عن الوثائق وحيث لا وثائق فلا تأريخ)**[١].

إن الوثائق لا تتمثل بمجرد الاوراق أو الرقاع الجلدية أو المدوَّنات. فالآثار الملموسة التي لم يتح لأحد التلاعب بها كالقرآن الكريم الذي ظل عصياً على التقليد بإرادة عليا أو الأبنية والعمائر المقدسة وبعض الاحجار والجبال مثل الكعبة المشرفة وعرفات والصفا والمروة وغار حراء والأماكن التي ولد أو دفن فيها الرسول وأهل بيته تظل شواخص مهمة وآثار ووثائق لا يتطرق إليها الشك لتسجيل مسيرة تاريخية حافلة تواصل وتفاعل معها

(١) النقد التاريخي - لانجلو وينوبوس - ترجمة د. عبد الرحمن بدوي - وكالة المطبوعات/ الكويت، ص ١٩٨١، ٤ ص ١٥.

المسلمون على امتداد تاريخهم دون انقطاع وتحققوا منها ومن الرموز الدالة عليها.

ولم يعد ممكناً الشك في صحتها وحقيقتها بعد أن احتضنت على مر العصور أجيالاً متعاقبة زارتها وتعبدت فيها استجابة للارادة الالهية العليا وخضوعاً لها. وإلا فما قيمة الحجر الاسود وغيره لولا أن تلك الارادة أوجبت على المسلمين الحج والطواف حول الكعبة والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة والسعي بين الصفا والمروة. أليست هي أماكن وأحجار وشواخص مادية تشبه غيرها؟

محاولة لمنع التواصل وانكار وعدم التحقق من وجود الشخصيات التاريخية / الرسول وأهل بيته ﷺ

التواصل الحسي الملموس مع هذه المشاهد والآثار تجعل من يقوم بذلك يعتقد أنه يساهم بالمسيرة العبادية التي بدأها الرسول وأوصياؤه وأنه عضو فاعل في جملة النسيج الاجتماعي الإسلامي العام الذي أريد له أن يكون توحيدياً خالصاً يتوجه بالعبادة لله وحده كما أمر هو، ألسنا ندور حول البيت وننادي لبيك اللهم لبيك ونحاول استلام الحجر الاسود ونسعى بين الصفا والمروة وهي أحجار وجمادات ونتلو عندها بعض الادعية التي تقربنا إلى الله تعالى كما أمر هو؟

إنّ وجود المشاهد والاماكن والمزارات والشواخص والعمائر التاريخية المقترنة بأحداث ووقائع وأشخاص ورموز مقدسة تعزز يقين المؤمن بوجود وحقيقة من أُرسل بهذا الدين وحقيقة الاشخاص الذين قاموا بنشره والدفاع عنه.

ولن تظل الشواخص والآثار والمواقع والبنايات بما فيها الاضرحة والمآذن مجرد أمور تحدّث عنها المؤرخون وإنما ستمثل كياناً حياً لا ينقصه

إلا الحضور الحي لابطال تلك المسيرة وفي مقدمتهم الرسول ﷺ وأوصياؤه والصفوة من أصحابه. ولن يكون تقديسها أو تأملها أو العبادة عندها إلا نوعاً من التواصل الروحي المتماسك الذي يشدنا إلى الإسلام. إنّ طمسها بحجة أن الناس سينشغلون بها عن عبادة الله عبادة خالصة هي محاولة لصرفهم عن ذكره وعبادته. فمن يثبت لاجيال لاحقة لم تعاصر الجيل الأول إذا لم تجد أثراً ملموساً يثبت وجوده أصلاً أو صحة ما روي عن مسيرة الرسول وأحاديثه؟ وهل تكفي المدونات والوثائق الخطية وحدها لإثبات ذلك؟

ولعل تزييف بعض الوثائق والاحاديث والاثار لم يكفِ أولئك الذين أرادوا تزييف الإسلام برمته، فأرادوا اكمال مشوارهم فأرادوا محو الشواخص والاماكن والاثار التاريخية والاضرحة والمساجد التي تتمتع بقداسة خاصة لدى المسلمين تدل على وجود شخصيات لها أدوار حقيقية فاعلة في حياتنا وعلى وقائع حصلت ولا سبيل لانكارها أو اخفائها.

٢ - يستطرد لانجلوا قائلاً:

«ليست للرقائق المكتوبة قيمة بذاتها مثل الوقائع المادية»[١].

لعل العقلية التي تروج لمحو الاثار الإسلامية لا يمكن أن توصف بالسذاجة رغم سذاجة دعوتها فإن لها دوافعها ومحركاتها. غير أنها استغلت في البداية سطحية البدو والطبقات الاكثر جهلاً. وقد توصلت إلى ما توصل إليه لانجلوا. ولا بد أن فعلها كان مقصوداً أو مدروساً لطمس الإسلام وتغييبه من خلال طمس الاثار. أما الوثائق المكتوبة فسوف لن تكون لها أهمية تلك الاثار مهما كثرت وتعددت. لقد كانت هناك مساعٍ

(١) المصدر السابق.

حثيثة لإضاعة سلسلة العلل الوسطى التي أنتجت تلك الاثار من المساجد والاضرحة والاماكن والعمائر التاريخية وأماكن العبادة لكي يمكن محو الوقائع والاحداث الكبرى التي هي بمثابة السجلات التي تتحدث عن تاريخ المسلمين وكانت مبعث فخرهم واعتزازهم.

إن نظرة متأملة تثبت أن هنالك محاولات خفية، صحيح أنها بطيئة لكنها دؤوبة لتغييب الإسلام وتخريبه من خلال دائرته الخاصة بدعوى الحرص عليه. ولو أنّ هذه المحاولات تمت من قبل غرباء لا ينتمون للإسلام أصلاً لحكم عليها بالفشل منذ البداية غير أنها تنطلي على كثير من المسلمين إذا ما تبنّتها جهات تدعى الانتماء للإسلام.

بين الآثار الإسلام الموجودة ومعبد اورشليم الذي لا يوجد إلا في الخيال

المؤرخ سنيو بوس بدوره كتب في (المدخل إلى دراسة التاريخ):

«إن الوثائق هي المصدر للمعرفة التاريخية، تدلنا على وجود كائنات انسانية وأحوال مادية وموضوعات صناعية. وكل هذه الوقائع كانت ظواهر مادية أدركها مؤلف الوثيقة مادياً. أما بالنسبة إلينا، فأنها ليست بعد غير ظواهر عقلية أو وقائع مرئية من خلال مخيلة المؤلف. صور نكونها إلى نظير صورة. فمعبد اورشليم كان شيئاً مادياً يشاهد بالعين. أما الآن فلا يمكننا أن نراه ولا نملك أن نكوّن لأنفسنا صورة عنه مماثلة لما رسموه أو وصفوه»[1].

لقد نبشت القدس وأوشك المسجد الاقصى أن يتقوض، إذ أصبح قائماً على فضاءات واسعة من حفريات يراد من خلالها الوصول إلى معبد

(١) نفس المصدر.

اورشليم المزعوم. ولو كانت هناك أدنى اشارة لوجوده لجعل اليهود ذلك (دليلاً مؤكداً) على أحقّيتهم بالأرض التي أقيم عليها. وقد رسموا له في مخيلاتهم أجمل الصور وتبارى فنانون كبار لرسمه كأنهم ينقلونه عن صور فوتغرافية حقيقية.

ورغم أنهم لم يجدوا أي أثر له، فإن ما رسموه في أذهانهم، جعلهم على يقين من أنهم يرونه حقاً. فهم يدركون أنهم إذا ما وجدوا الاثر الضئيل، حتى ولو كان ملفقاً أو مكوناً من عدة أحجار مشوهة، فإنهم سيجعلون ذلك الاثر الوثيقة التاريخية المطلوبة وهم بسعيهم هذا يحاولون جبر أي فصام بين ما يعتقدونه وبين ما يظنونه موجوداً. وبذلك فإنهم يعتقدون أنهم يتمتعون بالامانة التي تفرضها عليهم معتقداتهم حتى وإن ظن البعض أن هذه المعتقدات محرفة وغير صحيحة.

○ ○ ○

أما هؤلاء الذين يدعون أنهم الفرقة الناجية من دون المسلمين جميعاً والذين أعطوا لأنفسهم حق الوصاية عليهم، والذين تبنّوا مشروع تقويض ونسف الاثار والاضرحة والعمائر الإسلامية الذي أصبح بنظرهم مشروعاً مقدساً لا بد من تنفيذه، فلا بد أنهم يسعون لذلك انسياقاً وراء أجندة خفية لا تعرف لغزها أغلبيتهم المضللة، فأي سر وراء الاخفاء المتعمد لتاريخ المسلمين حيث ستضيع الحقائق القائمة التي تدل على مسيرة حافلة تعززها الوثائق الاخرى ومنها الخطية الرديفة التي سطرتها أيادي أجيال متعاقبة بَنَت تلك الاماكن وزارتها وتعبدت فيها وأثبتت وجودها الواقعي وحقيقة وجود من بناها أو دُفن في جوارها على مر التاريخ.

اهتم المسلمون منذ البداية بالاضرحة والمساجد

فهل فرغ المسجد الحرام أو المسجد النبوي، ثم بعد ذلك الحرم الحسيني أو العلوي وغيرها خلال كل هذه القرون من الزوار والقاصدين والمتعبدين حتى تتاح لمدعٍ فرصة القول أنها من مبتكرات المسلمين المتأخرة. أم أن الجميع سيتعرفون بوجودها شاخصة صحة تاريخنا ووجود النبي ﷺ وأهل بيته بيننا يدعوننا إلى الله وإلى الإسلام؟ فلا عجب أن أشارت بعض الافلام إلى وحدة أصل من يريدون محو تاريخ المسلمين من خلال محو اثارهم وتراثهم وأولئك الذين يريدون بناء تاريخ ملفق من خلال خلق آثار وتراث لا وجود لها إلا في المخيلة. وإلى انتمائهم اليهودي (رغم ادعاء آل سعود وآل عبد الوهاب الانتماء إلى سلالات عربية معروفة). فجميعهم يحملون عقلية واحدة ويتمتعون بنفس القدرة على التخطيط ويدركون اهمية الاثار والاماكن التاريخية كوثائق مهمة تتيح معرفة حقيقة التاريخ الماضي، وتتيح التواصل بين الشعوب وتاريخها ورموزها. مع إن مسيرتهم تبدو باتجاهين معاكسين لتحقيق نفس الهدف. ففي الوقت الذي يسعى فيه التكفيريون لاتلاف الاثار الإسلامية القائمة مما يؤدي إلى تدمير وتشويش التاريخ الإسلامي، يسعى نظراؤهم اليهود لخلق اثار لا وجود لها إلا في مخيلتهم لكي يشيدوا تاريخاً لهم.

ولو كان هؤلاء التكفيريون حريصون على الإسلام والتوحيد لبذلوا جهوداً استثنائية لتعمير الاثار الإسلامية ومنها بيت النبي ﷺ ومسجده والاماكن التي ذهب إليه وقاتل فيها ودعا الناس منها إلى الله وكذلك مساجد ومساكن وأضرحة الائمة والصحابة الصالحين والعلماء ولقاموا بتزيينها وإقامة مؤسسات متخصصة تُعنى بفن التاريخ والعمارة لعرضها على

المسلمين وغيرهم. . . ولما فعلوا العكس متكئين على أحاديث يعلمون جيداً أنها مكذوبة وموضوعة وغير صحيحة.

دوافع الغزو والنهب

٣ - لقد خلقت المدرسة التكفيرية الذرائع المناسبة لاستنهاض مُجنّديها البدو للقيام بغزواتهم الشرسة ضد جيرانهم (وأغلبيتهم في البداية كانوا من أتباع المذهب الحنبلي) وذلك بتصنيف هؤلاء الجيران (مشركين) تباح دماؤهم أموالهم وأعراضهم على أساس مفتعل قائم على فقه لا ينتمي لأية مدرسة فقهية معروفة ومتقاطع مع كل المذاهب الإسلامية. لقد أسالت لعاب مجنديها على الكنوز الموجودة في الاضرحة المقدسة وكان ذلك حافزاً كبيراً لاقتحامها ونهبها مع أن أغلب المنهوبات تذهب إلى جيوب القادة الذين أصبحوا يتمتعون بثراء اسطوري.

فقد هجموا حوالي سنة ١٨٠٠ على المدينة وأخذوا كل ما في الحجرة النبوية من أموال ومنعوا الناس من زيارة النبي ﷺ

يقول الجبرتي (**. . . لما استولى الوهابيون على المدينة المنورة هدموا القباب التي فيها وفي ينبع ومنها قبّة أئمة البقيع في المدينة، لكنهم لم يهدموا قبة النبي ﷺ، وحملوا الناس على ما حملوهم عليه بمكة أخذوا جميع ذخائر الحجرة النبوية وجواهرها، حتى أنهم ملأوا أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالماس والياقوت العظيمة القدر. ومن ذلك أربع شمعدانات من الزمرد، وبدل الشمعة قطعة ماس تضيء في الظلام ونحو مائة سيف لا تقوّم قراباتها ملبسة بالذهب الخالص ومنزل عليها ماس وياقوت ونصابها من الزمرد واليشم ونحو ذلك ونصلها من الحديد الموصوف وعليها أسماء الملوك والخلفاء السالفين**).

أما ضريح الامام الحسين عليه السلام وقبة مسجده المطلية بالذهب فقد كانا بنظرهم الغنيمة العظمى فبعد اجتياحهم كربلاء واستيلائهم عليها سنة ١٨٠٢ بعد القيام بمجزرة مرّوعة ضد أهاليها العزل أغلبهم من النساء والاطفال والمسنين حملوا منهوباتهم على أكثر من ٦٠٠٠ جمل مردوفة (تتسع لحمل شخصين مع أحمالها) وذهبوا بها إلى الدرعية. وكان عدد افراد الجيش الغازي أكثر من عشرة آلاف مقاتل أي أكثر من عدد سكان المدينة المنكوبة. وقد أصبحت الدرعية عاصمة الامارة بفعل هذه الغزوة أكبر معرض للمنهوبات التي تغّنى بها المؤرخون السعوديون ومنهم ابن بشر[١] معتبرين ذلك العهد من العهود السعيدة والمزدهرة.

تغييب جرائم الاعداء

٤ - يمكن القول أن طمس قبور ائمة أهل البيت وخصوصاً الحسين عليه السلام الذي يشخص شاهداً على بشاعة جرائم الامويين، يراد منه التغطية على تلك الجرائم. ومعلوم أن دولة الظلم المعاصرة استفادت من **(الشرعية الملفقة)** للدولة الاموية. وقد تبنت نهجها وأساليبها في الحكم والحياة وليس من المعقول أن تسمح لأحد بالنيل أو التوجه بالنقد لأقطاب تلك الدولة وإلا لتوجه النقد إليها هي.

وهكذا الأمر بالنسبة لقبر وضريح حمزة عليه السلام الذي قتل بمسعى خاص من أبي سفيان وزوجته هند التي لاكت كبده في سابقة تاريخية فريدة ولغيره من القبور مثل قبر الصحابي حجر بن عدي الصحابي الجليل الذي قتله معاوية بن أبي سفيان وقد نبش مؤخراً من قبل داعش سيئة الصيت.

إن طمس قبر الحسين يشكل هدفاً استراتيجياً للمتطرفين الذين يتبنون

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد/ لعثمان بن بشر النجدي ١٢٨٨هـ، ط بيروت، ص ٦٣.

الافكار التكفيرية. فما دام القبر والضريح والمنائر شاخصة.. فإن الجريمة شاخصة معها.. وزيارتها تعيد للاذهان بشاعة الجرم.

وتزداد مساعيهم بهذا الاتجاه كل عام من خلال إرسال الانتحاريين والنيل من زوار المقام الشريف. فهل أن جزاء الحسين عليه السلام أن يستهدف بهذا الشكل الأهوج وهو الذي منع الامة من الانهيار؟ ولو أن هؤلاء تخلوا عن تطرفهم وانحيازهم للخط الاموي المنحرف وكل خطوط الانحراف المعاصر لوجدوا الطريق السليم في نهج الحسين وسيرته التي هي نهج وسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله ولوجدوا أنهم أدوات صماء تتلاعب بها قوى ماكرة لا هم لها إلا الحصول على النفوذ والسلطان وأن القوة التي تسيّرهم لا تنطلق إلّا من عقلية بدوية محدودة قد تتراجع عن أفكارها وسلوكها إذا ما فهمت الحقيقة وأدركت أنها كانت على خطأ، وإنما عقلية تعرف حقيقة ما تقوم به وتخطط له. وعلينا أن نفهم طبيعة تلك العقلية التي صنفت المسلمين على أنهم من المشركين والكفار لمجرد تمسكهم بالاضرحة الشريفة للرموز المقدسة.

الظهور بمناقبية ومظهر الحريص على التوحيد

٥ - الذين يتبنّون مشروع تهديم الاضرحة والاثار والعمائر الإسلامية يجعلون ذلك ذريعة للظهور بمناقبية عالية تدَّعِي الدفاع عن الإسلام والتفاني فيه مع أنهم يهدفون إلى فرض هيمنتهم وإقامة امارة أو امبراطورية بذرائع دينية ملفقة.

فقبل ثلاثين عاماً تسائل باحث فرنسي مرموق[1] قائلاً: «**ما زلنا نجهل**

(١) لكود فوبيه/ هل جاء دور الجزيرة العربية/ النظام السعودي بعد ايران - الوكالة العالمية للطباعة والتوزيع ١٩٨٣، ص ٣١.

حتى اليوم، ماذا كانت القوة الاجتماعية التي شجعت مشروع السعوديين الاوائل، فمن المشكوك فيه أن تكون الوهابية قد تمكنت من إقامة أساس ايديولوجي كاف. فأحد لا يخوض المعارك لمجرد هدم القبور التي ترتفع أكثر من ثلاثين سنتمتر عن الأرض».

تعزيز الطائفية والتقاتل بين المسلمين

إن مؤرخين مهمّين ينتميان للمؤسسة الوهابية السعودية الحاكمة يجيبان عن شطر من السؤال الذي طرحه السيد فوبيه، أما الشطر الاخر الخفي الذي لم يجيبا عنه فهي محاولة هذه المؤسسة دق إسفين بين المسلمين على أساس طائفي أو مذهبي لمنعهم من التوحد أو التقارب ثم التطور والنهوض الحقيقي وإشغالهم في معارك وحروب ماراثونية دائمية.

وهذا ما تحقق في ظل الانتهاكات المريعة التي أرادوا أن يتحمل المسلمون تبعاتها ونتائجها بعد أن يتبادلوا الاتهامات. وهذا ما يحصل اليوم من خلال استنفار التشنج الطائفي المقيت في بلدان العالم الإسلامي وخصوصاً العراق الذي ترتفع فيه الآن نبرة الخطاب الوهابي بوتيرة لم يتعرف عليها العراقيون من قبل بعد تبيئة هذا الخطاب في حاضنات ذات انتماء معروف وتبيئته من قبل أجهزة القمع البعثية في العراق التي تنتمي لنفس تلك الحاضنات.

التعامل بتحقير مع المقدس

٦ - النظرة التحقيرية للمقدسات ومن يعظمون الشعائر المقدسة أريد لها أن تكون حاضرة في التعامل مع المقدس ومع عموم المسلمين وغالباً ما يرافقها ردع وتهديد.

لقد بدا ذلك مؤخراً في إطلاق التصريحات التي تعلن أنها ستمنع زيارة

المراقد المقدسة وخصوصاً ضريح الحسين عليه السلام . . كما بدا في طريقة التعامل مع الاخرين والنظر إليهم بطريقة استعلائية. ففي الهجوم الأول على كربلا ء عام ١٨٠٢ وصلت خيولهم قرب الضريح المقدس بكل اقذارها ولم يتورعوا عن المساس بالاماكن المطهرة وقتل الناس بعد محاصرتهم قرب ذلك الضريح. . إن لا مبالاتهم وقيامهم بالقتل ورمي القاذورات كان أمراً صاعقاً لا يطاق. وقد تعاملوا مع المسلمين بقسوة مبالغ فيها لم يلجأ إليها إلا أولئك القتلة الذين قاموا بحمامات الدم في واقعة كربلاء الأولى بقيادة عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد وغيرهم من النفعيين والانتهازيين. ولا بد أن أولئك قد لجاؤا إلى أعذار وتبريرات عندما قاموا بجرائهم كما يفعل هؤلاء الآن.

الذريعة: الظهور بمظهر الاصلاح وتنقية الإسلام من الشوائب

لقد ادعوا (**أن أكثر المسلمين قد ارتكسوا في الشرك وارتدّوا إلى الجاهلية، فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين، وظلوا يعكفون على عبادة أوثانهم وأحدثوا من الكفر والفجور والشرك بعبادة أهل القبور وصرف النذور اليهم ابتهاجاً والدعاء لهم**)[١].

ويستطرد ابن غنام: (**. . كان أكثر المسلمين قد ارتكسوا في الشرك وارتدوا إلى الجاهلية واتبعوا ما وجدوا آباءهم عليه من الضلالة فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين، يستغيثون على قضاء الحاجات وتفريج الشدائد، بل أن كثيراً منهم كان يرى في الجمادات كالاشجار والاحجار القدرة على تقديم النفع ودفع الضرر، وظلوا يعكفون على أوثانهم تلك، أحدثوا من**

(١) ابن غنام - تاريخ نجد (روضة الافكار والافهام) تحقيق وتحرير د. ناصر الدين الأسد، دار الشروق بيروت - القاهرة ط ٤، ١٩٩٤، ص ١٣.

الكفر والفجور والشرك بعبادة أهل القبور وصرف النظر إليهم والابتهال بالدعاء لهم ما زادوا على أهل الجاهلية. . . عكف أكثر الناس على دعوة الأولياء والصالحين وأمواتهم وأحياءهم! وفتنوا بالاعتقاد بقدرتهم على تقديم النفع وصرف السوء من دون الله، فغدوا عليهم يبتهلون لقضاء حاجاتهم، أحلوا بذلك ما حرم الله. . ولقد انتشر هذا الضلال حتى عمّ ديار المسلمين كافة. . إتيان بعض الناس قبور الصحابة في الدرعية!. . وما يفعل عند قبر النبي كتعفير الخدود والانحناء والسجود خضوعاً وتذللاً واتخاذ ذلك القبر عيداً، مع أنه ﷺ قد لعن فاعل ذلك! وكذلك ما فعل عند قبر حمزة وفي البقيع وقبا وجدّة وعند معبد العلوي. وكذلك في مصر وصعيدها واليمن. . . والعراق وخاصة بغداد ومشهد، فالناس هناك يأتون قبر أبي حنيفة ومعروف الكرخي والشيخ عبد القادر ويتوجهون اليهم بالدعاء والاستغاثة ويظهرون من التعظيم والخضوع أعظم مما يتوجهون به إلى الله في الصلاة. . وأما مشهد علي بن أبي طالب فقد صيّرته الرافضة وثناً يعبد من دون الله، فيتوجهون إليه بخالص الدعاء ويصلون له في قبته المذهبة التي زخرفوها على قبره، وهؤلاء الجهال يستشعرون في صدورهم من الهيبة والاجلال لعلي ما لا يشعرون معشاره بين يدي الله، فيقدسون مشهده فلا ينتهكونه ويزعمون أن عنده مفاتح الغيب، لهذا يقولون أن زياته أفضل من سبعين حجة.

وكفى بما ذكرناه حجة عليهم في خروجهم عن الإسلام، فقد غلوا فيه وأتوا من الشرك أعظم مما فعل النصارى بالمسيح، وساووهم بل وزادوا عليهم في غيرها من الرذائل.

ومثل ذلك ما يفعل عند مشهد الكاظم أو مشهد الحسين من الشرك المنكر والكفر القبيح، وشاب عليه الرجال من الجهّال حتى لا يكاد يسمع

بين هؤلاء الضالين ذكر الله وإنما دينهم ترديد ذكر علي والحسين والبقية من الآل، ومثل ذلك ما يفعل في قرى الشط وحول البصرة.

وأما في القطيف والبحرين فهنالك الكثير من بدع الروافض والشرك والمظاهر الوثنية ومظاهر الضلال[١].

○ ○ ○

(١) المصدر السابق، ص ١٣ - ٢٢.

الوهابية: منهج في التطرف والعنف

لعل الخوارج الذين أنتجوا التطرف الديني في الحقبة الأولى من تاريخ المسلمين قبل نهاية نصف القرن الأول الهجري بدوا كحالة طارئة لم تدم أو تؤثر كثيراً، إذ اختفت بنهاية ذلك القرن. ولا يهمنا الحديث عنها هنا إلا بالقدر الذي يمكننا فيه المقارنة بينها وبين الحركة الوهابية المعاصرة والمشابهة لها والمتطورة من حيث الاداء القتالي ونشور أدبياتها بمختلف وسائل النشر والاعلام المعروفة في كل أنحاء العالم الإسلامي وغيره.

كان يمكن مواجهة سيوف الخوارج بسيوف مثلها وكان يمكن التغلب عليهم لقلة رصيدهم الاجتماعي وقلة القوى المتعاطفة معهم. ومع أنهم اختفوا عن الساحة إلا أن آراءهم ظلت مثار جدل في أوساط تنتمي لنفس البيئة التي أنتجتهم في بداية الأمر وهي منطقة نجد التي أنتجت المتنبئين الكاذبين أمثال مسيلمة وسجاح. ولأنهم لم يملكوا الاسلحة التي يمكن أن تلحق الدمار بأكبر عدد ممكن فقد كانوا هم الخاسر الأكبر في أغلب معاركهم.

إن ما يتميز به الوهابيون الذين يبدون حملة جُدد لرسالة الخوارج المتعصبين الذين يكفرون جميع المسلمين عدا المنتمين إليهم، هو ما أتيح لهم من وسائل تسليح واعلام متطور ودعم مالي غير محدود عززوا به مراكزهم وقوتهم لا في حاضنتهم الأولى، المملكة السعودية أو البلدان الإسلامية، وإنما امتد ذلك إلى الغرب والولايات المتحدة.

لقد لجأوا إلى وسائل مروعة لم تخطر على بال لتحقيق صدمة رعب

هائلة أخافت العالم كله في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وتوعدوا بإيقاع المزيد من الخسائر والقيام بالعديد من الضربات. لا أحد يستطيع التكهن بما سوف يقومون به بعد عشرين عاماً إذا ما اطلعوا على أسرار تصنيع أسلحة دمار شامل متطورة.

فإذا ما اتيحت الفرصة لأي منهم لنسف العالم بأكمله هل يظن أحد أنه سيتراجع عن ذلك؟ ولو كان بإمكان الذين فجروا مركز التجارة في نيويورك أن يفجروا نيويورك أو أميركا كلها، هل كانوا سيتوقفون عن ذلك بأية ذريعة انسانية أو دينية؟ أية قناعات يحملها انتحاري يفجر نفسه؟ ألا يمكن أن يجعل ثمن ذلك تفجير العالم كله؟

○ ○ ○

ربما لم يكن أحد معنياً قبل الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ بمعرفة حقيقة الوهابيين وخلفيتهم الدينية والاجتماعية ومعرفة معتقداتهم وأفكارهم، فقد بدوا أنهم يعيشون على هامش الحياة في ظل دولة مستهلكة تعتمد في كل شيء على غيرها. أما بعد ما ألحقوه من أضرار فادحة لن يمكن تداركها سريعاً فربما يلتفت البعض إليهم ويريد الاطلاع على حقيقتهم. كما يحاولون هم بدورهم إخفاء هذه الحقيقة التي لن تشرّفهم بحال والظهور بمظهر الوسطية والاعتدال بعد أن حاولوا أخذ الزمامَ من أهل السنّة من المذاهب الإسلامية المختلفة والتحدث باسمهم والتمترس خلف واجهتهم العريضة لتجنب مخاطر أية حرب تشن عليهم باعتبار أن هذه الحرب هي ضد المسلمين عموماً وأهل السنة بشكل خاص.

إنهم يتمتعون بقدرة على المكر وقدرة على التمويه يستطيعون به صد أو تأجيل أية حرب معلنة ضدهم، فلديهم رصيد مالي كبير ومصالح متشابكة مع دول الغرب وغيرها وتحالفات معلنة مع هذه الدول وأشخاص مهمّين

فيها قد تتيح لهم تجنب قوة العالم الهائلة لكن المنضبطة. ولو كانت لهم قدرات الولايات المتحدة العسكرية والتكنولوجية لما كانوا قد توقفوا عن تدمير الآخرين وليبقوا هم الساكن الوحيد على ظهر هذه الكرة الأرضية؟

لقد ادعوا عبر بعض وسائل اتصالاتهم ونشرياتهم أن هناك حملات غير مبررة تشن عليهم من قبل بعض المسلمين قد تكون لاسباب طائفية قديمة وأن هؤلاء يقومون بتقديم صور مشوهة عنهم لغرض استعداء العالم عليهم وهذا دفاع مبرر من قبل كل من يريد حماية نفسه. غير أن كتبهم وأدبياتهم المطبوعة والمتداولة ومحصلة تصرفاتهم خلال مائتي وخمسين عاماً تفصح بوضوح عن طبيعة المنهج المتطرف[١] الذي يؤمنون به والذي لا يتطابق مع الدين الإسلامي المتسم بالسماحة والميل للحوار والتواصل إلا ببعض أشكال قشوره الخارجية. فلا حاجة لأحد لكي يتعرف على طبيعته أن يلجأ إلى مصدر إسلامي آخر وإنما من خلال هذه الادبيات والكتب ومجمل السيرة العامة للوهابيين التي سجلها مؤرخون ينتمون إلى نفس مؤسستهم الدينية أمثال ابن غنام[٢] وابن بشر[٣] ومؤلف كتاب لمع

(١) مؤلف مجهول لم تذكر سنة وفاته. كتب (**لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب**). يروي عن (. . **من يوثق به. . حكى لنا رجل بغدادي. . . سمعت بعضاً من أهل البصرة. . الخ**) وهي مصادر غامضة. وقد طبع الكتاب على نفقة الحكومة السعودية. يبدو أن الكاتب غير معاصر للشيخ.

(٢) حسين بن غنام المتوفى ١٢٢٥هـ - ١٨١٠م ألف كتاب «**روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام**» أو ما يعرف بـ (**تاريخ نجد**) وهو أقرب المؤرخين عهداً بالشيخ توفي بعده بعشرين عاماً ولم يعاصر النصف الاول من حياته. وقد اعتمد في كتابه على المرويات والمسموعات.

(٣) عثمان بن بشر النجدي المتوفي عام ١٢٨٨هـ - ١٨٧١م له كتاب (**عنوان المجد في تاريخ نجد**) وقد بدأ بتسجيل الحوادث منذ العام ١١٥٨هـ / ١٧٤٥م أي العام الذي تحالف فيه الشيخان محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود.

الشهاب[١] وغيرهم.. وكذلك من كتابات الشيخ - وقد أشرنا إليها في هذا الكتاب - ومن رسائله التي سجلها ابن غنام في تاريخه الذي أشرنا إليه في الهامش.

○○○

(الوهابية) لفظة منسوبة إلى اسم الشيخ المؤسس محمد بن عبد الوهاب مبتدع هذه الفرقة الدينية التي اتسم ايقاع أعمالها بالتشنج والعداء للآخر (المسلم غير الوهابي) وكذلك غير المسلم. ولأن فعالياتها القتالية كانت ضمن منطقة نجد في الجزيرة العربية ثم في بقية مناطق هذه الجزيرة وما حولها والتي تقطنها أغلبية مسلمة، فإن هذه الفعاليات استهدفت المسلمين في تلك المناطق ولم تتمدد ضد غيرهم إلا مؤخراً أي في سبتمبر ٢٠٠١ وما بعدها. ومنذ هذا التاريخ اعتبروا العالم في قبضة ايديهم وأصبحوا يوجهون تهديدات جدية بالقضاء عليه ونسف حضارته.

ولأنهم اعتبروا إطلاق اسم الوهابيين عليهم تعسفاً باعتبار أنهم حنابلة[٢] وأنهم يمثلون الإسلام الصحيح والفرقة الناجية التي ستحتكر

---

(١) مؤلف مجهول لم تذكر سنة وفاته. كتب (لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب). يروي عن (.. من يوثق به.. حكى لنا رجل بغدادي... سمعت بعضاً من أهل البصرة.. الخ) وهي مصادر غامضة. وقد طبع الكتاب على نفقة الحكومة السعودية. يبدو أن الكاتب غير معاصر للشيخ.

(٢) أي أنهم ينتمون للمذهب الحنبلي الذي صادروه وادعوا تمثيلهم له رغم وجود من يخالفهم الاعتقاد من نفس أبناء هذا المذهب. والواقع أن المذاهب الإسلامية الاربعة (المالكي والحنبلي والحنفي والشافعي) قد وجدت في ظل السلطة العباسية التي كان لتدخلها أقوى الأثر لنشرها. وقد اختلفت في القوة والانتشار، وكان المذهب الحنبلي هو الاقل انتشاراً لعدة أسباب منها تطرف أصحابه وميلهم لاشعال الفتن الطائفية وتدخلهم في شؤون الناس بدعوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالطريقة التي يرونها. ولعدم اكتمال تكون هذا المذهب باعتبار أن أحمد بن حنبل مجرد محدث غير قادر على الاجتهاد. وكان قليل الاتباع وكاد أن يندرس لولا أن بعثه ابن تيمية في القرن السابع ودافع عنه دفاعاً مستميتاً. =

وحدها الجنة يوم القيامة، فإنهم أسموا أنفسهم السلفيين، أي الذين يسيرون على آثار (**السلف الصالح**) ويعنون بذلك كل من سبقهم من المسلمين وخصوصاً الاوائل من أصحاب الرسول وهم بنظرهم كل المعاصرين له واعتبروهم لغاية ثلاثة قرون متتالية معصومين لا ينبغي التحدث عن أخطائهم وانتهاكاتهم لأنهم (**اجتهدوا**) فيها والمجتهد مثاب على عمله سواء أخطأ أم أصاب. وقد دعموا أطروحاتهم هذه بأحاديث غير صحيحة أو مُدَلَّسة نسبوها للرسول، بثّت منذ أيام الامبراطورية الاموية المستبدة التي قامت في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، لكي تبرر تلك الاخطاء والانتهاكات التي قام بها حكامها. وقد استفادت منها كل سلالات الحكام اللاحقين، كما استفادوا من أحاديث موضوعة أخرى منسوبة للرسول تدعو إلى وجوب اطاعة الحاكم باعتباره ولي أمر المسلمين وعدم الاعتراض أو الخروج عليه ولو كان فاسقاً أو ظالماً اعتدى عليهم أو سلب أموالهم. وكأن الدين قد صمّم لخدمة الظالمين والمعتدين والمستبدين من الحكام.

والواقع أنهم لم ينتهجوا انتهاج (**السلف**) من الصحابة كما ادعوا، وإنما انتهجوا منهج جماعة من المتطرفين الحنابلة الذين أثار وا الفتن والمعارك بين المسلمين في القرنين الثالث والرابع وخاضوا معارك وصراعات عديدة معهم.

= وكاد أن يكون ثانية في ذمة التاريخ لولا أن تداركه محمد بن عبد الوهاب ونشره في نجد بعنوان مذهب أهل السلف بالقوة وبالاموال وغنائم الغزو. «**إن السلطات الحاكمة على طول التاريخ الإسلامي لم تكتف بصناعة المذاهب ودعمها وتقويتها وفرض اتباعها على الجماهير، وحددت هذه المذاهب وحصرتها في أربعة ومنعت العامة من تقليد غيرها. وحذرت الخاصة من تجاوزها أو إنشاء مذاهب جديدة، أي منعت الاجتهاد وأغلقت بابه. . وقد اعتبرت عروبة أحمد بن حنبل فيما بعد منقبة نشرها أصحابه واعتزوا بها وجعلوها إحدى المرجحات الاساسية لاتباع مذهبه. .**». الكثيري/ السيد محمد - السلفية - دار الغدير - بيروت ط ١، ١٩٩٧، ص ١٠٨ - ١١٣.

وحتى لو صح ادعاؤهم انتهاج منهج السلف، فأية صحابة انتهجوا منهجهم وهم يعدون بالآلاف أنهم اختاروا مجموعة منتقاة منهم ووالوها ودافعوا عنها ونبذوا البقية. هذا ما يكشف عنه واقعهم وسجالاتهم ومعاركهم طيلة حياتهم كما تكشف عنه وقائع التاريخ وطبيعة الاحداث الواقعة.

○○○

تحدثنا في أحد فصول هذا الكتاب عن إقامة الشراكة بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب المولود في العيينة في نجد عام ١٧٠٣م مع شيخ الدرعية محمد بن سعود حوالي عام ١٧٤٥م. ولم تشر المصادر التي تحدثت عنه إلى انتمائه إلى اساتذة معروفين أو مدرسة فقهية معروفة وإنما ذكرت أنه قد تلقى دروسه الأولى على يد أبيه وأنه درس لعدة أشهر على يد آخرين وأنه كان كثير المطالعة لكتب التاريخ والحديث والتفسير ومنها كتب الشيخ ابن تيمية المعروف بصراعاته وميله للجدل والخصومة وكذلك تلميذه ابن القيّم الجوزية الذي نهج منهجه. كما تحدثت عن سفره للبصرة لنشر أفكاره التي رفضت هناك وطرد بسببها فعاد إلى الاحساء ثم حريملة حيث يقيم أبوه فيها قاضياً وحاول نشر أفكاره المتعلقة بالتوحيد والشرك وتقديس الأولياء. فوقع بينه وبين أبيه جدل ومخاصمات وألف هناك كتابه (**التوحيد - الذي هو حق الله على العبيد**) فانتشر ذكره و(**اشتهر حاله في جميع بلدان العارض في العيينة والدرعية ومنفوحة.. وكان الناس عند ذلك حزبيين وانقسموا فيه فريقين، فريق أحبه وما دعا إليه فعاهده على ذلك وبايعه وحذا حذوه وتابعه وفريق أنكر عليه..**)[1].

(١) ابن غنام/ حسين/ تاريخ نجد، تحقيق د. ناصر الدين الاسد. دار الشروق، ط ٢، ١٩٨٥، ج١، ص ٢٩ - ٣٠.

غير أن كاتباً آخر ذكر له سيرة عجيبة ادعى فيها أنه بدأ سفرات عديدة في السابعة والثلاثين من العمر (٦ سنوات في البصرة، ٥ سنوات في بغداد، سنة في كردستان، سنتان في همدان، ٦ سنوات في أصفهان، ثم ستة أشهر في حلب، سنة في دمشق، القدس، سنتين في القاهرة، عاد إلى مكة ثم نجد، ثم اليمامة حيث أمضى سنتين ونصف ثم استقر في العينية سنة ١٧٣٨)[١]. وذكر هذا الكاتب أن الشيخ كان يغير اسمه وأنّه تعلم لغات المدن التي كان يمر بها. ولا توجد في الكتب الاخرى ما يدل على ما ذكره هذا المؤلف.

حاول في العيينة أن يقيم تحالفاً مع رئيسها عثمان بن معمر واعداً إياه بملك أكبر: **(أني أرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله تعالى وتملك نجداً وأعرابها)**[٢].

أراد الشيخ أن ينفذ برنامجه بمساعدة ابن معمر وقاما بهدم قبة زيد بن الخطاب ورجم امرأة قيل أنها زانية مما كان لذلك صدى واسعاً دفع رئيس الاحساء والقطيف المتنفذ والقوي ليأمر ابن معمر لقتل الشيخ، وهدده بقطع خراجه إن لم يفعل.

لكن هذا اكتفى بطرده، فذهب إلى أقرب قرية مجاورة، الدرعية، حيث تحالف مع شيخها المغمور محمد بن سعود، الذي وجد مصلحة كبيرة له في ذلك، كما ذكرنا في هذا الكتاب.

○ ○ ○

لم يتصور أحد أن ذلك الاتفاق كان بداية لاقامة دولة يتسلم زمامها

---

(١) مؤلف مجهول - لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب، تحقيق د. أحمد مصطفى أبو حاكمه، نشر عن طريق المؤسسات الاعلامية السعودية، بيروت ١٩٨٧ م.

(٢) عنوان المجد، مصدر سابق ص ٩.

رجل أو عائلة واحدة تحكم بأساليب الدول الاستبدادية التقليدية في العصور الوسطى. فقد انتشر بفترة قياسية نفوذ آل سعود ورجلهم المتنفذ محمد بن عبد الوهاب ودعوته **(الوهابية السلفية)** كل أنحاء نجد أولاً ثم بعد ذلك في أنحاء الجزيرة. وقد كان السيف بديلاً عن الحوار في كل مراحل الحراك والغزو الوهابي. وسيمثل شعار الحركة: **(الدم بالدم والهدم بالهدم)** على المستوى الواقعي تكوّن عصابة مسلحة قوية ترفع شعار **(الجهاد)** بوجه كل من لا يتبنى أفكارها وشعاراتها أو ينظم إليها.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان نتاجاً لافرازات المذهب الحنبلي ونظرته الاحترابية التي لا تعترف بالمذاهب الاخرى وكان تابعاً مخلصاً لاستاذيه ابن تيمية وابن القيم. والواقع أن ابن تيمية حمل آراء وأفكاراً ومفاهيم وتصورات حول التوحيد إلتزمت بظواهر النصوص وعرضت الذات الالهية كجسم يشبه الجسم البشري إلا أنه هائل بشكل لا يقاس وأن له وجهاً ويدين وقدمين وأنه يتحرك وينزل إلى الأرض ويجلس الرسول معه على عرشه وأنه يضع إحدى قدميه في النار لتمتلىء وتنتهي مهمتها.. وأنه يضحك ويتكلم مع الناس ويسبق الرسول إلى الجنة ليكون أول من يلقاه ويتحدث معه. والواقع أن هذه التصورات مأخوذة عن بعض اليهود الذين ادعوا الإسلام وسربوا هذه القصص الخيالية التي حفل بها تراثهم الديني مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وغيرهم، الذين تلقفت مدرسة أحمد بن حنبل أحاديثهم وقبلتها كما هي باعتبارهم من الصحابة الذين لا يمكن أن يكذبوا أو يتطرق إليهم الشك.

لقد جعل ابن تيمية الاعتقاد بهذه التصوّرات مسألته الشخصية وقد دافع عنها باستماتة إلى آخر رمق ودعا إلى عدم تفسير أو تأويل الآيات القرآنية وفق المعطيات الاصلية للرسول ورؤيته الصحيحة وإنما وفق معطيات بدائية

ساذجة تجعل من الله أحد مخلوقاته وأنه يُضم أو يتحيز بمكان محدود وهي الرؤية التي تعبد بها المسلمون غير أن ابن تيمية لم يعترف بها واعتبر الاختلاف بشأنها من الأمور التي لا تحل إلا بحدّ السيف.

لقد سار ابن عبد الوهاب على خطى استاذه ابن تيمية وتبنى كل آرائه وتصوراته حول التوحيد وغيره. وكان يقلده في كل شيء، بل أنه حاول أن يكون نسخة منه. وقد انحصر جهده في «**بعض الشروحات والتفريعات وإلباسه حُللاً جديدة لأفكار استاذه القديمة وتطعيمها بحجج إضافية، فضلاً عن بعثها وإحياء ما اندرس منها، والدعوة إليها بحد السيف ومحاولة جعلها ميزاناً يحاكم به عقائد خصومه من أهل نجد أولاً وباقي العالم الإسلامي آخر المطاف**»[١].

لقد اعتقد عندما تشرب أفكار استاذه أنه قد انفرد بمعرفة حقيقة التوحيد رغم الصورة المهلهلة التي رسمها عن الذات الالهية والتي لا تنسجم مع التصورات الإسلامية الاصيلة وزعم أن أحداً قبله لم يعرف معنى لا إله إلا الله. بل ربما اعتبر نفسه الوريث الوحيد لهذه التصورات. يقول: «**فمن زعم من علماء (العارض) أنه عرف معنى لا اله إلا الله أو عرف معنى الإسلام قبل هذا الوقت أو زعم عن مشايخه عن أحد عرف ذلك، فقد كذب وافترى. ولبس على الناس، ومدح نفسه بما ليس فيه، فاتقوا الله عباد الله، ولا تتكبروا على ربكم ولا نبيكم، واحمدوه سبحانه الذي منّ عليكم ويسّر لكم من يعرّفكم بدين نبيكم ﷺ**»[٢] ويقصد نفسه.

وهكذا تغنى اتباعه بعد سيطرته على الجزيرة العربية وإقامة دولة وهابية

---

(١) السلفية، ص ٣٠٩.

(٢) كشك: محمد جلال. السعوديون والحل الإسلامي، المطبعة الفنية / القاهرة ص ٤، ١٩٨٤م، ص ٩٥ - ٩٦.

أنه هو المصلح الذي بشّر به رسول الله ﷺ في حديث مزور آخر يقول فيه أنه يظهر في نهاية كل مائة سنة مصلح يقوّم الانحراف الذي تقع فيه الامة. ولا ندري لِمَ لم يظهر مصلح آخر بعد مائة أو مائتي سنة من وفاته ليكمل مسيرة المصلحين الذين زعموا أن رسول الله بشّر بهم. ولعله كان خاتم المصلحين كما كان الرسول ﷺ خاتم النبيين. والطريق أنهم حاولوا إيجاد تشابه بين سيرته وسيرة الرسول، وكأنه رسول حقيقي آخر جاء لاخراج الناس من الظلمات إلى النور.. ويمكن التأكد من ذلك في بعض أدبياتهم وكتبهم.

○ ○ ○

كان تكفير المجتمع المبرر الذي يتيح للشيخ غزوه والانقضاض عليه وإباحة دماء الناس وأموالهم، وبدون حجة التكفير لن يجد مبرراً آخر يمكنه من بسط نفوذه وتحقيق طموحاته. لذلك فلا مجال أمامه للتراجع عنها لأي سبب إذ أن معنى ذلك أن يتوقف عن نشر أفكاره بالقوة وأن يلجأ إلى الحوار وأساليب الامتناع التي لن ينجح فيها بالتأكد ولن يصمد أمام المنظومة الإسلامية المعرفية العامة وسيتضح جهله أمام الجميع.

لقد بين في أحد كراساته، (**كشف الشبهات**) أن دون زيارة الأنبياء والأولياء والصالحين خطوطاً حمراء إذ أن ذلك يجعل الزائرين في خانة الشرك لأن «**قصدهم الملائكة! والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم...**»[١].

لقد جعل الذي يزور قبر النبي ويتوسل ويطلب به الشفاعة من الله كمن يتوسل أو يتشفع بشجرة أو جني (.. **فإن الاله عندهم هو الذي يقصد لأجل**

(١) بن عبد الوهاب: الامام شيخ الإسلام محمد / شرح وتقديم. د. محمود مطرجي / دار القلم / بيروت/ ط١ / ١٩٨٦/ ص ١٤.

هذه الامور، سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرة، أو قبراً أو جنياً. لم يريدوا أن الاله هو الخالق الرازق المدبر لأنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، وإنما يعنون بالاله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ السيد..)[1].

ولم نجد في قواميس اللغة أن كلمة السيد تعني الاله وإنما هي كنية لنسل الرسول أو الولي أو العالم درج على استعمالها العامة والعلماء. وإذا كان زوار النبي ﷺ مثلاً يعلمون أنه لا يشفع إلا بإذن الله وأنه لا يستطيع ذلك بحوله وقوته سواء كان حياً أو ميتاً فما الداعي لاتهامهم بأنهم أغلظ شركاً من الأولين الذين كانوا يعتقدون فعلاً أن أصنامهم تضر وتنفع وتشفع بإرادتها رغم أنها جمادات وتماثيل من صنع أيديهم ومخيلاتهم؟

إن هنا تمويهاً خطيراً قد يلتبس على العديد من الناس خصوصاً من قبل أولئك الذين يحاولون تبرير العنف الذي يقوم بعد الوهابيون واتهام المسلمين بالشرك والردة والكفر. فهم يستعرضون الحالة العامة في مجتمع نجد قبل الدعوة الوهابية ويتحدثون عن أوجه التخلف والانحراف في ذلك المجتمع ليقولوا بعد ذلك أن الشيخ كان محقاً في تكفيره، كما يفعل ناشر كتاب ابن بشر، وهو المؤرخ الوهابي الذي أشرنا إليه والذي يصف أهل نجد بـ «الجهل والضلال».

يقول الناشر: «هذه العبادة ربما استشكلها من لم يطلع على الحال الأولى في نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وما صاروا عليه بعد دعوته. فكانت عبادة غير الله والتحاكم إلى الطواغيت وإنكار ما علم من الدين بالضرورة كالبعث بعد الموت موجودة بكثرة خصوصاً في البوادي... »[2].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤ - ١٥.

(٢) عنوان المجد/ المقدمة.

فأية علاقة لذلك بزيارة القبور. ولماذا لا تتم حملة توعية وإصلاح لهؤلاء لتبصيرهم بضرورة التوجه بالعبادة لله وحده وعدم التحاكم إلى الطواغيت والايمان بالبعث بعد الموت بدلاً من وضع الجميع في معسكر واحد واتهامهم بالكفر..؟

ويقترب ابن غنام أكثر من ابن بشر ليتهم زوار الأنبياء والصالحين بعبادتهم ويساويهم بمن يعتقدون النفع والضر بالجمادات كالاحجار والاشجار. يقول ابن غنام: «.. **كان غالب الناس في زمانه - أي ابن عبد الوهاب - متضمخين بالأرجاس متلطخين بالانجاس.. فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين، وخلعوا ربقة التوحيد والدين.. وكثير منهم يعتقد النفع والإضرار في الجمادات كالأحجار والأشجار. ولعب بعقولهم الشيطان.. وجعلوا لغيره ما يجوز صرفه إلى سواه وزادوا على أهل الجاهلية..** »[1].

فأية علاقة لمن يعتقد بالاحجار والاشجار بمن يعتقد بالتواصل مع الرموز الدينية وزيارتها والطلب إلى الله أن تشفع له؟ إن الوهابيين أصروا على اتهامهم هذا وساووا بين الجميع وأرادوا بمسح وتهديم الاثار الإسلامية ومنها الاضرحة والقبور أن ينسفوا تاريخ المسلمين لأن هذه الآثار وثائق تدل على محطات مسيرة الإسلام ونشأته وامتداده ولا يمكن أن يكون مشروعهم هذا بريئاً دون أجندات خفية مغرضة لا تنوي الخير اطلاقاً. وكان ذلك كله لتبرير قيام الوهابيين بحمامات الدم المرعبة وإزهاق الأرواح وسلب الاموال دون مبرر إلا الاتهام الكاذب بالكفر، وهو إتهام بدا بنظرهم ضرورياً كما عبّر بعض مرتزقتهم عن ذلك صراحة مثل الصحافي محمد جلال كشك في كتابه السعوديون والحل الإسلامي الذي أشرنا إليه فهو

(١) فاسيليف / تاريخ العربية السعودية / دار التقدم / موسكو ١٩٨٦م، ص ٨٣.

يقول عن تلقين (الاخوان) من قبل المؤسسة الدينية الوهابية بأن غيرهم ليسوا مسلمين أي أن الاخوان وحدهم مسلمون: «هل لو علّموهم أن غيرهم مسلمون، أكان يقوم جيش الاخوان أو تتحرر وتقوم مملكة ابن سعود؟».

أي أن قيام العرش السعودي يستدعي تلقين الاخوان المغفلين أن الآخرين غير مسلمين يحل دمهم ومالهم. فهو تكفير سياسي يلجأ إليه من يريدون إقامة دول على غرار الدولة الاموية. والغريب أن جيش الاخوان كُفّر بعد ذلك وبعد أن أنجز مهمته وقامت الدولة السعودية بتهمة الخروج على ولي الأمر. ثم أبيد من قبل الدولة التي قامت بجهوده وأصبح في ذمة التاريخ.

ولأن الغزو بنظر البدو كان يعتبر عملاً نبيلاً يدل على الشجاعة، فإن الحماس له يتصاعد إذا ما قام على مبرر ديني، أنه يصبح عند ذاك عملاً مقدساً.

إننا نتحدث عن حقبة لها خصوصياتها وأدبياتها الخاصة وقد أريد لها أن تتأصل ويسبغ عليها طابع القداسة حتى تظل مقبولة في أي زمن لاحق كما كانت مقبولة في زمنها. وعليه فلا يمكننا غض النظر عن ثقافة الغزو التي وظفها ابن عبد الوهاب دينياً ولا نؤكدها بشكل واضح، لأنها لا زالت تلقي بظلالها القائمة على تصرفات الحركات الجهادية المتطرفة التي تتصرف بعقلية الغزو الوهابية المشرعنة والتي اعتبروها عملاً مقدساً[1].

أصبح الغزو هو (الجهاد) في سبيل الله، وانفرد الغزاة بلقب

(١) من الطريف أن نشير إلى أن بعض أتباع هذه الحركات في مصر اطلق على عملية فوز الاخوان المسلمين والسلفيين بالانتخابات الاخيرة عن طريق صناديق الاقتراع بـ (غزوة الصناديق). إذ صار اسم الغزوة يقترن في أذهانهم بالمقدس والديني.

(المسلمين) و(الموحدين) الذي أطلقه الشيخ عليهم «ووصف باقي القبائل وأعراب البادية بأنهم كفار ومشركون حلال الدم والمال. وأوهم اتباعه بأنه يشبه الرسول ﷺ. فقد بعثه الله لقوم يعبدون الاصنام والجن الملائكة ويتخذونهم شفعاء وآلهة. فدعاهم إلى التوحيد أولاً، ثم لما تمكن من محاربتهم وهدم أصنامهم جهز الجيوش بمن معه من المؤمنين والمهاجرين وسلطهم على المشركين في غزوات متتالية. فقتل رجالهم وسبى نساءهم وذراريهم وامتلك أموالهم ووزعها على المحاربين المسلمين.

وهذا ما قام به الشيخ وأقنع أتباعه بصحة المقارنة فانطلقت (الفتوحات الإسلامية) من الدرعية[١]. ويؤكد ما ذكره ابن بشر في تاريخه على طبيعة الغزوات السعودية التي تستهدف نهب الاموال وحسب.. كما أن الحقائق التاريخية تؤكد أن الرسول ﷺ لم يقم أبداً بأية غزوة ضد أعدائه الذين كانوا مشركين وكفاراً فعلاً رغم أنهم بدأوه بالحرب وقتلوا جماعة من أصحابه. ولعل كل قارىء مسلم يعلم أنه ﷺ بعد فتح مكة قد عفا عن أهلها وهم أعداؤه الالداء... لا يمكن مقارنة حروب النبي مع أعدائه بغزوات الوهابيين على جيرانهم المسلمين وقد أغاروا عليهم وساروا في أثرهم يقتلون ويغنمون على حد تعبير مؤرخهم ابن بشر. فكيف يقتل الهارب من الحرب وغير المشارك فيها حتى لو كان من النساء والاطفال؟ هل أن الرسول أوصى بذلك حتى يقتدي به الوهابيون أم أنها ثقافة الخوف والرعب التي أرادوها أن تسود بين جيرانهم ليتسلطوا عليهم.

التراث الشعبي في الجزيرة حافل بقصص القتل المريعة وغير المبررة أبداً بحق الذين لم ينتموا للوهابية وشاء لهم سوء طالعهم أن يكونوا من ضحاياها. ولقد نُصروا بالرعب حقاً لا لأن إرادة الهية عليا شاءت ذلك بل

(١) السلفية، مصدر سابق، ص ٣٢١.

لأنهم أوغلوا في الشراسة والدموية التي طالما تباهوا بها ولا يزال أبناؤهم يتباهون بها كمآثر تستحق التقدير لأن فقيهاً متعصباً ذو قراءة محدودة للإسلام أوهمهم بأن ما قاموا به هو حرب مقدسة وجهاد في سبيل الله وتوحيده لا في سبيل إقامة نظام طاغوتي جديد على غرار الانظمة الاستبدادية السابقة.

إن يوميات الحراك الوهابي منذ الامارة الأولى في الدرعية وخلال مراحل تكوُّن الدولة ومروراً بفعاليات (**الاخوان**) القتالية وانتهاء بممارسات الحركات (**الجهادية**) المعاصرة التي حسمت أمرها بتبني ثقافة الشيخ المؤسس بنسختها الأصلية دون تنقيح، تفصح عن تبنيها العنف كخيار وحيد لتغيير العالم وفق رؤيتهم. أي من خلال (**خلافة**) تعيد الصيغ الأصلية لخلافات[1] السلف التي لم تكن تنتهج صيغة واحدة في الحكم والتعامل مع الناس.

ورغم أنهم يتداولون الحديث المنسوب للرسول والذي يقول فيه أن الفترة التي ستعقب حكم الخلفاء الاربعة الاوائل ستكون ملكاً عضوضاً أي وراثياً مطلقاً، فإنهم لم يروا أي مانع من التعامل مع ملوك هذه الحقبة الامويين رغم إنحرافهم المعلن عن الإسلام واعتبروا ذلك أمراً طبيعياً وأن هؤلاء الملوك شرعيون مفروضوا الطاعة على جميع المسلمين. وروّجوا في أدبياتهم الاحاديث المزورة التي تدعم هذا الرأي، وذهبوا إلى حد اعتبار الدولة الاموية نموذجاً متطوراً للحكم الإسلامي.

وهكذا رفعوا أي إلتباس قد يراود أذهان البعض بخصوص إنحراف هؤلاء وبررّوها بمختلف الذرائع والتلفيقات التي لا تصمد أمام المنهج الإسلامي الذي يدعو للعدالة وتجنب الاحكام الجائرة والتعسفية التي حفل

---

(١) جمع خلافة.

بها تاريخ الامويين وأغلب سلالالة الحكم الوراثية المستبدة التي تشبثت بالسلطة وقمعت الحريات العامة وأسكتت أصوات المعارضة ووصمت المعارضين بمختلف الاسماء والنعوت التحقيرية التي لا تزال متداولة حتى الآن.

○ ○ ○

ولأنّ هذه الانظمة الدكتاتورية المستبدة لم تعد مجرد أثر من آثار التاريخ، وإنما يراد استعادة تجربتها من خلال (**خلافات**) مماثلة - كما حصل فعلاً في التجربة السعودية - وكما تسعى أغلب حركات الإسلام السياسي الذي يعتمد الوهابية مرجعية عامة له... فإن من يتعرض لنشاطات هذه الحركات (**الوهابية = السلفية**) لا بد أن يخوض حوادث تاريخ أولئك (**الخلفاء = الملوك**) الاوائل لتتبيّن حقيقتهم وجدارتهم لقيادة المسلمين وحقيقة ما أوقعوه من أضرار بهم بدلاً من تطوير التجربة الإسلامية وفقاً لمبادىء قائدها الأول ﷺ... ولن يكون الخوض في التاريخ هنا من قبيل الترف أو الكماليات كما تتم الدعوة لذلك باعتبار أن المسلمين المعاصرين هم أبناء اليوم وعليهم أن ينشغلوا بقضاياهم الراهنة ويتركوا من مضى لعدالة الله ورأفته طالما أنه لم يعد على قيد الحياة. وكأن هؤلاء الماضين لم يلقوا بظلالهم الثقيلة على مجمل المسيرة الإسلامية العامة وكأنهم عاشوا على هامش الحياة منزوين في بيوتهم أو صوامعهم منشغلين بأمورهم الشخصية الخاصة...!.

هنا حد فاصل يضعه الإسلام بين التعرض بالنقد لعوام الناس الذين يعيشون حياة بسيطة خاصة وأولئك الذين يتربعون على العروش والمنابر. فهؤلاء شخصيات عمومية لها تأثير في كل مفاصل الحياة العامة ومن حق الشعوب أن تنقدهم وترصد تصرفاتهم وتقوّمها إذا ما انحرفوا أو تمادوا في

أي تصرف غير سليم. إما أن تمنح لهم حصانة الهية باعتبارهم مصونين غير مسؤولين فإن ذلك لن يتم إلا في حالة واحدة، هي أن يكونوا رموزاً محايدة يقودون أنظمة دستورية مسؤولة أمام الشعوب. وهذا ما لم تحققه أية سلالة حكم وراثية.

ولا بد أن نشير هنا إلى أن الانتهاكات الاموية المروعة لم يتم التعامل معها بشجبها أو السكوت عنها على الاقل وإنما حملت الجهات المعارضة المنتهكة مسؤولية ما حصل لها وأُتهمت بتفتيت وحدة المسلمين وفرقتهم كما حصل مع الحسين بن علي حفيد رسول الله ﷺ وأهل المدينة التي تضم آلاف الصحابة الذين قتل أغلبهم في واقعة (**الحرة**) المشهورين وبايع الباقون لا على سنة الله ورسوله كما هو التقليد المعتاد، وإنما على أنهم عبيد (**للخليفة = أمير المؤمنين**) يزيد كما اغتصبت فيها الاف النساء الانصاريات وولدت أكثر من ألف عذراء من بنات الصحابة والتابعين من الزنا بعد استباحة هذه المدينة المقدسة التي أوصى الرسول بها وبأهلها خيراً.

لقد انشغلت مؤسسة الوعاظ والفقهاء المنتمين تاريخياً للخط الاموي على امتداد هذا التاريخ، بوضع التبريرات للانتهاكات الاموية مستندين على الادلة العقلية والنقلية أي الاحاديث المزيفة المنسوبة للرسول، وقد ترسخ في العقل الجمعي للجماهير المؤمنة بهم أن هذه ليست مجرد تبريرات كاذبة وإنما هي حقائق بعد أن منع التعرض لشخصيات نقَلا هذه الاحاديث الكاذبة خصوصاً من (**الصحابة**) الذين أضفيت عليهم قداسة إضافية، بحديث ملفق عن الرسول أيضاً. وقد برروا خصوماتهم وتقاتلهم بأنه كان نتيجة اجتهاد لا علاقة للمصالح أو الآراء الشخصية فيه وأنهم كانوا كالملائكة لا يخطئون. لأن أي ناقد لأي صحابي سيواجه بحجة (**قوية**) لا

يمكن أن ترد - بنظرهم - وهي أننا إذا ما كنا نشكك ببعض الصحابة، وهم نَقَلة الحديث الينا فمعنى ذلك أن أغلب الاحاديث ستحجب عنا، أي إن أحاديث مزورة خير من حجب كل الاحاديث! ونتساءل هل يكون الحديث حديثاً نبوياً إذا كان موضوعاً أو مزوراً. وما جدوى وجود الكم الهائل من الاحاديث الكاذبة والمزورة.. اللهم، إلا أن تكون قد صممت لدعم ومساندة أنظمة الحكم المستبدة وتبرير أعمال **(الخلفاء)** غير الشرعيين!

ومع ذلك نجد من يتحمس لإعادة تجارب **(الخلافة)** الإسلامية، وكأن الذين طبقوها كانوا مسدّدين ومن طبقة الملائكة. وكأن الخير العميم تحقق فيها... ولا ندري كيف تضلل أمة بأجمعها اللهم إلا إذا تكاتفت مؤسسات وطبقات متلاحقة ممن يمتهنون الدين ويوظفونه لخدمة الأغراض الشخصية للحكام ويلبسونها غطاء شرعياً مقدساً.

وإذ أن الامويين كانوا في بداية عهدهم على درجة من القوة والمنعة تتيح لهم المجاهرة بنواياهم كما فعل معاوية عندما خاطب أهل العراق متحدياً بقوله: «**ما حاربتكم لتصلوا أو تصوموا أو تحجّوا، فإني أعلم أنكم تفعلون ذلك، وإنما حاربتكم لأتأمر عليكم**».. فإن الوهابيين وهم يخوضون صراعات وجود دائمية ويعلمون أنهم أقلية في المحيط الإسلامي الواسع اضطروا لإخفاء نواياهم الحقيقية من وراء الغزوات والتوسع وادعوا أنهم يخوضون تلك الحروب **(في سبيل تحقيق التوحيد الخالص لله)** رغم أنهم يحملون صورة مشوهة للذات الالهية رسمتها لهم ريشة مسلمة اليهود بعد غياب الرسول عن الساحة وبثوها على أنها أحاديث نبوية أو تراث صحيح للنبوات السابقة اعترف به الرسول ﷺ ولم يكذبه..!

إن الاساليب الفظيعة التي تمت بها غزواتهم البدوية وما ألحقوه من خسائر فادحة غير مبررة في الارواح والاموال وتعطيل عجلة الحياة واستمرارها بشكل احترابي لا يمكن أن تنسب إلى جهود مخلصة لبسط

الإسلام وتوضيح مفاهيمه. وإنما طبعت بطابع ايديولوجي ملفق ومفتعل من قبل الشيخ الوهابي. وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة بنظره ونظر كل من هو على شاكلته لبسط نفوذ الكيان السياسي الوليد الذي فكر بإقامته مع شريكه الدائم محمد بن سعود.

○○○

ولعل الاجيال المتلاحقة من الوهابيين تنظر بمزيد من الاعتزاز والفخر لما قام به المؤسسون الاوائل من أجدادهم من عمليات غزو وسلب غيرت مجرى حياتهم من أناس محرومين لا يجدون قوت يومهم إلا بمشقة زائدة، إلى أناس مرفهين تجبى إليهم أموال اسطورية لم يحسبوا أنهم سينالون جزءاً ضئيلاً منها حتى في الاحلام. لقد اعتبروا ذلك إمداداً من السماء ودليلاً على أن الله قد رضي عنهم وباركهم.

وكان غزوة كربلاء في ٢٠ نيسان ١٨٠٢م هي التي حققت لهم إلتهام أكبر كعكة في كل تاريخ غزواتهم «فقد هجم ١٢ ألف وهابي فجأة على ضريح الامام الحسين، وبعد أن استولوا على الغنائم الهائلة التي لم تحمل لهم مثلها أكبر الانتصارات، تركوا ما تبقى للنار والسيف. وهلك العجزة والاطفال والنساء جميعاً بسيوف هؤلاء البرابرة. وكانت قساوتهم لا تشبع ولا ترتوي. فلم يتوقفوا عن القتل حتى سالت الدماء أنهاراً. ونتيجة هذه الكارثة الدموية هلك أكثر من أربعة الاف شخص.. ونقل الوهابيون ما نهبوه على أكثر من أربعة آلاف جمل. وبعد النهب والقتل دمروا كذلك ضريح الامام وحولوه إلى كومة من الأقذار والدماء وحطموا خصوصاً المنائر والقباب لأنهم يعتقدون بأن الطابوق الذي بنيت منه مصبوب من ذهب»[1].

(١) عن ارشيف السياسة الخارجية لروسيا (١٨٠٣ الاضبارة ٢٢٣٥ ص ٣٨ - ٤٠. نقلاً عن تاريخ العربية السعودية) فاسيليف - مصدر سابق ص ١١٦ - ١١٧. =

لا مجال لاستعراض كل حملات الغزو الوهابية في مكة والطائف وجدة والرياض وجبيل والاحساء وغيرها فهذه كلها مذكورة في أدبيات الوهابيين كأمور جديرة بالفخر. غير أن ما يلاحظ أن الدافع إليها ليس بسط سلطان الإسلام وإعزاز مبدأ التوحيد. فجميع سكان الجزيرة مسلمون، غير أنهم ينتمون إلى مختلف المذاهب الإسلامية التي لا يعترف بها الوهابيون.

= إن نبرة الفخر والاعتزاز تبدو واضحة عند ابن بشر عندما يتحدث عن حوادث سنة ١٢١٦هـ - ١٨٠٢م يقول: . . . وفيها سار سعود بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة من جميع حاضر نجد وباديها والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك وقصد أرض كربلاء ونازل أهل بلد الحسين. . فحشد عليها المسلمون! وتسوّروا جدرانها ودخلوها عنوة وقتلوا غالب أهلها في الاسواق والبيوت. وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين. وأخذوا ما في القبة وما حولها. وأخذوا النُصيبة (الشباك) التي وضعوها على القبر، وكانت مرصوفة بالزمرد واليواقيت والجوار وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الاموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك ما يعجز عنه الحصر، ولم يلبثوا فيها الاضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الاموال وقتل من أهلها قريب من الفي رجل». عنوان المجد ص ١٢١ - ١٢٢. مصدر سابق. وعن ذلك يقول الدكتور مايون همتي في كتابه (الوهابية: نقد وتحليل) ص ١٤٨: «. . . **وفي داخل المدينة ارتكبوا الكثير من الاعمال الوحشية من تدمير ونهب وفساد، فكانوا يقتلون كل من يصادفهم من دون أية رحمة أو شفقة. ونهبوا جميع الدور. لم يخامرهم في هذه المذبحة أي عطف على الشيخ والشاب والصغير والكبير والمرأة والرجل بحيث لم ينج أحد من قسوتهم البربرية**». ولا شك أن الثروات الهائلة التي تجمعت في هذه المدينة والتي كانت تتوارد على ضريح الامام الحسين طوال عدة قرون ومنها أحجار كريمة وعدد من التحف النادرة، والتي أثارت شهيتهم وجشعهم منذ أمد طويل جعلتهم يستسهلون عملية إبادة سكان هذه المدينة ويجعلون من ذلك غزوة موفقة ومباركة. وربما نتساءل: هل تصرف الرسول مع أهل مكة وهم أشد أعدائه بهذه الطريقة أم أنه عفى عنهم. وإذا ما حكم الوهابيون على المسلمين من أهالي كربلاء بالشرك فهل تقدموا اليهم بالنصح والقيام بالتوبة ثم عفوا عنهم. ثم هل كان للاطفال ذنب حتى يقتلوا بتلك الطريقة المريعة في أكبر حمام للدم أقامه الوهابيون إذ قتلوا كل سكان المدينة ونهبوها في نصف نهار وأتموا مهمتهم قبل الظهر. لا بد أن النهب والسرقة كان هو الدافع الاكبر لتلك الغزوة التي يتفاخرون بها.

غير أن الدافع الأول هو إشباع رغبة الحاكم الوهابي بالمال لبناء بلاط يضم ألف ومائتي مملوك من الذكور والاناث[١] وتوزيع الفتات على المقاتلين البدو الذين لم يشبعوا من التمر والخبز في حياتهم.

وإذا ما أثير السؤال التالي: لماذا العنف الآن والأحوال قد تغيرت بعد تفجّر البترول وتحسن الاحوال الاقتصادية وبعد أن أصبح الوهابيون في طليعة أثرياء المملكة؟ فإن الجواب لا يمكن أن يكون مختصراً يحصر هذه المسألة في المسألة الاقتصادية والمعيشية. فالعنف الأول قد تأصل وأصبح من مستلزمات الدعوة الوهابية وشعار التوحيد لا بد أن يرافقه السيف لتطويع الذين لا يتبنّون المشروع الوهابي (**مشروع الفرقة الناجية**)، كما أن ثقافة العنف الوهابية أصبحت كثقافة السب الاموية كأول أسلوب لنشر هذه الدعوة مع إغداق المال على الذين يستجيبون لها بعد توفر هذا المال بدلاً من استخدام (**المقاتلين = الدعاة**) في غزوات ماراثونية لسلب الغنائم أصبح المال رديفاً للعنف وداعماً للحركات الارهابية التي عملت تحت غطاء المرجعية الوهابية.

ولأن العالم لم يستجب بسهولة لما تطرحه من أفكار ورؤى ساذجة وغير عملية بنيت على أكاذيب وتلفيقات فإن حالة من المرارة والاحباط تراود منتسبيها الذين قد يعجبون من عدم تفهم العالم لهم، ويلقون مسؤولية ذلك على من لا يستجيب لهم، فإن رد الفعل المرير يجعلهم يفكرون دائماً بإخضاعه بالقوة أو إسكاته لئلا يكون عقبة في طريقهم. لقد غسلت أدمغتهم وتبلورت قناعاتهم ورأوا أن هذا العالم يستحق أن يحترق الآن لا في

(١) عنوان المجد / مصدر سابق.

الآخرة وأن عليهم أن يقوموا بهذه المهمة بأنفسهم. إن الهوس بالعنف الذي زرعه في قلوبهم شيخهم المتعصب وتشربته أجيال من بدو الصحراء الذين رأوا فيه الوسيلة الحاسمة لإخضاع الآخرين تسلل عبر منظومات (الآباء) والشيوخ إلى الاجيال الحديثة كوصفة ذات جدوى حقيقية. فهم يتصرفون الآن ويخوضون معاركهم بعقلية الغزاة الأوائل من أجدادهم غير أنهم استبدلوا بالسيف سيارة مفخخة أو عبوة ناسفة. وقد يعمدون في المستقبل إلى وسائل أكثر فتكاً. ولا ندري أي حد سينجحون في مشروعهم التدمير وأية نتائج مؤسفة سيتمخض عنها. إن الاطلاع الجيد على أدبياتهم وواقعهم قد لا يدعو إلا إلى الاحباط وتوقع المزيد من الأضرار والخسائر.

وعلى المسلمين قبل غيرهم أن يطلعوا على حقيقة المشروع الوهابي قبل أن يحقق أهدافه بإرجاعهم إلى العصر الحجري وأن يستفيد من تجارب العالم الذي تخلص من معاركه الطائفية وجنّب الدين أن يقع في براثن السياسيين الطموحين بعد أن استخدموه لفترة طويلة واستغلوا شعاراته في معاركهم الدامية.

لعلهم أن يكونوا قرّاء جيدين لهذه التجارب حتى لا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم حتى لا يعيد التاريخ نفسه لمن لا يقرأ التاريخ.

○ ○ ○

أنا أفتخر أنني تلميذ المدرسة الوهابيّة[١]

يقول الدكتور التويجري. ويضيف مفتخراً: «... **ودرست في دار التوحيد، المعقل الوحيد الذي يخرّج الدعاة والقضاة ومعظم قضاة وعلماء ودعاة المملكة تخرجوا منها، فأنا رضعت الفكر السلفي (الوهابي) من ثديه الأصيل...**».

لا شك أن التويجري، وهو نموذج للاصلاحي (**المتحرر**) وربما (**المنفلت**) بنظر الوهابيين التقليديين الذين لا يريدون أن ينزاحوا عن جميع (**ثوابت**) الوهابية، ربما يعتقد أنه حقق طفرة نوعية بأفكاره التي عرضها في محاضرته وتحدث عن قسم منها في المقابلة التلفزيونية. ومع ذلك فإنه عرض الوهابية على أنها الحركة الاصلاحية التجديدية الوحيدة في الجزيرة العربية التي دعت إلى الاجتهاد وعدم التقليد والتحرر من البدع والشركيات والخرافات... وأن كل التقاليد التي بدأتها لم تبتدعها وإنما جددت أصول الإسلام وروحه.. غير أن سبب حجب حقيقتها (**الاصلاحية المتسامحة**) يعود إلى إحظاء بعض المنتمين إليها.

تحدث التويجري بفخر عن المدرسة الاصلاحية (**التي بدأها الشيخ محمد بن عبد الوهاب والامام محمد بن سعود**) وزعم أنها أصبحت مرجعية

---

(١) الدكتور أحمد بن عثمان التويجري، محامي وأديب سعودي، أظهر نفسه كمعارض للتشدد وألقى محاضرة قبل ربع قرن تدعو للاصلاح والتجديد والاجتهاد والتسامح والانفتاح والاصالة. وهو نموذج (**للمتسامحين**) الوهابيين كما يحاول عرض نفسه في لقاء تلفزيوني في ٢١/ ٢/ ٢٠٠٦ مع قناة (**العربية**) السعودية.

لكل الدعاة والمصلحين الذين خرجوا خلال السنين المائتين وخمسين الماضية وأنهم قد تتلمذوا عليها. ورغم ما في هذه المعلومة من عدم موضوعية وابتعاد عن الحقيقة، إلا أن إنبهار التويجري بالمدرسة الوهابية وهو أحد ورثتها عن طريق الآباء والاجداد وقد رضع من ثديها الاصيل وتلقاها بنسختها الأولى غير المنقحة جعله رغم دعوته للاصلاح، وهي دعوى ضبابية غائمة يطلقها أغلب **(المصلحين)** من أمثاله، يرى فيها الطريق الوحيد لتحقيق هذا الاصلاح، رغم أنها العقبة المستعصية في طريقه.

ولكي يمنحها صك البراءة من الجرائم التي ارتكبها معتنقوها، عندما تصاعد العنف من قبلهم إلى حد الاقدام على مواجهة العالم كله ابتداء من ١١ سبتمبر ٢٠١١، فإنه نسب ذلك إلى أخطاء الـ **(بعض)** من هؤلاء... وحاول تسويقها كحركة وحيدة فيها خلاص المسلمين ومستقبلهم الزاهر. وكأن نقدها وتوجيه اللوم إليها باعتبارها السبب المباشر في ثقافة العنف التي ثبتها منذ البداية والتي نلمسها في أدبياتها وكتبها، يعني نقد ولوم الإسلام نفسه مع أن الإسلام لا شأن له بذلك، اللهم إلا النسخة الإسلامية المزورة التي تبنتها الوهابية وورثتها عن الامبراطورية الاموية سيئة الصيت والامبراطوريات **(الإسلامية)** اللاحقة.

لا شك أن التويجري الذي امتلك الشجاعة الكافية للمطالبة بالاصلاح، يرى نفسه على حق عندما يعرض الوهابية كنسخة ناصعة للإسلام كفيلة باصلاح حال المسلمين إلى الابد. فالكمّ المتراكم من الولاء الآبائي والثناء المتوارث على رواد الوهابية الأوائل الذي أصبح أساطير محبوبة ومنسوجة بعناية تأصل في نفوس الاجيال اللاحقة. بل لعل هذه الاجيال اعتقدت أن ما أغدقه باطن الأرض من الخيرات يعود سببه إلى **(بركات)** أولئك الاجداد وأن أي شيء لم يكن ليتحقق إلا بفضل ورعهم وتقواهم وإصرارهم على انتهاج طريق شيخهم الأول الذي أسس لهم

امبراطورية (إسلامية) أخرى تبدو سليمة معافاة ما دامت تزعم أنها على خط الرعاة الاوائل رغم تغير المحيط العالمي ورغم الاحساس المتنامي لدى العديد من أبنائها بأن العافية المظهرية هي أحد مظاهر الموت. . لأن بناءها لم يتم على أيدي أبنائها، وأنها تتخلف في كل مظاهر الحياة بقرون عن العالم وبعقود عن بعض الدول المجاورة. .

إن تراكم الثناء والاعجاب وزج المديح للوهابية من قبل المنتمين إليها والمتربعين على عرش السلطة الدينية والمدنية وتخصيص مؤسسات كاملة مثل جامعة الامام سعود ودار التوحيد والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وإدارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد وهيأة كبار العلماء والمجلس الاعلى للمساجد والمجمع الفقهي والمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي والهيأة العليا للدعوة الإسلامية وعشرات المؤسسات المماثلة التي تحظى بدعم مالي غير محدود، جعل نقد الوهابية أمراً محظوراً. إن لحم اكتاف عشرات الآلاف من المجندين لهذه الدعوة هو من بركاتها لأن مهمتهم الوحيدة هي الترويج لها ونشرها. وإذ أنها كانت سبب رفاههم في هذه الدنيا، فكيف سيتخلون عنها وهي ستقدم لهم رفاهاً أكثر في الآخرة. إن قناعاتهم بها ثابتة لن تتغير. فهم قد ظلوا داخل أسوارهم رافضين لحوار أو الاستماع للآخر المذهبي أو الديني. وقد جعلوا الجميع في خانة الكفر أو الشرك أو الردة أو البدعة وهي الاستجابة لمتطلبات الحياة المتغيرة. فكيف يمكن الحديث والجلوس مع هؤلاء المنبوذين وفق أدبيات المذهب وثوابته الصارمة!

إن واضع هذه الأدبيات ومروجيها لم يكلفوا أنفسهم عناء إخفاء التوجهات الواضحة والعنيفة لتكفير الآخر وإقصائه ويمكن لكل قارىء

لها[١] أن يلمس ذلك ويتأكد من نبرتها التي أريد لها أن تسود إلى ما لا نهاية. فكيف يمكن تبرئة الوهابية من نبرة العنف التي تكفي شحنة صغيرة منها في أي كتاب من كتبه لتفجير الاوضاع ومنع أي تواصل بين المسلمين أو بينهم وبين الآخرين. وقد تكون الاستهانة بعقول الآخرين هي التي تدفع للقول كما يفعل الدكتور التويجري «**إن الوهابية جددت الاصول التي جاء بها الإسلام، وهي جددت روح هذا الدين لكن أخطاء (بعض) المنتمين إلى هذه المدرسة حجبت هذه الحقيقة**». إنه كمن يريد أن يقول: إن الوهابية هي الإسلام على حقيقته وأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب المنزوي في تخوم نجد والمتحصن خلف رمالها البعيدة عن مراكز الحضارة هو وحده الذي اكتشف حقيقة الإسلام وفهم مقاصد وأهداف وسيرة رسوله الكريم ﷺ وأنها ليست معقل الاحادية الأكبر ومفرخة التكفير الأولى التي أنتجت كل هذا العنف والحروب.

لقد بدا التويجري من خلال رؤيته الثابتة للأمور والتي لم تتغير على حد تعبيره مقتنعاً أن «**الذين انتقدوا (بعض) أخطاء من ينتمون إلى هذه المدرسة، عمموا هذه الاخطاء وأعموا عيونهم وبصائرهم عن أصول هذه المدرسة المدونة في كتبها والتي يقول بها أعلامها ولجأوا إلى سطر أو جملة أو عبارة هنا وهناك**» لتعميمها على كل أدبياتها وكل ما جاءت به. إن الالفة الطويلة مع الثقافة الوهابية جعلتها تبدو بنظر معتنقيها المدرسة الأولى للتسامح ونبذ العنف. إن هذه الثقافة الوحيدة والالفة الطويلة حجبت كل ثقافة أخرى وادعت الوصول إلى الحقيقة وطالبت بالاعتراف بها كفرقة وحيدة ناجية لها حق احتكار الجنة ورمي الجميع في نار جهنم.

---

(١) وهي الكتيبات التي ألفها الشيخ المؤسس محمد بن عبد الوهاب مثل (**كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**) و(**كتاب مسائل الجاهلية**) و(**كتاب أصول الإيمان**) و(**كتاب الكبائر**) و(**كتاب مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد**) وغيرها.

إن كل سطر في كتب الشيخ وأقطاب مدرسته لا يحمل إلا هذا التوجه الاقصائي المتحامل والرافض للجميع. وإذا كانت قراءة التويجري لها يجعلها في خانة المقبول بل المطلوب والضروري وهو الذي رضع من ثديها الاصيل، فإن الآخرين الذين حرموا هذه الرضاعة لن يروا فيها إلا نسخة مشوهة للإسلام يراد تسويقها بالعنف والإكراه وبكل وسائل التسويق غير المشروع الذي تعمد إليه المؤسسات الدينية والحاكمة من خلال ضخ عشرات المليارات من الدولارات داخل المملكة وخارجها. وهذا ما لم يغب عن أنظار جميع المتابعين لمسار هذه الحركة والخطوط البيانية لتحركها المتصاعد على امتداد العقود الثلاثة الماضية.

يبدو الدكتور التويجري كمكتشف جديد للوهابية عندما يؤكد أن ما لا يعلمه كثير من الناس ومن أبناء السعودية هو أن الوهابية هي أول حركة تجديدية بامتياز ويعجب من أولئك الذين أعموا عيونهم وبصائرهم عن أصولها المدونة في كتبها.

ومع أنه يحاول عرض بعض اعلام الوهابية المعاصرين له مثل الشيخ عبد العزيز بن باز بأنه من أعلام الدعاة إلى التجديد والانفتاح على المذاهب الاخرى[1]، إلا أنه يقرّ أن غالبية غير الاعلام، أي العوام

(١) هو الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل باز - درس الفقه الوهابي وعين منذ سنة ١٩٣٦ بوظائف مختلفة منها القضاء ورئاسة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة والرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد برتبة وزير وعضوية هيأة كبار العلماء ورئاسة المجلس الاعلى للمساجد ورئاسة المجمع الفقهي وعضو الهيأة العليا للدعوة الإسلامية وغيرها. له مؤلفات تركز على قضايا ومفاهيم سطحية هامشية تعزز الخلاف والتآمر ولا ينسجم بعضها مع العلم مثل (الادلة الحسية على جريان الشمس وسكون الأرض). . وهي توزع مجاناً وتضخ إلى مختلف أنحاء العالم. وتبدو فتاوى مصممة لأناس لا يعيشون على سطح هذا الكوكب مثل (حرمة الاختلاط بأهل الكتاب وحرمة عمل المرأة أو قيادتها السيارة وحرمة الحداد والتمثيل والصور والمجلات المصورة =

وجمهور المنتسبين لهذه المدرسة هم من المتشددين لأنهم، وهنا المفارقة غير المقبولة يجهلون هذه المدرسة وأصولها. ولعل التعليل الصحيح لذلك أن الجميع بما فيهم الاعلام هم طلاب مخلصين لها، تشربوا بأدبياتها وأعلنوا عن قناعتهم بها بممارساتهم العنفية على الأرض وفتاواهم المملوءة بالشحن الطائفي والتحريض على العداوة والقطيعة والنبذ.

○ ○ ○

إن الدكتور الاصلاحي الذي تقدم خطوة واسعة نحو الاصلاح بتشذيب لحيته وربما عدم تقصير ثوبه كما ينبغي والذي لا بد أن قد كواه - خارجاً عن نطاق الممنوعات الوهابية يرى أن الاصلاح يتم فقط عن طريق «**المنهج (العلمي) الذي قامت عليه هذه الحركة التي عادت إلى الأصل، القرآن والسنة**» مع أنه يعترف أن أطروحات الحركات الارهابية المتطرفة ومنها القاعدة قائمة على نصوص مأخوذة من كتب الدعوة الوهابية. غير أنه يبرر ذلك بقيام أناس معلولي الفهم بحرف النص عن مقاصده وغاياته الصحيحة! وهذه ليست مشكلة النص أو صاحب النص، وإنما مشكلة الذي لم يفهم النص ثم التطبيق السيء للنص.

أنه يقدم هنا شهادة براءة للنصوص الوهابية الاصلاحية والمعتدلة في الجزيرة العربية!

○ ○ ○

= أو لبس الساعة للمرأة في فترة العدّة وحرمة بناء المساجد على القبور أو الصلاة فيها وعدم جواز الصلاة وراء المدخّن ومرتدي الملابس العصرية، وحرمة ذهاب المرأة للكوافير.. وقد كفر المسلمين لاسباب تافهة مثل إنكار التجسيم والتشبيه فيما يتعلق بصفات الله ولا يزال يعتقد أن غير الوهابيين من المسلمين يعبدون الاصنام والقبور والجن والاشجار كما كان يفعل مشركو العرب.. إن الشيخ ابن باز يعتبر من أعلام المدرسة الوهابية المتشددين).

لعل مدة الاربعين يوماً التي سجن فيها التويجري عام ١٩٩٢ كانت كافية لتراجعه عن مطالبه بتحديث النظام السياسي والمؤسسات الفكرية والدينية وسن التشريعات التي تناسب المرحلة بإنشاء المؤسسات الدستورية والتنظيمية التي تساعد المجتمع والدولة على القيام بواجبها كما ينبغي. أنه يعود الآن إلى النبرة المتوارثة التي اعتاد عليها في تمجيد المؤسسة الوهابية واعلامها باعتبارها الوحيدة الكفيلة بأحداث الاصلاح المنشود. ولعل تراجعه كان بسبب مساومات مع السلطة خصوصاً وأنه ينتمي لاحدى العائلات المقربة منها.

لم ينس التويجري الاشادة بولاة الأمر وهو مصطلح يعني لدى فئات كثيرة من المسلمين ومنهم الوهابيون، الحكام المتغلبين على الحكم بأية وسيلة، مع أنه قد لا يعني ذلك بنظر الكثير من المسلمين أيضاً.

الحاكم إمام هكذا أسبغ الوهابيون هذه الصفة على حكام آل سعود حتى عبد العزيز. فثوب القداسة ولقب الإمام لا بد أن يتسربل به الحاكم حتى لا تتجاوز عليه الرعية أي أبناء الشعب. ويتعاملوا معه ضمن الضوابط التي نسبت للنبي زوراً بوجوب إطاعته حتى لو كان ظالماً أو فاسقاً غير ملتزم بتعاليم الإسلام وعدم الخروج عليه بل الدعاء له. وهو ضوابط ملفقة ومصطنعة وضعت ايام الحكم الاموي لضمان سكوت الناس عن أية انتهاكات للإسلام من قبل الحكام.

وإذا ما صرح التويجري بأنه ما من إنسان لا يستطيع أن يصل إلى مسؤول، وليس هناك مسؤول يرى أنه فوق البشر «**وإذا وقعت أخطاء من بعض المسؤولين فهي شذوذات تؤكد القاعدة**» فإنه يتحدث عن مدينة فاضلة يتساوى فيها الحاكم بالمحكوم ويسمع فيها كل الشكاوى والنصائح ويحاول تقويم سيرته على أساس كل ذلك.

ربما يرى وهو ابن العائلة الثرية المقربة من السلطة وله أصدقاء من أمرائها ويستطيع أن يتحدث معهم أن جميع أبناء الشعب يستطيعون ذلك. . . ويتناسى الفقراء والمحرومين في المملكة وكل الذين لا يستطيعون الاتصال والتعبير عن آرائهم. . . وربما حسب أنه يتحدث عن أجواء الحرية في بريطانيا أو سويسرا أو غيرها.

الألفة مع الواقع الخانق وأدبيات قرون التخلف على تخوم نجد والجزيرة العربية، تجعل مرور أقل نسمة باردة حالة نعيم وخير دائم. وتوفير قدر ضئيل من (الحرية) ضمن الضوابط المعمول بها والممنوعات التي لا يمكن اختراقها. حتى ليراد لأي فرد أن يشعر بالامتنان للحاكم إذا ما أتاح له استنشاق نسمة هواء واحدة هي حق من حقوقه. فكأن الحاكم هو المتفضل على الناس من دون الله. هكذا ينظر إلى الأمور غالباً في ظل الانظمة الاستبدادية التي تبسط سلطانها بأمر الهي منزّل.

○ ○ ○

السؤال هنا: إذا ما تخلص التويجري، وهو الوهابي إلى النخاع طيلة أيام شبابه ودراسته في دار التوحيد، من وهابيته وأصبح ينظر للأمور من منظار مغاير فهل يستطيع الجهر بأفكاره الجديدة؟

وإذا ما ظل متشبثاً بها - وهو ما يبدو من خطابه - فهل من صحة لمزاعمه بطلب الاصلاح وهو مقيد بقيودها. إن زعم كون الوهابية حركة اصلاحية تنويرية زعم لا تؤيده أية قرنية تاريخية منذ نشوء هذه الحركة القائمة على فعاليات وغزوات وفتاوى غير منضبطة أدت إلى تشتيت وتأخير المجتمعات الواقعة تحت نفوذها.

إن الدعوة للعودة إليها كما لو أننا نعود لمنابع الإسلام الصافية فيه

تعسف كبير وجناية على الإسلام الذي تدعو أدبيات إلى الحوار والتسامح ونبذ العنف.

إن التويجري وأمثاله رغم رفع راية الاصلاح يدورون حول ثوابتهم الوهابية التي رضعوها منذ الطفولة وترسخت في أنفسهم كقيم عظيمة لا يمكن التخلي عنها. إن الحاضنة الوهابية ستظل تنتج أجيالاً ترى في أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب خلاصاً من كل مشكلاتها وطريقاً وحيداً للتقدم والاصلاح، فهل أن هذه الافكار هي كذلك. هذا ما تنفيه هي واستعراض بسيط لها سوف يؤكد لنا ذلك.

○ ○ ○

تمدد الوهابية

يجمع المعنيّون بشؤون الارهاب أن مكافحته لا تتم بالاجراءات الامنية وحدها إذ أنها لا تضمن السلامة بشكل كامل. إن أول خطوة فعالة لذلك تكون بالمواجهة الايديولوجية ومحاربة دوافعه ومسانديه سواء بالتمويل أو الدعاية الاعلامية أو تبريره أو شرعنته.

إن الخلايا التنفيذية تدعمها عادة خلايا مساندة لها امتدادات اجتماعية مؤثرة وقوة مالية كبيرة، كما أن لها حاضنات تتولى حمايتها والتستر عليها أو غض النظر عنها، غير أن أكبر قوة دعم لها تكمن في الفكر الذي يتغذى به أفراد هذه الخلايا التي تقوم بفعاليات العنف الصاعقة والمدمرة.

وإذا ما أمكن رصد هؤلاء عن طريق المراقبة أو الاختراق فكيف يمكن رصد الفكر المتطرف واقتلاعه أو تغييره وكيف يمكن التكهن بحقيقة النوايا والافكار...!

مواجهة أفكار العنف لا تتم عادة بزرع أفكار مضادة بأساليب نسقية تلقينية مألوفة وإنما عن طريق بذر قناعات أخرى قريبة أو مأخوذة عن المدرسة الام، وهي الإسلام، لا عن المدرسة المتفرعة عنه والتي قرأته قراءة مغلوطة لتحقيق أجندات وأهداف خاصة بها وبقادتها. إذ لا يمكن أن ينجح هذه المهمة إلا المسلمون أنفسهم عن طريق الحوار والوثائق والادبيات الإسلامية المشتركة. إذ لو قام بها أحد خارج المنظومة الإسلامية لعدّ ذلك تدخلاً سافراً بشؤون المسلمين بسبب عقد الاختلاف الديني الذي اصّل عداوات موهومة بين الجميع وجعل البعض يتبنى تلك

العداوات على أنها (دين)، ولوقفت المهمة عند حد ناقص بسبب عجز آليات الثقافات غير الإسلامية الاخرى عن استيعاب عموميات الثقافة الإسلامية والدخول في حوار مقنع لكل الاطراف.

كيف يمكن رصد أو منع ثقافات العنف من الانتقال عبر القارات والتسلل إلى العقول المستعدة لتقبلها والايمان بها وتجسيدها في فعاليات إرهابية غير متوقعة. وكيف يمكن كبح رسالة (**الجهاد**) الذي تبنته (**القاعدة**) وخلاياها النائمة والفاعلة دون أن يقوم المسلمون بتوضيح المفاهيم والانفاق عليها ومنع أي انفلات اجتهادي غير قائم على علم أو خلفية معرفية حقيقية بالإسلام. . !

أن أدبيات أغلب الاحزاب الحركية تقوم على تشنج مذهبي مفتعل يكفر الآخر غير المنتمي إليه وكذلك المجتمعات الإسلامية جميعها باعتبارها قد ارتدت إلى قيم جاهلية في حياتها وقوانينها لاتمت للإسلام بصلة. فإذا ما كانت القطيعة مع المسلمين أنفسهم على هذا الاتساع، فكيف ستكون مع الآخر الديني الذي يدين بالإسلام؟

ولا شك أن (**القاعدة**) التي تتبنى الافكار الوهابية الاولى دون تنقيح أو تعديل قد كشفت بعد حرب أفغانستان الاولى ضد السوفييت، شموس كل الحركات الاخرى وبرزت بقائدها الجديد الثري أسامة بن لادن الذي طابت له كهوف تورابورا ورآها بديلاً يوافق مزاجه عن القصور التي ألف العيش فيها. لقد أراد من ذلك أن يكون منقبة مضافة له وعرضت (**القاعدة**) نفسها حركة طليعة تستقطب إهتمام كل المجاهدين في أفغانستان وباكستان والحاضنة الام التي أنتجته السعودية.

لقد حققت الوهابية هدفين مهمين لآل سعود. **الأول** أنها استطاعت أن توفر غطاءً شرعياً لقيام دولتهم. **والثاني** لتعزيز تحالفهم مع الولايات

المتحدة التي جندتهم عن طريق بندر لطرد السوفييت من أفغانستان. وقبل تحقيق هذا الهدف الثاني كانت ورقة رابحة لمناهضة الشيوعية العدو المقلق للاميركان. . .

وكانت أدبياتها المصممة أساساً لتكفير المسلمين وفي مقدمتهم الشيعة باعتبارهم قبوريين لتقديسهم الأضرحة التي تضم رفات الرسول وأهل البيت، كفيلة بالتصدي لثورة ايران والمخاطر التي يحتمل أن تسببها للمملكة والغرب الحليف للشاه وللولايات المتحدة خصوصاً بعد أن وعد آية الله الخميني بتصديرها للعالم الإسلامي واحتلال سفارة الولايات المتحدة التي أسماها بالشيطان الاكبر.

كان لا بد من الضد النوعي لمقاومة تلك الثورة واستنفار التشنج المذهبي الذي رفعت الوهابية لواءه منذ التأسيس. خصوصاً وأن بوادر صحوة إسلامية بدأت تلوح في الأفق. ولم يدخل صدام حسين الحرب ضد ايران دون دعم منها ومن المؤسسة السعودية الحاكمة، ولعلنا أطلعنا على بعض جوانب الدعم غير المحدود له من قبل السعودية ودول الخليج.

○ ○ ○

وإلى هنا أي إلى ما قبل سبتمبر ٢٠٠١ تبدو الوهابية ورقة رابحة يمكن بها التلاعب بمغفلين عن طريق استثارة مشاعرهم الدينية لزجهم في أي حرب ليكونوا وقوداً لها. تجارب الدولة السعودية منذ تأسيسها من قبل الشريكين محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود ثم بعد ذلك، وأيام عبد العزيز بن سعود أكدت هذا الفهم حتى للاميركان الحلفاء، فهؤلاء كانوا حقاً مغفلين لم يستفيدوا من كل الدروس حتى وأن سحقهم عبد العزيز بعد تأسيس دولته وانتفاء حاجته إليهم.

إنهم لم يستفيدوا من الدروس التي دفعوا ثمنها باهظاً وربما يمكن

الاستفادة منهم لتحقيق أجندات المؤسسة السعودية الحاكمة البراغماتية ذات التحالفات الغامضة والتي قد تكون حتى ضد حليف الامس، أي الولايات المتحدة والغرب.

إن الوهابيين لا يزالون كذلك فعلاً لان جانب التعصب والشهوة للتكفير والنبذ ظلا يتحكمان بسلوكهم.

إنهم على العموم - بدوا مفيدين - وربما لحد الآن، لاستخدام في ألاعيب السياسة المعقدة والتي تتجاوز قدراتهم وامكاناتهم الفكرية. وعلى الاقل أنهم يبدون غير ذوي خطر حين تم تعزيز مراكزهم وتقويتها داخل الولايات المتحدة نفسها وأتيحت لهم فرصة كسب المزيد من الانصار والمؤيدين لتوجههم الإسلامي العنيف والشاذ عن أغلب التوجهات الإسلامية المعتدلة.

لقد كان ذلك أشبه بإدخال فايروسات قاتلة في جسم حي. غير أنها سياسة هذا البلد التعددي الذي أتاح الحرية الدينية للجميع وفصلها عن السياسة والحكم.

إن نشاطاتهم المحمومة داخل المراكز الدينية وعبر الفضائيات ومواقع الانترنت وتواصلهم مع الحاضنة الأم أنتج بؤراً منعزلة استطاعت كسب العديد من غير المسلمين في السجون وغيرها. والواقع أن قوة الإسلام وما يشع منه من مبادىء عملية هي التي كسبت هؤلاء رغم إدخال المفاهيم الوهابية فيها. ولم تكن الداخلين في الدين الجديد خلفيات تتيح لهم معرفة الوهابيين معرفة صحيحة.

إن اضافة موظف في كل سفارة سعودية في الخارج ومنها السفارات في الدول الغربية والولايات المتحدة بعنوان (**الملحق الديني**) أسوة بالملحق العسكري أو التجاري أو الثقافي والتربوي اقترن بحملات محمومة ببناء

مساجد ومراكز جديدة لتفعيل الدعوة الوهابية فيها والترويج لها بمختلف الاساليب.

كان ذلك في بداية الثمانينات وحكم فهد بن عبد العزيز الذي أصدر أمراً ملكياً بأن يكون الصرف والانفاق على الدعوة إلى النسخة الوهابية من الإسلام بلا حدود حيث صرف أكثر من ٢٧ مليار دولار لهذا الغرض وهو مبلغ لا يستهان به في تلك الايام. «فخادم الحرمين الشريفين» الذي أطلقه على نفسه تشبهاً بالسلاطين العثمانيين لن يكون وحده كافياً لمحو صورته السابقة ورسم صورة لامعة جديدة له ولا بد من القيام بفعاليات ونشاطات ترضي المؤسسة الوهابية الداعمة رغم مقته الشخصي لها وتحرره منها، ربما بسبب عدم وجود علاقات قربى مع آل عبد الوهاب، ولمزاجه الخاص المتساهل والميال للاستمتاع بمباهج هذه الحياة حتى المحظورة منها من وجهة نظر إسلامية.

إن التشبه بأقطاب الامبراطوريات السابقة مثل الأمويين والعباسيين الذين أبدوا اهتمامهم بالامور المظهرية، وبناء المساجد لكسب ود المسلمين جعله يقدم على هذه الخطوات إضافة لتخصيصه مبالغ طائلة (من **ماله الخاص**) لتوسيع وتطوير الحرمين الشريفين في مكة والمدينة. إن ذلك يكشف عن تمكن وقدرة المؤسسة الوهابية للنفاذ والتحكم في كل مفاصل الحياة ومقدرات المجتمع.

لقد تصرف خطباء المساجد الوهابيون والدعاة في الولايات المتحدة كما لو أنهم في بلدهم الأم، وبدا أمامهم هدف أسلمة المجتمع الاميركي وفق متبنياتهم الصارمة غير المقبولة حتى في الشرق الإسلامي. أصبحوا في الولايات المتحدة كتلة حركية متضامنة متفاعلة تعمل بآليات حزبية ونسق لا يختلف عن ذلك السائد في المملكة.

انتقلت اللحى الكثة والثياب القصيرة إلى شوارع نيويورك وواشنطن وسان فرانسيسكو وديترويت وغيرها من مدن اميركا وبدا أصحابها مسكونين بهواجس هموم الدعوة في بلدهم والمواجهات التي لا يعرف لها أصل ولا سبب إلا نزوات الحكام وتصرفاتهم في البلدان المجاورة. وحسبوا أنهم ما داموا قد استطاعوا اختراق الحدود الجغرافية للدعوة إلى مذهبهم الغاضب، فهم يستطيعون النيل من (**البلد الكافر**) الذي قلب لهم ظهر المجن. .

لقد تحمسوا لاطروحات اسامة بن لادن والظواهري وفقهاء الفضائيات السعوديين وغيرهم كالقرضاوي المشحونة بالعداوة والتحريض المبطن والمكشوف على أعداء الامة الإسلامية من (**اليهود والنصارى**) وأعوانهم من غير الوهابيين! لتكون محصلة ذلك الشحن والتحريض الكارثة المرعبة التي حلت في سبتمبر ٢٠٠١ في مركز التجارة العالمي.

إن الوهابية ومراكزها المنتشرة في الولايات المتحدة مستغلة الحرية الدينية في هذا البلد انتجت الارهابيين التسعة عشر الذين قاموا بهذا العمل المروع. . .

ليس من قبيل التعسف تحميل الافكار الوهابية المتطرفة مسؤولية هذا العمل. بل أن العسف هو الاكتفاء بتحميل القاعدة، مسؤولية ذلك. . وهل القاعدة إلا منتج وهابي بامتياز.

هذا ما ينبغي أن يتساءل عنه أي باحث جاد في مسائل الارهاب، ففيه يكمن حل جميع المعضلات التي اشغلت بال الجميع والتي لا يزالون يتساءلون ويتجادلون بشأنها.

وإذا ما نظر إلى هذه المسألة بعين رجل الامن الذي يحاول تلافي ومنع الخطر الظاهري الملموس واتبعت آليات الردع التقليدية العاجزة لحد الآن إلا عن تجفيف بعض منابع الارهاب الصغيرة، فإن هذه المشكلة ستطوق العالم وتأخذ بتلابيبه إلى مستقبل مجهول.

يبدو لنا ولا نعرف السبب الحقيقي وراء ذلك، أن هناك إهمالاً لمعالجة السبب الحقيقي لفعاليات الارهاب المتفاقمة التي ربما سيشهد العالم المزيد منها. لعل ذلك قد يكون نابعاً من الاعتقاد أن الارهابيين يمكن تذجينهم والسيطرة عليهم في مراحل لاحقة. غير أننا نتساءل: ألا يفكر الارهابيون بذلك ويعملون منذ الآن لتطوير عملهم والتخلص من الاطواق والقيود المحتملة ودخول عالم متطور من العمل يستخدمون فيه اسلحة لا تخطر على بال وبأساليب لا يفكر بها حتى إبليس؟

ألا يمكن إعادة النظر في نوايا الحليف السعودي بعد أن أثبت سجله الحافل بالمتناقضات أن حلفاءه سيكونون ثانية من ضحاياه ولن تكون أحداث نيويورك أو لندن أو مدريد هي الاخيرة.

كيف حصل أن عثرت الولايات المتحدة في فترات متفرقة منذ ٢٠٠٦ على ارهابيين اميركيين ليسوا من دول إسلامية في ميامي وغيرها ضمن خلايا ارهابية؟

أليست رسائل العنف الوهابي التي تلقاها هؤلاء ستكون مخاطرها مماثلة لمخاطر القاعدة؟

ألم تكن وسائل الاتصال تقليدية وعادية أم أنها نتاج متطور للعولمة والتكنولوجيا جعلت شعور الكراهية بفعل وسائلها المتطورة يتنامى ويتضخم إلى حد البحث عن وسائل جديدة للقيام بالمزيد من التفجيرات والاعمال الانتحارية؟

وإذا ما حاول البعض التهوين من مخاطر هؤلاء، فإن الحقائق على الارض وإصرار هؤلاء على استغلال بعض الثغرات والفرص المناسبة للقيام بمزيد الاعمال تجعلنا نشك بنوايا الذين يدعون إلى عدم زيادة الاهتمام

بمكافحة الارهاب. . ولو لتقديم النصائح لتجفيف منابعه ومواجهته ايدلولوجياً.

ولعلنا عرفنا نقطة البداية للقيام بهذا المشروع الكبير دون مواجهات عنفيّة أو إراقة للدماء.

○ ○ ○

لماذا التكفير.. هل هو ضرورة؟

نعم إنه ضرورة من وجهة نظر الوهابيين ووجهة نظر الدولة التي وفروا الشرعية لإقامتها منذ ١٧٤٦م في (**نجد**). الآن الامر نفسه بالنسبة للوهابيين وحدهم، أما بالنسبة للدولة السعودية التي قامت وتمكنت، فربما لم يعد ذلك ضرورياً. بل أن الخطر عليها قد يأتي من الوهابيين أنفسهم الذين تفتحت أعينهم بفعل اتصالهم خلال حوالي خمسة عقود بحركيين إسلاميين من مصر وسوريا قلبوا مفاهيمهم بخصوص الطاعة المطلقة (**لولي الأمر، الحاكم السعودي**) وعدم جواز الخروج عليه، وبصَّروهم بأساليب العمل التنظيمي.

مسألة تكفير المسلمين واتهامهم بالشرك والردة والبدعة وإباحة دمهم وشن الحروب عليهم ليست ترفاً وهابياً غير ضروري دائماً، بل هو حاجة ملحة لتثبيت منهجهم ودينهم. فبدون التكفير ستنتفي الحاجة إليهم ولن يكون بمقدورهم التمدد والنفوذ والسيطرة وإقامة دولة (شرعية). وسيكون حالهم حال المسلمين الآخرين المنتمين إلى مختلف المذاهب والمدارس الإسلامية.

وإذا ما غابت هذه الحقيقة عن أذهان غير المسلمين الذين لم يتعمقوا في دراسة المذاهب والمفاهيم الإسلامية والتأريخ الإسلامي وملابساته، وكذلك عن أذهان غير المعنيين بكل هذه الجوانب، فإن الباحثين المتخصصين من المسلمين قبل غيرهم أدركوا أن الوهابية لا يمكن أن تعيش دون تكفير الآخرين، إذ أن ذلك يبدو كالهواء الذي نتنفسه.

○ ○ ○

إن نظرة بسيطة على تاريخ نشوء الوهابية واستخدامها ورقة لنشوء الدولة السعودية الاولى سنة ١٧٤٦م تثبت لنا أن تلك الدولة ما كانت لتقوم لولا الذرائع الوهابية إذ لم يكن من مبرر أو وسيلة لقيامها لولا تلك الذرائع.

إن النسيج الاجتماعي البدوي القائم على ثقافة الغزو ظل متمسكاً بتلك الثقافة رغم التعاليم الإسلامية التي لا تسمح بذلك. ولم يكن الإسلام هو المتحكم الوحيد في حياة أولئك البدو المحصورين خلف كثبان الرمل الهائلة، بل لعله لم يلامس وجدان أغلبيتهم المسكونة بهواجس الصراع المر مع الآخرين على الماء والمرعى والذين يريدون البقاء على قيد الحياة وإن كان على حساب حياة غيرهم. فأنت في الصحراء إما آكل وإما مأكول وعليك أن تخوض صراعاً دائمياً من أجل البقاء حتى لو اضطررت إلى انتزاع اللقمة من فم جارك مع أنه قد يكون أشد حاجة إليها منك.

لا أحد يهتم بالصحراء، فالواردات التي تنتجها الواحات القليلة وعيون الماء لا تسد رمق سكانها من البشر والحيوانات. وهكذا ظلت بعيدة عن طموحات واهتمامات الحكومات المركزية وحكومات المدن. وظل شيوخها يمثلون السلطة التي تدير شؤونها.

شيخ القبيلة هو أحد أبنائها. يفكر كما يفكرون ويعيش كما يعيشون وعليه أن يبذل جهده ليظل أبناء قبيلته بمنأى عن مخاطر الجوع وغزو قبيلة أخرى مجاورة تسلب طعامهم وحيواناتهم.

في مجتمعات متوحشة كتلك رغم أنها تنتمي للإسلام ظاهرياً وقد تؤدي طقوسه وقد تكون لها بعض العادات والتقاليد البناءة المفيدة، ينعدم القانون ولا بد أن يكون المرء قوياً حتى لا يأكله آخر من جيرانه. عليه أن يغزو حتى لا يغزى وعليه أن يكتسب سمعة جيدة حتى يخيف أعداءه.

ولم يكن مما يخل بمروءة وشرف البدوي إذا ما أقدم على غزو وسرقة جاره، بل أن هذه تعد من المفاخر التي ترتفع بها سمعته. . .

○ ○ ○

إن (الشيوخ)[١] الطموحين يتطلعون لمشيخات أشبه بالامارات من خلال السيطرة على الواحات وبعض البلدات والقرى الصغيرة حولها. وهذا تنتجه لهم القوة العددية لقبائلهم مثل قبيلة شمر وغيرها. فكيف تتاح الفرصة لشيخ مغمور في الدرعية لا يتجاوز عدد أتباعه الفقراء سبعين عائلة يعيشون كلهم في (الدرعية) الواحة الفقيرة وبالكاد يستطيعون سد رمقهم أن يسيطر على ما حوله من البلدات والواحات؟

إن هذه الفرصة النادرة أتيحت له عن طريق شيخ دين آخر طموح للسيطرة والنفوذ، عانى من إحباطات عديدة ولم يستمع إليه أحد من حكام البلدات وشيوخها بسبب آرائه الغريبة عن الإسلام وقد خاض منازعات عديدة حتى مع والده وأخيه بسبب ذلك وقد حط رحاله في نهاية المطاف في الدرعية قرية الشيخ المنبوذ الفقير - لكن الطموح - محمد بن سعود.

استغل محمد بن عبد الوهاب بعض مظاهر التخلف لدى البدو مثل الاعتقاد ببعض الاشجار أو الاحجار أو الاشخاص أو السحرة وما إلى ذلك، وهي ظواهر تبرز لدى بعض أفراد المجتمعات المتخلفة بسبب ظروف الحياة القاسية والابتعاد عن مراكز الحضارة الرئيسية وبسبب الامية والتخلف والفقر وغيرها ونجدها في أغلب المجتمعات التي تمر بمثل تلك الظروف.

---

(١) الشيخ لقب لزعيم القبيلة ورجل الدين وقد سمي به الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسس الوهابية وكذلك شريكه الشيخ محمد بن سعود شيخ القبيلة الصغيرة قبل أن يكون أميراً على الدرعية وما حولها بعد اتساع نفوذه وسلطانه.

إلا أن ابن عبد الوهاب استغل هذا التصرف الذي تقوم به فئة قليلة من الناس والذي يمكن إصلاحه بالنصح والتوجيه ليتهم جميع المسلمين وغالبيتهم العظمى لا تمارس أو تعتقد بما يعتقد به أولئك الناس الفقراء، لاتهامهم جميعاً بالبدعة والشرك والكفر والردة وهي اتهامات عقوبتها الاعدام بالسيف في رأيه. . وحتى يتمكن من توجيه تهمة الشرك والكفر للمجتمع كله فإنه أضاف للممارسات أو الاعتقادات غير الصحيحة - لكن المحدودة - السابقة ممارسة أخرى وهي زيارة قبور النبي وأهل بيته وصحابته وبعض الصالحين والتبرك بهم والاستشفاع والتوسل بهم والاحتفال بذكرى مواليدهم ووفياتهم والصلاة في المساجد المقامة على أضرحتهم، واعتبر هذه الزيارة أشد خطراً من كل الممارسات السابقة باعتبارها شركاً صريحاً وأن من يقومون بها أشد كفراً من عرب الجاهلية **(أي الذين عاشوا قبل الإسلام)**.

وقد بنى آراءه على أحاديث مُدَلَّسة رواها أشخاص كذابون عن الرسول ﷺ. وكان فقيه آخر سبقه بأربعمائة عام قد تبناها وروجها قبل ذلك لمناوئة معارضيه.

○ ○ ○

وهذه قضيته لا بد أن تذكر هنا حتى لأولئك الذين لا يريدون الغوص إلى العمق في تراثنا أو طبيعة مشاكلنا، لأنها أمر محوري استند إليه محمد بن عبد الوهاب لتنفيذ الأمر المحوري الثاني. . .

١ - **المسلمون كلهم** - عدا أتباعه - مشركون وكفرة بسبب اهتمامهم بأضرحة الاولياء والصالحين وشركهم شرك أكبر عقوبته الموت (في شريعة الله) كما استنتج ذلك من قراءة مغلوطة للقرآن والحديث.

٢ - **أنه - هو وأتباعه - ملزمون** بتنفيذ هذه العقوبة الآن في الدنيا وأن لا تُوَكَّل إلى الله لينفذها في الاخرة.

وبذلك فإن ذريعة غزو الآخرين وقتلهم أصبحت دينية مقدسة ليس دافعها المعلن جني المنافع والارباح، وإن كان ذلك هو الدافع الحقيقي للشيخين الطموحين الراغبين في السيطرة والنفوذ.

ولم يعد متعذراً إذا ما كسبا المزيد من الانصار المقتنعين بأفكار الشيخ أن تتشكل قبيلة كبيرة هائلة أو حزب كبير، لا تتمثل رابطة النسب والانتماء فيها بالدم أو القرابة بل بالعقيدة الجديدة التي جاء بها ابن عبد الوهاب باعتبارها علاجاً لكل مشاكل المسلمين وجعل مسألة زيارة الاضرحة المسألة المركزية الاولى التي ينبغي معالجتها والقضاء عليها باعتبارها شركاً وكفراً أكبراً.

وهكذا أصبحت الدرعية معكسراً متقدماً يضم كل المؤمنين بأفكار الشيخ من مختلف قبائل نجد، وأصبحوا عائلة واحدة متضامنة يشعر كل واحد من أفرادها بمسؤوليته تجاه بقائها ونموها والدفاع عنها.

البدو المبهورون بتعاليم الشيخ وهم من الفئة الاقل وعياً معرفة أصبحوا يتطلعون لخير الدنيا والآخرة من مكاسب ثمرات غزو **(الكفار)** في الدنيا والفوز بالحور العين وأنهار الحليب والخمر في الآخرة.

هبّت هُبوب الجنّه وينك أنت يا باغيها... [1]

أصبح نشيدهم المفضل الذي يستقطب كل مناصري الشيخ للحرب ويثير جنونهم لها.

لا شك أنها فكرة عبقرية لاقامة تجمع قبلي تعددي متضامن ومستعد لخوض أشرس المعارك بقيادة الشيخين ليتحقق في النهاية كل ما يحلمان به، بل يتجاوز أحلام شيخ الدرعية الفقير الذي اعتاد استنزاف وابتزاز أفراد

---

(١) أي أن ريح الجنة قد هبت وما على الذي يريد دخولها إلا المشاركة في القتال.

قريته ليظل على قيد الحياة[١].

لم تكن إقامة أول إمارة سعودية فكرة غير مدروسة. فالدين وشعارات (جهاد) (الكفار) والغنائم التي يمكن سلبها منهم والعز والتمكين وملك البلاد والعباد مرهونة بتحقيق أمر واحد وهو (التوحيد) أي التخلي عن أية علاقة روحية مع الرموز الإسلامية المقدسة بزيارتهم أو الاهتمام بمراقدهم ومساجدهم حتى لو كان الرمز المقدس هو رسول الله نفسه. . وهذا بالطبع ما لا يسيغه المسلمون ولن يتخلوا عنه في أي ظرف. . وهكذا فإن مبررات معركة قائمة لن تنتهي ستتيح للوهابيين خوضها وإحراز الغنائم الطائلة منها. وهو ما قاموا به من خلال دوامة المعارك المارائونية المتلاحقة التي خاضوها ضد المسلمين أنفسهم طيلة قرنين ونصف. لأن الذرائع الوهابية لا تزال قائمة لحد الآن وتجد لها قبولاً ورواجاً في أوساط الحركات التنظيمية

---

(١) يروي ابن بشر مؤرخ الدولة السعودية في كتابه: عنوان المجد في تاريخ نجد، ص ١٢ وما بعدها «إن محمد بن سعود رحّب بمحمد بن عبد الوهاب في قريته وبشره بالعز والمنعة، فقال له ابن عبد الوهاب: وأنا أبشرك بالعز والتمكن، وهذه كلمة لا اله إلا الله من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد وهي كلمة التوحيد. . فلما تحقق محمد بن سعود معرفة التوحيد وعلم ما فيه من المصالح الدينية والدنيوية، قال له: يا شيخ إن هذا دين الله ورسوله الذي لا شك فيه، وأبشر بالنصرة لك ولما أمرت به والجهاد لمن خالف التوحيد. ولكن أريد أن أشترط عليك اثنتين:

- نحن إذا قمنا في نصرتك، والجهاد في سبيل الله، وفتح الله لنا ولك البلدان، أخاف أن ترتحل عنا وتستبدل بنا غيرنا.

- والثانية: إن لي على الدرعية قانوناً (ضريبة) آخذه منهم في وقت الثمار، وأخاف أن تقول: لا تأخذ منهم شيئاً.

فقال الشيخ: أما الأولى فأبسط يدك، الدم بالدم والهدم بالهدم.

وأما الثانية، فلعل الله أن يفتح لك الفتوحات، فيعوضك الله من الغنائم ما هو خير منها، فوقع تحقيق ظنه. فإنه أتى إليه غنيمة عظيمة بعد مدة. . .

ثم إن محمد بن سعود بسط يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وإقامة شرائع الإسلام. . .».

الوهابية التي قامت على أساسها التي أسمت نفسها بالسلفية بفعل مليارات الدولارات التي أنفقتها الدولة السعودية خلال العقود السابقة. لاستقطابهم إلى المنهج الوهابي وجعله مرجعية لهم.

وقد لمعت صورة الوهابيين مشاركة (**المجاهدين**) منهم في معارك أفغانستان، وكانت قد ترسخت في الخيال الشعبي صور جميلة لهم في أذهان الاجيال اللاحقة تعرضهم مجاهدين على جمالهم، يخوضون دون خوف معارك خلف محمد بن سعود وأولاده منذ تأسيس الدولة السعودية الأولى في ١٧٤٦ ثم بعد ذلك وعند تأسيس الدولة السعودية الحالية بقيادة عبد العزيز بن سعود قبل مائة عام. وارتسمت صورة (**الاخوان**) الذين خاضوا الحروب معه بوحشية ثم قضى عليهم بعد أن تمردوا وحاولوا القيام بعمليات كر وفر غير منضبطة، كفئة مجاهدة استطاعت تحقيق الاهداف الوهابية بتهديم العمائر والاضرحة والمساجد المقامة على القبور باعتبارها أعظم إنجاز حقق وفق أدبياتهم.

لقد ترسخت صور البطولات (**غير المبررة**) والتي حققت مكاسب كثيرة لآل سعود وحلفائهم من أبناء محمد بن عبد الوهاب والمقربين منهم - في أذهان أجيال لاحقة جعلت منهم مثلاً أعلى ينبغي الاقتداء به.

لقد أصبح (**الآباء الوهابيون**) على حق في كل تصرفاتهم، وبرهنت الوهابية أنها حركة اصلاحية حقاً أعادت الإسلام إلى نقائه الاول! بعد أن تحرر الناس من عبادة الاموات على حد زعمهم. ولا ندري كيف يعبد أحد شخصاً ميتاً وهو يعترف أنّه ميت ولا قدرة ذاتية له على تحقيق أو تقديم أي شيء؟

بجانب هذه (**القضية الكبرى**) التي حسبوا أنهم قد حسموها للأَبد، بدت أمامهم القضايا الاخرى كالحرية الشخصية والتنمية الاجتماعية

وحقوق الإنسان قضايا تافهة، وظلت أفكارهم تدور حول آليات الحياة البدائية التي شهدتها قرون الظلام الاخيرة دون أن يحسوا بحركة الحياة المتطورة والسريعة من حولهم.

كما أنهم حسبوا أنهم يقدمون خدمات كبيرة للعالم إذا ما أعادوه لعصر الكهوف والظلام. وقد يكون سبب ذلك أنهم لم يكونوا المُبناة الواقعيين أو الحقيقيين للمنشآت والمرافق والعمارات، بل أن مظهراً حضارياً جاهزاً قد أعد لهم من قبل فيالق المهندسين والعمال الاجانب ولم يكن عليهم سوى احتلال المدن والبنايات الجاهزة واستخدام السيارات والادوات الحديثة. لم يكن هناك انتماء حقيقي لظاهر هذه الحياة. وربما ظل الحنين يساور بعضهم إلى (بساطة) العيش القديم وربما حسبوا ذلك من مظاهر الدين الحقيقي.

○ ○ ○

ليس لأحد أن يقول للمبهورين (**بإنجازات**) الآباء الذين شخصوا في أذهانهم مثلاً أعلى أنهم كانوا على خطأ وأن معاركهم كانت عبثاً وأنها كانت سبباً في تخلفهم، ولولا البترول لظلوا حفاة عراة لا يحظون حتى بخيمة يستظلون بها. . . فالآلة الاعلامية للدولة والمؤسسة الدينية لا تزال تؤكد لهم أن ما يتحقق لهم بفضل الله إنما هو بسبب تمسكهم بالتوحيد (**الصحيح**) الذي يحارب التواصل مع الرموز الدينية المقدسة ونبذها وتحطيم كل مظاهر (**الشرك**) المتمثلة بالاضرحة. . ولو أن هذه الآلة توقفت عن ضخ مثل هذه الافكار التي تكفر الآخر المسلم، لما كان هناك أي سبب لقيام الوهابية ولنسفت شرعية الدولة القائمة على أساسها ولأدرك الناس حقيقة اللعبة المضللة التي زجت بها الاجيال المغفلة.

إخوان «الاخوان»... مشاريع للخلايا النائمة «إخوان بريدة» و«إخوان نيويورك»

تظل «للاخوان» في المخيال الشعبي لأهل الجزيرة العربية صورتان: الأولى: مثال الرعب والعنف. فالمقاتل منهم يندفع بلا حدود لاكتساح (عدوه)، فدينه قتل العدو وإباحة دمه. فالادب الشعبي في الجزيرة العربية حفل ببكائيات وأناشيد حزينة تحدثت عن الفظائع التي ارتكبها هؤلاء الذين تسلحوا بالبنادق الفتاكة وأفكار شيخهم الأشد فتكاً.. ولن تجد بتياً لم تحط علهي نكبة من نكباتهم.. سمعتهم في ذلك جعلت منهم اسطورة وضرباً من بلاء مطبق كذلك الذي تنزله شياطين الجحيم على الرؤوس.

والثانية: صورة المجاهد المتفاني في عقيدته في (التوحيد) والذي يريد نشرها بحد السيف بعد أن رأى امتناع الكثيرين عن قبولها لعدم اقتناعهم بها.. فالسيف أكثر إنباء من الكتب والاحاديث. فهو باسل لا يعرف الخوف وقد ضمن مسبقاً إحدى الحسنيين: النصر والغنائم أو الجنّة..!

في المخيال الوهابي الموروث يمثل (الاخوان) عصبة مجاهدة لا تقل شأناً عن مجاهدي (بدر).. نشروا (التوحيد) وأذلوا (المشركين) من العرب بعد أن تغلبوا عليهم. صورهم أصبحت الاشد نصاعة وأصبحوا قدوة لمن يريد (الجهاد) في سبيل الله الذي له طريق واحد رسمه لهم شيخهم محمد بن عبد الوهاب. لقد أصبحوا للاجيال اللاحقة (سلفاً صالحاً) معصوماً كالسلف الصالح الاول. وإذ أن لكلمة السلف بريقها الخاص ورنينها الجذاب، فإن من توسموا طريقهم بعد ذلك واندفعوا لتنفيذ العمليات

الانتحارية وغيرها، رأوا أن طريقهم هو الوحيد السالك والموصل للجنّة حتماً لأنه طريق **(الفرقة المنصورة)** **(الناجية)** من دون بقية المسلمين أو أبناء العالم الآخرين.

وهكذا تعززت القناعات بصواب تصرفات من سبقهم من **(الاسلاف)** الاوائل واللاحقين من رفاق محمد بن عبد الوهاب وسعود الكبير، وتولد العزم على اللحاق بهم في طريق **(الجهاد)** والذبح **(على الطريقة الإسلامية = الحلال)**.. خصوصاً بعد الضخ المكثف للتعاليم الوهابية في حملات يومية مستمرة... **(.. وبتوالي الوقت واستمرار الوعظ والتعليم، اعتقد أكثرهم أن من كان خارجاً عن مذهبهم فإنه ليس بمسلم. ولعلهم كانوا يشيرون إلى ذلك في سلامهم بعضهم على بعض: «السلام عليكم يا الاخوان... حيّا الله المسلمين.. وقول بعضهم: أنا خيّال التوحيد، أخو من أطاع الله.. وكذلك نشيدهم: هبّت هبوب الجنة - أين أنت يا باغيها)**[1].

○ ○ ○

تاريخ **(الاخوان)** يشير إلى أنهم مجاميع متعصبة من البدو اعتنقت الوهابية. وقد ارتبطت حركتهم بإنشاء **(هجر)**، مستوطنات أو مجمعات سكنية زراعية ورعوية، سكنوا فيها. وكان لكل قبيلة هجرها الخاصة بها. وقد انشئت عدة مئات منها في مناطق مختلفة بمساعي خاصة من عبد العزيز بن سعود وذلك لتحقيق مشروعه التوسعي الطموح بإقامة امبراطورية على كل أنحاء الجزيرة العربية بمساعدة حلفائه الانكليز الذين كبلوه بمعاهدات وقيود

(١) د. موضي بنت منصور بن عبد العزيز/ الهجر، ونتائجها في عصر الملك عبد العزيز. دار الساقي/ بيروت/ لبنان، ط١، ١٩٩٣ ص ١٠٤ - ١٠٥ عن أمين الريحاني/ ملوك العرب، ج٢ ص ٨١ - ٨٧.

يستطيعون أن يجعلوه بها تابعاً لهم لقاء ما يقدمونه من دعم مادي وعسكري.

إن السابقة التاريخية القريبة، وهي إقامة الدولة الوهابية السعودية الأولى عام ١٧٤٦م اعتبرت تجربة ناجحة بالمقاييس البراغماتية الوهابية. فتلك الدولة لم تكن لتقام لولا الذرائع الدينية التي رفعها الشريكان المؤسسان، والتي داعبت مشاعر البدو الذين اعتادوا الغزو والسلب، وكان جزءاً من موروثهم الثقافي والاجتماعي الذي لا يمت بصلة حقيقية للموروث الإسلامي الديني العام.. وكانت تهمة الشرك ونبذ التوحيد الخالص! وفق رؤية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، التي رُمِيَ بها كل مجتمع الجزيرة مبرراً كافياً لفتح شهية البدو الجياع إلى الخيرات التي ينعم بها جيرانهم سكان البلدات ومزارعي الواحات، وشحنهم في طوابير قتالية مسلحة لاجتياحهم والقضاء عليهم. فالحصول على الغنائم كان وحده مبرراً كافياً لغزواتهم في الماضي. فكيف إذا ما وظف معه المبرر الديني؟ أنه سيكون دون شك المفتاح الذي طالما بحثوا عنه للايغال في الشدة والعنف دون حد ودون أي شعور بالذنب. بل أنه سيكون مبعث سعادة تامة لأولئك الذين لا يجدون على الدوام ما يسد رمقهم طالما أنه أتاح لهم العيش بمستوى أفضل من السابق وأعطاهم وعوداً بغزو جنة الخلد وحدهم دون غيرهم.

لقد كانت تلك التجربة بالمقاييس النفعية والمقاييس الدينية المتداولة وفق الرؤية الوهابية، ناجحة حققت إقامة دولة (**ازدهرت**) في أوقات عديدة وخاصة أيام سعود بن عبد العزيز (**سعود الكبير**)، حفيد الشريك الأول، بعد اجتياح كربلاء سنة ١٨٠٢م ونهب الكنوز الهائلة الموجودة في مسجد الامام الحسين وكذلك كنوز الحجرة النبوية وغيرها. فالازدهار تم عن طريق الغزو لا عن طريق المشاريع الزراعية أو اليدوية البسيطة وغيرها.

فإذا ما كان هذا هو الدين. . وإذا ما كانت شعاراته القضاء على الشرك الموهوم بحجة تعظيم بعض الرموز الدينية الإسلامية الكبيرة وزيارة مراقدها ومساجدها. . فإن من تبنّوا هذه الشعارات وآمنوا بها، تحمسوا لحملات الغزو واعتبروا أنفسهم من المتدينين الحقيقيين.

وإذ أنهم اعتادوا أن يكونوا وقوداً لغزوات غير مضمونة في الماضي، قد لا يعودون منها إلا بالقتل والجراحات أو الهزيمة. . فأية نعمة كبيرة يتيحها لهم الغزو الوهابي المشرعن الذي يبدو أنه مضمون النتائج ويحقق أكبر قدر من الغنائم والوعود بالجنة.

○ ○ ○

لقد كان الهدف الظاهري من توطين البدو في (الهجر) Settlements، أو المستعمرات الصغيرة هو إضعاف النزعة القبلية التي حملهم عليها شظف العيش والتوحد في القفار سعياً وراء الماء والمرعى. . ثم إضعاف نزعة الغزو والتمرد لديهم. غير أننا إذا ما رأينا حرص ابن سعود على نشر التعاليم الوهابية بين هؤلاء المستوطنين الجدد **(الذين تديّنوا وتحضروا، فهاجروا إليها من الجهالة إلى الدين، ومن السلب والنهب إلى الزراعة)**[1] والذين أصبحوا **(إخوانا)** في الله وفق هذه المفاهيم، أدركنا أن السر الرئيسي وراء الاهتمام بهم وتوطينهم وتسليحهم وتدريبهم على الفنون القتالية هو إعدادهم ليكونوا قوة ضاربة مسلحة تحت الطلب متى ما احتاجها السلطان. ولم يكن الغرض الحقيقي هو تعويدهم على حياة المدنية والنظام، وإنما تعبئتهم في كانتونات يشرف عليها رجال الدين الوهابيون المحترفون يقومون بعمليات غسل الادمغة والشحن ليساهموا في المعارك التي كان يخطط لها

(١) المصدر السابق، ص ٧٥.

الملك. فمثلما كانوا بالامس قوة ضاربة لاجداده، أرادهم أن يكونوا كذلك في دولته.. وهي خطة (**مناسبة**) نفذها بمساعدة داعميه الانكليز، ومستشاريه الذين وظفوهم له.

إن ثقافة الغزو والنهب المتأصلة في البدو منذ عشرات الاجيال، والتي اعتادوا أن ينظروا إليها على أنها الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من البقاء على قيد الحياة، ولو على حساب حياة الآخرين، لا يمكن أن تخسر وتتلاشى في مجتمع أغلبيته من هؤلاء البدو (**٧٥٪ من سكان الجزيرة العربية في مطلع القرن الماضي من البدو**).. وكان على من يريد اقتلاع تلك الثقافة أن يجد بديلاً لها من خلال أجيال قادمة، لا من قبل الجيل المعاصر بمجرد توظيف طاقاته بأعمال تعود عليه بنفع مباشر يعوضه عن مكاسبه الضئيلة في التنقل والغزو..

ولا يمكن أن تكون دوافع ابن سعود إلا وقتية بدافع المصلحة واستخدامهم لتنفيذ مشروعه، وليست حضارية أو جذرية للخروج بهم عن واقعهم المتخلف كما زعم بعض المؤرخين السائرين في ركاب الدولة.

لا شك أن أهدافه الحقيقية تكمن في استثمار طاقتهم البدائية المتحفزة لغزوات أكثر ربحاً ونفعاً. فلا أحد كالبدوي تنطلي عليه المظاهر والشعارات الدينية البراقة، ما دامت تحقق له في النهاية مكاسباً وأرباحاً طائلة. وكانت تجربة محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود التي حققت لهم مكاسب هائلة بعد أن جعلت منهم قوة حربية ضاربة مكنتهم من السيطرة على أغلب مناطق الجزيرة العربية ملء ذاكرة عبد العزيز ووجدانه. والدرعية مركز استقطاب وتجمع البدو الأوائل مثال على نجاح التجربة. فهؤلاء البدو لا زالوا دون وطن دائم من أرض مزروعة أو مدنية مبنيّة. فهم مرهونون بما

تجود به السماء وبغفلة جيرانهم الذين يسكنون البلدات والاراضي المزروعة ليتمكنوا من الاغارة عليهم وسلب ممتلكاتهم الهزيلة.

إن حياتهم في مراعي ومزارع وبيوت دائمية أمر لا يراودهم حتى في الاحلام. فقد استسلموا لاقدارهم يجوبون الصحارى والرمال.

لقد بدت تجربة (**الارطاوية**)، المستعمرة الأولى التي دفعت فيها بعض القبائل والفروع للاستيطان والتي حاول عبد العزيز بمساعدة الانكليز إنجاحها بكافة الوسائل، تجربة رائدة ومغرية للآخرين للقبول بالسكن في مستوطنات مماثلة اسميت (**بالهجر**) والتي بعثت مدلولاً دينياً قديماً متداولاً لدى المسلمين الاوائل الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ومن البداوة إلى حواضر ومدن المسلمين. وكانت المساعدات التي قدمها عبد العزيز ذات إغراء خاص لهم لتكرير تجربة (**الارطاوية**) التي أصبحت أشبه بمدينة مقدسة بفعل ايحاءات رجال الدين الوهابيين. فقد أقيمت عشرات الهجر المشابهة في بعض مناطق الجزيرة.

لقد قامت مجاميع كبيرة من دعاة دينيين (**مطوّعين**) وغيرهم من رجال الدين بشحن سكان هذه الهجر التي تشبه أخويات دينية متضامنة بأفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي تدعو للعنف. وقد حاولوا رسم صور خاصة لسكان الهجر كفئات خاصة أشبه بصحابة الرسول، في محاولات لارضاء غرورهم البدائي. وتوقعوا - بإيحاء مدروس - أن على أيديهم سيتم تحرير جزيرة العرب من (**المشركين**) وأنهم جنود الله الذين يعتمد عليهم (الامام) عبد العزيز لتنفيذ حلمهم بإعادة دولة الإسلام العربية القوية الأولى إلى سابق عهدها بعيداً عن تسلط العثمانيين الاغراب الكفرة الذين حاربوا أفكار شيخهم.

لقد ساعدت وتيرة الشحن الديني اليومي بأساليبه النسقية التلقينية

والقائم على مدار الساعة بعد كل صلاة على اثارة أقصى وتائر الحماس لدى هؤلاء البدو وجعلهم يعتقدون أنهم جند الله حقاً وأنهم سيعيدون عصر الخلافة القديم بعد أن يطهروا الارض من المشركين الذين هم بنظرهم، كل المسلمين الذين لا يتبنّون أفكار شيخهم.

○ ○ ○

إن البدو العاديين - الذين لا ينطلقون من أساس ديني - عندما يخوضون حروباً وغزوات، فإن دافعهم الاول هو الحصول على الغنائم والمنهوبات والهروب بها لأنهم لا يحملون قضية خاصة كبرى يدافعون عنها. لذلك فإن تجنيدهم على أساس المنفعة وحدها يعد مجازفة كبيرة. لانهم قد ينقلبون على من يجندهم وقد يشاركون بسلب أسلحته وممتلكاته إذا ما دارت الدائرة عليه باعتبار أنهم أولى بها من الطرف الآخر الذي يحاربونه.

وكان لا بد من تحميلهم قضية مقدسة حتى يندفعوا للقتال ببسالة.. ولن تكون تلك القضية الا دينية تداعب مشاعرهم وتستميلهم بشعاراتها الظاهرية.

وهنا، فإن (**الهجر**) كانت تبدو حلاً نموذجياً لكسب البدو (**الغدّارين المتقلبين النهابين**).

(مما يجدر ذكره أن الملك عبد العزيز كان يعتمد في بداية أمره على جيش مؤلف من القبائل البدوية، وكثيراً ما كان يعاني من تقلباتهم وقلة ولائهم له. فكانوا يلتحقون به عندما يرونه قوياً منتصراً، وينفضون عنه حين تبدو عليه بعض امارات الضعف والهزيمة..

اعتاد البدو أن يتهافتوا على الالتحاق بكل حركة تنشأ بينهم حين يتوقعون أن ينالوا بها النصر والغنيمة.

المظنون أن هذا التقلب قد حدث، قليلاً أو كثيراً أثناء الحركات الوهابية التي ظهرت في بادية العرب منذ منتصف القرن الثامن عشر. فقد كانت هذه الحركات في مد وجزر، مرة بعد أخرى. تنتصر تارة وتنخذل تارة أخرى. ويخيل الي أن القبائل البدوية كانت تلتحق بها أثناء انتصارها وتنفض عنها أثناء انخذالها...)[١]

إن مخاوف عبد العزيز لها ما يبررها. وكانت الطريقة الاسلم هي في توظيف الوهابية التي لها جذور في المجتمع البدوي لتترسخ لديهم قناعات ثابتة بها تجعلهم يدافعون عنها دفاعهم عن أنفسهم. خصوصاً إذا ما بدت لهم واعدة بتحقيق كل ما يطمحون إليه من غنائم ومكاسب.

إن تأثير (الهجر) سيكون مزدوجاً:

١ - لأنه سيعزّز انتماءهم لأرض **(وطن)** يستقرون فيه ويرغبون في الرجوع إليه بعد المعارك والاستقرار فيه والدفاع عنه.

٢ - يتيح الاستقرار تحصيل **(الدروس)**، ولو أنها لن تكون نظامية وإنما تتم بطريقية تلقينية جوفاء لبعض المفاهيم وبعض آيات القرآن تفسر بشكل عشوائي انتقائي لاثبات شرك وكفر الآخرين والحث على غزوهم وقتالهم[٢].

كما أن الامية الغالبة لا تتيح الحفظ السليم وإنما الترديد الببغائي

---

(١) د. علي الوردي/ دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) يذكر أمين الريحاني أن الداعي إلى الهجرة **(جمعها هجر)** ثلاثة أمور: **تعليم البدو الدين، ونفعهم بأرض يحرثونها، والاستيلاء عليهم (أي احتواؤهم)**.. تاريخ نجد الحديث/ دار الجيل/ بيروت ط ٦، ١٩٨٨، ص ٢٦١ ويقول: **(لم تقتل الهجر في أهلها غريزة الغزو ولا أضعفتها بل شحذتها في سبيل الله وقيدتها بشروط تختص بتقسيم الغنائم..)**، ص٢٦٣، وفيه إشارة واضحة إلى استثمار نزعة الغزو لدى البدو وتوظيفها لصالح الملك.

المتعثر على أن عملية الشحن هذه ستكون يومية مبرمجة لضخ القناعات الوهابية حتى بدون فهمها. لأن أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب ملتوية تلتبس على البسطاء من الناس ولا يمكن ردها إلا بواسطة أناس ذوي تعليم ديني جيد قائم على أصول متداولة لا على أساس تفسير كيفي للقرآن. لقد أتاحت الهجر الفرصة للبدوي المتنقل أن يكون جليس مدرسة أو جامع كما فعل محمد بن عبد الوهاب في مراحل الشحن الأولى لدعوته في الدرعية عندما جعلها (**مدرسة**) يلقن فيها أتباعه مبادىء الدعوة الوهابية. وكانت تلك طريقته المثلى للسيطرة عليهم وتوجيههم.

○ ○ ○

وهكذا ارتسمت صورة المجاهد المثالي المتفاني في الإسلام والمدافع عن عقيدة التوحيد في أذهان الابناء وأبنائهم عن أولئك الآباء النموذجيين من (**الاخوان**).. وحرصت ريشات عديدة لكتاب متعاقبين على تزويق وتحسين تلك الصورة وعرضها كأثر نادر وظاهرة مجيدة. وظل التطلع إليها بشكل مستمر إحدى الهوايات المحبّبة للاحفاد المولعين بذكر مناقب الاجداد.

ولا شك أن عبد العزيز بن سعود كان يخطط بمكر وهو يعد العدة لإقامة مملكة وراثية جديدة على غرار الممالك القديمة، عندما وضع أمامهم هدفاً (**مقدساً**) وحيداً وهو القضاء على (**الكفار**) و(**المشركين**) في جزيرة العرب، وهم في قاموسهم جميع أهل الجزيرة العربية الذين لم ينتموا للوهابية وظلوا متمسكين بمذاهبهم وعقائدهم. وكان الامر يستدعي تصعيد وتائر التعصب والشحن الطائفي لدى الاخوان ضدهم لجعل الهدف المقدس متمثلاً في حرب مقدسة بعد أن جندت المؤسسة الوهابية الاف

(العلماء) و(المبلغين) و(الدعاة) و(المطوّعين) لشحن جنود المستقبل بالافكار الوهابية في دورات مركّزة متتابعة حتى أصبحت من ثوابتهم العقيدية التي لم يتزحزحوا عنها بعد أن ترسخت في وجدانهم.

ولا شك أنهم كانوا يصدقون كل ما يقال لهم عن التوحيد برؤيته الوهابية وضلال وكفر من لا يؤمن بها، حتى اعتبروهم أعداء شخصيين لهم. ولعل ما يروى عن ولعهم بالوضوء بدماء اولئك (المارقين) وخصوصاً (الشيعة)، وأنه سبيل مضمون لقبول الصلاة ودخول الجنة، له ما يبرره بنظرهم، وإن استهجنه الآخرون، واعتبره البعض غير واقعي، وهو إنما يذكر في معرض السجالات الاعلامية التي تريد الانتقاص من الوهابيين.

إلا أن مشاهدات حقيقية وروايات تاريخية مؤكدة لشهود عيان أثبتت وقوع ذلك فعلاً، يؤيده المزاج النفسي والوجداني لأولئك المتعصبين الذين انغمروا في دوامة العنف ورأوه السبيل الامثل للتغيير.

وإذ أنهم كانوا مصدقين لكل ما يقال لهم، وربما كانوا (صادقين) مع أنفسهم ومعتقداتهم، وإن كانوا مضللين فإنّ بعض ممارسات عبد العزيز كاستعمال السيارة والبكروفون والتلغراف بدت في نظرهم أموراً مستنكرة ومدعاة للنقد والتوبيخ. فكيف يعمد (إمام المسلمين) إلى استعمال أساليب ووسائل الكفار! وكيف يستضيف بعضهم ويختلي بهم ويشاورهم ويأخذ الاموال منهم! أما عبد العزيز فكان بدوره يلجأ إلى وسائل أخرى لاسترضائهم بصواب مواقفه كأن يذيع بعض فقرات من القرآن الكريم عبر التلغراف لاقناعهم أنه إسلامي لم تدخله الجن، وإن المستشارين الانكليز قد اسلموا أو أنهم كانوا يدفعون له (الجزية) نيابة عن الانكليز المساكين المدحورين وقد اعترفوا به ولياً لأمر جميع سكان العالم. وما كان بوسعه

أن يفعل غير ذلك لاسكاتهم وهو خبير بمستواهم المعرفي المتدني إذ لم يطلعوا على ما اطلع هو عليه من منجزات حضارية أصبحت شائعة إلا في تلك المناطق المنعزلة.

لقد استفاد منهم إلى حد كبير في حملاته الماراثونية ضد أبناء الجزيرة وجيرانه الآخرين، وفي صراعه ضد خصمه اللدود شريف مكة، ودخل مرحلة جديدة استتبت له فيها الامور وأصبح يملك بعض الاسلحة المتطورة وصار بإمكانه الاعتماد على التدخل المباشر من قبل شركائه الانكليز الذين يستعملون طائرات حربية وعربات مصفحة ومدافع وغيرها.

ولأن ظاهرة الاخوان قد تضخمت واستفحلت وأنذرت بمشاكل لا يمكن حلها بالحوار أو التفاهم فإن القضاء عليهم كان يبدو الوسيلة الوحيدة ليأمن شرهم.. وهكذا كان الامر في معركة (سبلا) معهم سنة **١٩٢٦** عندما لم ينصاعوا له وأصروا على خطابهم التحاربي المتأزم.

أدبيات وتواريخ وكتابات الدولة السعودية تحدثت عن تمرد هؤلاء الاخوان وتناقض خطابهم الديني مع الخطاب السياسي للدولة وخروجهم على **(ولي الامر)** واستمرار عدوانهم غير المبرر على الآخرين **(الذي كان أول الامر مبرراً!)** الخ. إن هذه الادبيات أعطت لابن سعود المبررات **(الشرعية)** لضربهم. وهذا ما حصل فعلاً، كما تحدثت وقائع التاريخ عن ذلك.. وبعد مضي عدة عقود، وبعد أن لم يعودوا منافسين حقيقيين للسلطة، لم تجد تلك الادبيات ضيراً في تحسين صورهم وعرضهم كمجاهدين حقيقيين شاركوا بإرساء دعائم الدولة السعودية القائمة. وربما وظف ذلك كرصيد اضافي داعم لنظام الحكم ومثبت لشرعيته التي حظيت بمباركة الجميع بما فيهم الاخوان الذين اخطأوا وتجاوزوا حدودهم مع ولي الامر.. غير أنهم يبقون فئة متدينة ذات مناقب عالية ينبغي الاعتراف

والاحتفاء والاشادة بها كجهة فعالة في بناء الدولة السعودية. وهكذا رسمت صورتهم الجديدة بعد أن أصبحوا من الماضي الغابر. ولم يجد من تسلموا السلطة من أبناء عبد العزيز فيهم منافسين أو خصوماً، فشخصوا في المخيال الوهابي أو المتوهب بالاكراه أشخاصاً مثاليين لا يقلون مكانة عن صحابة الرسول محمد ﷺ، أو كما يقول منصور النقيدان (. . **هم الاوفياء والخلّص والامناء على امتداد المذهب الوهابي**)[1]. . وقد ترسخت هذه الصورة الجميلة في الاذهان وأصبحت حقيقة. وأبناء أولئك (**المجاهدين الابطال**) يروق لهم على الدوام الحديث عن آبائهم الذين حققوا كل ذلك المجد وكل تلك الملاحم والغزوات.

وحتى لا تغيب ظاهرتهم المجيدة فينطمس الإسلام. . فقد فكرت مجاميع من (**الجهاديين**) الاحفاد بإعادة تجربتهم بمسميات تلامس المشاعر الوهابية المختزنة.

إن (**إخوان بريدة**) هو مسمّى لاحد المجاميع أو الهجر أو الأخويات الدينية المتعصبة التي ضمت تلاميذ المشايخ آل سليم (**الذين كانوا أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بريدة عاصمة القصيم**)، لقد أعطيت هذا الاسم اسوة ببقية مئات الهجر التي وزعت في مختلف مناطق نجد لاستقطاب البدو وتجنيدهم في معارك ابن سعود مثل اخوان الارطاوية التي كان يتزعمها عبد العزيز الدويش وهجرة الصرار التي كان أميرها حزام بن حثلين أو اللهيفية التي كانت بزعامة آل جبرين. . .

ومعلوم أن القبائل قد وزعت حسب وجودها الجغرافي على هذه

(١) منصور النقيدان، متطرف وهابي سابق - في مقابلة على قناة العربية في ١٥/ ٩/ ٢٠٠٤.

الهجر. ولم تستثن من ذلك قبيلة. إن عدد من جندوا في الهجر (المجاهدين) فقط سنة ١٩٢٦ بلغ ٧٦٥٠٠[١] وهو عدد لا يستهان به كقوة ضاربة متحدة تضاف إلى الجيش النظامي والمرتزقة والخبراء والمستشارين الانكليز وغيرهم.

ولن نتعرض لبيان سردي مفصل عن هذه الهجر، غير أننا نتحدث عنها بالشكل الذي يتيح الفرصة لاطلاع القارىء على ما كانت تشكله من صور جميلة في المخيال الشعبي العام عن الاجداد الذي سكنوا هذه الهجر وأداروا أمورهم بكفاءة. ثم شاركوا (ببسالة) في المعارك والغزوات ضد (الكفار)، فمنهم من (استشهد)، ومنهم من حصل على غنائم وفيرة من العدو. انها صورة ناصعة لأجداد شجعان لم يترددوا في خوض أي حرب ولم يهربوا، لأن دافعهم كان الدفاع عن توحيد شيخهم الوهابي ومثلهم الاعلى، الذي كان على حق دائماً طالما أن كل هذا العدد من الاجداد والآباء كانوا تحت رايته وراية أفكاره وعقيدته.

وإذ أن التديّن نزعة فطرية لدى عموم الناس، فلا بد أنهم يسعون للتعبير عنه بفعاليات وطقوس وممارسات عديدة قد يبدو بعضها متناقضاً حتى داخل الدين الواحد، غير أنها تمثل الحقيقة والطريق الاصوب بنظر كل منهم. ولن يكون معتنقو الوهابية حالة شاذة عن ذلك، وإن كانت الوهابية هي الشذوذ الواضح عن كل المذاهب الإسلامية التي تعارف المسلمون عليها.

إن وتيرة الشحن المذهبي المعادي للآخرين التي حاول الدعاة الوهابيون دائماً تصعيدها عن طريق التلقين النسقي المكرور والدائم لافكار الشيخ باعتبارها خلاصة الافكار الاصلاحية بغير كلل أو تهاون جعلت

(١) تاريخ نجد الحديث/ مصدر سابق، ص ٤٥٦.

أتباعهم دائماً غير قادرين على التقاط أنفاسهم لمراجعة هذه الافكار ناهيك عن انعدام الفرصة للاطلاع على أفكار وأطروحات المذاهب الإسلامية الاخرى وآراءها حول مختلف مناحي الحياة وانعدام التواصل معها. فهناك سور حديدي بينهم وبين الآخرين لا مجال فيه لأية ثغرة يستطيع أحد النفاذ منها. وكيف تتاح الفرصة لبدو معزولين ضمن جدران مذهبية واعراف قبلية متأصلة أن ينظروا بتسامح إلى غيرهم ويقدموا على الحوار معهم بروح طالب العلم الحقيقي[١].

إن تصعيد وتائر الشحن المعادي للآخرين بمختلف الاساليب هو الذي أتاح للوهابيين دائماً كسب الاتباع واحتجازهم داخل دائرتهم وأدائهم غير المنضبط. وقد أعلنوا أن من حق أي أحد أن (يجتهد) وفق فهمه لنصوص القرآن الكريم (ليطبّق) حدّ (الشريعة) بنفسه وينفذ (القصاص العادل)

(١) يقول أمين الريحاني وهو مقرب من عبد العزيز بن سعود واحد مستشاريه: «. . . إن هناك الفكرة الدينية. . فالهجرة ترك الوطن الذي بين الكفار والانتقال إلى دار الإسلام. أما وطن البدو فالبادية، والبادية مهد الشرك، فالهجرة منها هي الهجرة لله والتوحيد. وهي كذلك هجرة مدنية. . باشر ابن مسعود إصلاحه الكبير بالوسائل الدينية، فكان يرسل المطاوعة إلى البادية ليعلموا أهلها دين التوحيد والفرائض ويزينوا لهم هجر ما هم فيه. . وقد استخدم القوة المدنية فكان السيف يتقدم المطوع. . تجاوز التطور في البدو حده الديني، فصاروا يهجرون ما هم فيه ليس إلى الله والتوحيد فقط، بل إلى الشريعة والنظام وطاعة الحكام. . فجاء ابن سعود بالعلماء بالتاريخ وبأخبار السلف فسلحوا بها المطاوعة. . وقد أفلحوا في تحبيب العمل والمال إلى الاخوان. . على أن الزراعة والتجارة لم تضعف في الاخوان روح القتال، بل علمتهم فوق شجاعتهم شجاعة جديدة لا تعرف الخوف ولا تهاب الموت. . إنهم اليوم لا يشردون ولا يتراجعون. . أنهم يحاربون حباً بالاستشهاد والجنة وحباً بالمحافظة على ما يملكون صاروا يخافون النار ويخشون عاقبة الفرارة. لم تقتل الهجر في أهلها غريزة الغزو ولا أضعفتها، بل شحذتها فرد سبيل الله وقيدتها بشروط تختص بتقسيم الغنائم. . وينقل عن عبد العزيز قوله فيهم: «فالبادية المتحضرون أهل الهجر هم في القتال أثبت من الحاضرة وأسبق إلى الاستشهاد» تاريخ نجد ٢٦١ - ٢٦٤.

باعدائهم، حتى وإن لم تتح له فرصة التعلم والتفقه في الدين أو على الاقل في علوم اللغة العربية. وقد صار بإمكان المبتدئين بل وحتى غير الدارسين أن يكونوا (مفتين) (مخولين) من الذات الالهية مباشرة، وأن يقودوا فيما بعد كتائب قتالية أو خلايا نائمة أو تنظيمات حزبية جهادية تأخذ على عاتقها مهمة تغيير المجتمعات وفق رؤيتها حتى ولو اقتضى الأمر تدميرها أو نسفها.. ولن تعوزهم دائماً نسخة من القرآن الكريم يختارون من نصوصها ما يشاؤون ليصدروا أحكامهم وفتاواهم ضدَّ الآخرين.

○ ○ ○

(الاخوان) ؛ (إخوة التوحيد) أو (المطاوعة) في عهد عبد العزيز بن سعود؛ اعتبروا من قبل ابنائهم الآن، الأوفياء والخلّص والامناء للتجربة الوهابية[١]. ولا يزال هؤلاء يرون فيهم نموذجاً (لصحابة) جدد، ونخبة متميزة حملت الإسلام بإخلاص مع أنهم خرجوا على (ولي الامر = عبد العزيز)، إلا أنهم برروا ذلك الخروج على أنه حماسي غير مدروس ولم يقوموا به بنية سيئة. لقد كاد هؤلاء أن يقضوا على حكومته الناشئةِ، فلم ير بداً من حصد رؤوسهم حتى يضمن الحفاظ على رأسه ورؤوس جماعته.. غير أنه أيضاً لم يكن حاقداً عليهم - هكذا تحدث مؤرخو وكتّاب سيرته - فجهلهم هو الذي كان يثير حفيظته، والحفاظ على الكل أهم بنظره من الحفاظ على الجزء المريض والذي قد ينقل المرض بدوره للآخرين..

هذه دوافع ابن سعود - كما روي لنا فيما بعد - فإنه أبقى على الصورة

(١) الملاحظ أن أتباع الخط الوهابي (المتشددين والمعتدلين والمتسامحين) ينظرون إلى التجربة الوهابية على أنها خلاصة للإسلام الصحيح وأن ما يقوم به بعض المنتمين إليها من أعمال عنف وانتهاكات فظيعة مردّة إلى هؤلاء لأن العيب فيهم. ويبرئون الوهابية منها مع أن العيب الرئيسي في هذه التجربة وصاحبها.

الناصعة للاخوان بعد ذهابهم. لأن وقوفهم معه (أثبت) وعزّز شرعية وجوده، ولأنهم لم يعودوا يشكلون أي خطر عليه لأن من تبقّى منهم روّض على تقبّل الطاعة للسلطان، الذي هو على حد تعبير الاخوان الجدد ومنهم منصور النقيدان (**الليبرالي التائب**)، (**مَن ولاّه الله أمرهم من آل سعود ومن الاسرة المالكة**). . فقد ظل (**الاخوان**) الاوائل (**حَملَةً أصليين للفكر الوهابي الذي استمدت منه العائلة المالكة شرعيتها**).

ولم يكن آل سعود قد اخترعوا وحدهم توظيف مسألة إطاعة السلطان (**ولي الامر = الخليفة = أمير المؤمنين. . . الخ**)، بل أن سلاسل الحكم الوراثية المتعاقبة منذ الامويين قد رسخّت هذه المسألة من خلال وضع أحاديث عديدة على لسان الرسول ﷺ. وكانت التبريرات الواردة في هذه الاحاديث المزيّفة قطعاً تستند إلى أن الخروج على الحاكم (**حتى وإن كان ظالماً مستبداً أو فاسقاً**) تسبب القتال والهرج والفساد، وما على المسلمين - إذا ما كانوا مؤمنين حقاً - الا تحمّل أخطائه بل خطيئاته وانحرافاته، وإذا اتيحت لهم فرصة نصيحته بأدب وهدوء وبسريّة تامة فعلوا، وإذا لم يتح لهم ذلك صبروا إلى أن يأخذه الله ويقوم بمحاسبته ولو استغرق ذلك قرناً من الظلم والانتهاكات.

وإذا ما ظهرت أية أخوية أو منظمة دينية تلتزم بهذا المفهوم، فإن ظهورها لا يشكل أي خطر على سلطان الدولة ما دامت قد تعهدت بدافع (**ديني**) بالسكوت عن انتهاكاتها وأن لا تمارس أي نقد علني ضدها حتى وأن انحرفت أو جارت.

إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان مدافعاً أميناً عن فكرة الطاعة المطلقة للسلطان (**ولي الامر**). وكان شريكاً لأحد السلاطين الجدد (**محمد بن سعود**)، ثم لابنه عبد العزيز بن محمد. وإذ أن أعضاء الاخويات أو

التنظيمات الجديدة المتطرفة مثل (**اخوان بريدة**)، يدينون بأفكار الشيخ وعقائده، وينظرون إليه بتقديس واحترام مبالغ فيهما، فإنهم لا يختلفون بذلك عن الدولة بوضعه رمزاً مقدساً لا تجوز مناقشة تعاليمه ناهيك عن الخروج عليها.

ومع أن (**اخوان بريدة**) الجدد، وغيرهم أيضاً، يدّعون أنهم غير تكفيريين، إلا أنهم أوفياء لمنهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب! وهل منهج الشيخ غير تكفير المسلمين؟! فكيف حصل أن اجتاح الجزيرة العربية والعراق وغيرهما وسفك دماء عشرات الالاف من أبنائها، لولا أنه لم يسلط سيف التكفير والشرك والاتهام بالردة وعبادة الاوثان والاعتقاد بكرامات النبي وأهل بيته وغير ذلك مما اعتبره ذريعة لنشاطاته التدميرية.

وإذ أن المجتمعات الإنسانية بأجمعها ومنها المجتمعات الإسلامية تدين العنف، فلا يجد هؤلاء مندوحة من الادعاء بأنهم بعيدون عن العنف أيضاً. وقد دأبوا على التصريح بذلك باستمرار (**وربما كانوا يقصدون أنهم لا يفكرون باللجوء إلى العنف ضد دولتهم هم وحسب لا ضد الاخرين**). إذ أن مدونات الشيخ وأدبيات منهجه وتاريخه تشير كلها إلى اعتماد العنف وسيلة أولى للدعوة والردع لمن اعتبرتهم كفاراً وأعداء، وهم جميع أبناء المذاهب الإسلامية الذين لا ينتمون إلى مذهبهم.

○ ○ ○

يقول (**منصور النقيدان**) (**المتحول من الفكر المتشدد إلى الفكر الليبرالي**) عن (**اخوان بريدة**): «هو مسمّى اقليمي يخص مجموعة لا تعدو أن تكون سوى امتداد للاخوان الذين كانوا يشكلون المطاوعة في عهد الملك عبد العزيز والذين هم أنصاره.. يعبّر عنهم أنهم الاوفياء والخلّص والامناء على امتداد المذهب الوهابي.. وكانوا عبارة عن تلاميذ للمشايخ

آل سليم الذين كانوا أكثر أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بريدة عاصمة اقليم القصيم. غير أن كثيراً من أفكار اخوان بريدة تتقاطع مع أفكار الاخوان البدو الاوائل وتتفق مع بعضها». .

إخوان بريدة - يقول منصور النقيدان - هم (**المطاوعة أو النوّاب**) وهي التسمية المحلية لهم. يحملون الولاء للحكومة السعودية، ولاة الامر؛ الطاعة لمن ولاّه الله أمرهم من آل سعود ومن الاسرة المالكة! وهم يتبنون بعمق مذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب إضافة لكثير من الافكار. هم ليسوا تكفيريين، ولا يعدون أن يكونوا متفقين تماماً مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. . أوفياء لمنهجه. . غير أنهم يتبنون الافكار الاكثر راديكالية، إلا أنهم بعيدون عن العنف.

يعترف منصور النقيدان بأن اخوان بريدة يركبون الخيول، يحرمون السيارات، يسكنون في بيوت الطين، لا يرون جواز استخدام الكهرباء، ووسائل المواصلات.

هم يؤمنون بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب يحمل دعوة فكرية اصلاحية. . تحمل الإسلام النقي الخالص. .

وأن (**ولاة الامر**) الذين يتولون حكمهم من أسرة آل سعود تجب طاعتهم في طاعة الله ويجب مخالفتهم في معصية الله شأن الفكر السلفي بعامّه وشأن مذهب السلف الصالح من ما قبل عصر الامام أحمد من حنبل إلى عصرنا هذا! وهم يتمتعون بنزعة انعزالية وأكثر انكفاء وأكثر تصوفاً. . وهذه الرؤية كانت موجودة لدى كثير من أئمة المتقدمين من السلف، وهو: أن المؤمن في عصر الفتن عليه أن يعتزل الفتن وأن يكون بعيداً عن مواطن الشبهات.

أنهم - يقول منصور النقيدان - يعتقدون أن العلم الحقيقي هو العلم

الشرعي، وطلب العلم (**يجب أن يكون**) من الكتاب والسنّة، ومن تراث السلف الصالح، وأنه لا بد أن يتلقى عبر المسجد، وبالتالي كان لهم ردة فعل تجاه المدارس النظامية إلى حد تحريمها باعتبار أن الطريقة التي يتم بها التعليم النظامي تابعة إلى كثير من المخالفات الشرعية.. ربما كان عددهم يتجاوز ٢٠٠ - ٣٠٠ ما قبل عام ٨٥ - ٨٦.. وكان لهم مدارس خاصة منها المدرسة العلمية الاهلية في بريدة لم تكن تخضع لوزارة المعارف، كانوا هم يضعون مناهجها المستقاة من الكتاب والسنة وكتب التفسير المعتمدة لديهم من ابن كثير أو ابن جرير الطبري أو البغوي أو من عداه من كتب ابن تيمية وابن القيّم.. حتى كانت لديهم جغرافيا أيضاً ومادة التاريخ تختلف عن جغرافيا المدارس.. وهم يعتقدون أن من أكثر المآخذ على مادة الجغرافيا في المدارس هو ما يذكر في نهاية كل فصل أو في كل مادة من أن تربط مثلاً المملكة السعودية بدولة البرازيل، بأميركا، بالصين علاقات ودية.. باعتقادهم أن العلاقة التي تحكم المسلمين مع غيرهم هي علاقة البراء (**المعاداة**)، وهذا مفهوم لديهم أتى من تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب مما ركز عليه أهل السنة والجماعة!

ويعترف النقيدان أن عندهم مشكلة مع دوران الشمس وكروية الارض في مؤلفاتهم.. بمعنى أنها المرتكز الذي يعتمد عليه هو الولاء والبراء، العزلة والانكفاء، الهجرة إلى الله، والهجرة إلى الله تعتمد أحياناً الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، من بلد المعصية إلى بلد الطاعة.. الهجرة حتى عن المعاصي..

إن مفهوم الهجرة بالمعنى العام هو جوهر فكرة الاخوان في بريدة..

إنهم الآن لم يعودوا يركبوا الخيول والحمير.. وفيهم تجار ورجال أعمال يركبون السيارات ويسكنون الفلل ويلبسون أحسن الملابس... بينهم أشخاص يتبنون أفكاراً أكثر راديكالية وتشدداً..

إنهم منتشرون (مدسوسون) بين الناس في أحيائهم، يتمتعون بعلاقات اجتماعية واسعة، كثير منهم أيضاً من العوائل الكبيرة التي كانت على أكثر من مائة سنة مؤثرة في تاريخ المنطقة. .

وعن بداية هذه الحركة يقول منصور النقيدان: أنه كان في جلسة سمر عام ١٩٨١ نشأ فيها خلاف حول كروية الأرض وهل أنها تدور أو لا تدور. . . وقد رجعوا إلى كتب ابن تيمية وابن القيّم، وإجماع أهل السنة والجماعة! والمتقدمين مثل السيوطي الذي كان يرى أن الارض مسطحة وليست كروية مع أن غيره لا يرى ذلك. . توسع الخلاف حول هذه النقطة وتشقق الجدل إلى هطول المطر، هل هو ينزل من السماء أو من السحاب. . دوران الارض، قضية تصور الكون، مسألة فناء النار وهي قضية شهيرة جداً كثر الخلاف عليها باعتبارها مسألة هامة جداً ناقشها ابن تيمية وابن القيّم. . ومسألة فكرة فناء النار بالنسبة للمسلمين. . أما غير المسلمين فسوف يحكم عليهم يوم القيامة بأنهم في النار مخلدون. . باستثناء الملّيون من المسلمين أي العصاة من المؤمنين سيأتي عليهم يوم يخرجون من النار ويدخلون الجنة. . هذه قضية فناء النار التي نسبها ابن القيم إلى ابن تيمية أصبحت مفترق طرق عند إخوان بريدة وشيخهم الذي حرم السيارة والكهرباء واستبدل بها ركوب الخيل والدواب باعتبارها الدواب التي ينبغي للمسلم أن يركبها ويتخذها بدلاً من أن يستخدم مركوبات الكفار. . مستنداً في ذلك إلى تراث هائل من أئمة السلف. .

يقول منصور النقيدان أن حرب الخليج عام ١٩٩٠ - ١٩٩١ «حرب تحرير الكويت من صدام كانت منعطفاً للظاهرة الإسلامية في السعودية من اخوان بريدة إلى الصحويين ومن عداهم».

تبنى منصور النقيدان، كما ذكر في المقابلة، أفكار اخوان بريدة في سن

المراهقة قرابة خمس سنوات مليئة بالانكباب على كتب السلف والبعد عن كل الوسائل والمصادر العلمية مما عداها، (فكانت كتب السلف هي في الاخير اساس تكويني الشرعي والمعرفي وأنا أعتقد أنها كانت من أكثر النعم والاشياء السعيدة التي تعرفت عليها ومررت بها.. كانت تلك الفترة فترة تأسيس علمي).

○○○

في ملف آخر يتحدث منصور النقيدان عن مسألة العنف أو تغيير المنكر باليد أو الجهاد باليد. وهو ما اسمي بالحسبة لدى بعض الفقهاء، وهل هو متاح للدولة أو للسلطة وحدها أم للافراد أيضاً حتى لو بلغ الامر حد الاقتتال. وقد استشهد بآراء فقهاء قدامى مثل ابن قدامة الذي يرى أن ذلك منوط بالسلطة والسلطان. غير أنه بعد عام ١٩٩١ وبزوغ فكر التكفيريين الذي بدأ يتمدد عبر روافد كثيرة أهمها كتب الجماعات الإسلامية المتطرفة المقاتلة المهربة من افغانستان وعودة بعض افرادها إلى السعودية تنامت أفكار التطرف والشعور باتخاذ موقف مما يحدث ولتغيير الواقع برمته وليس باعتزاله. وقد نشأ خطاب ديني (صحوي) يرى ضرورة مواجهة مخاطر تهديد حقيقي للإسلام من خلال الغزو العسكري والحضاري خصوصاً وأن هناك فتوى ساندة لهذا الاتجاه.

وعن تجربة السجن الذي زج فيه لمدة عشرين شهراً ثم لمدة مختلفة بتهمة تفجير محل فيديو قال النقيدان أنها تجربة رائعة جداً له حيث توفرت له ولزملائه ما يريدون من الكتب رغم الاعتداءات والمعاملة اللاإنسانية من قبل إدارة السجن وهي اعتداءات مبررة من قبل فقهاء الدولة، والقضاة. لقد توفرت لهم في السجن كتب خارجة عن النسق المتداول أي الكتب التي تتناول الإسلام من خلال المنظور الوهابي. وقد استمر يقرأ كتب الرأي

الآخر خارج السجن. وكانت كتب (الجابري) ومنها (بُنية العقل العربي) الذي أعاد ترتيب كل ما لديه من أفكار على حسب تعبيره. فانتقل إلى كاتب ليبرالي بنظر بعض المتشددين الذين كفروه.

ويبدو إعجاب النقيدان بالجابري واضحاً ككاتب متحرر حقاً رغم أنه رسخ قناعاته بأفكاره محمد بن عبد الوهاب المتشددة، حيث أن هذا الكاتب المغربي (كان يعتقد أن بداية النهضة الحقيقية العربية هي مع الوهابية).

وبخصوص الوهابية يقرّ النقيدان بأن الوهابية سبب من أسباب العنف غير أنه يقول عنها: (أنها كانت في لحظة تاريخية أشبه بالعقيدة القومية التي منحتنا اليوم ما نحن عليه، هذا الكيان، وأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب فضله علينا كفضل المؤسسين الاوائل للولايات المتحدة الاميركية ومن عداهم وأن ذلك الفكر كان في لحظة تاريخية ما، هو الجامع للحمة والعصبية النجدية ثم بسطت بعد ذلك رواقها على أنحاء الجزيرة العربية وقيام الدولة السعودية الثالثة على يد الملك عبد العزيز التي تلافت الاخطاء التي حصلت في الدولة السعودية الأولى والثانية.

أعتقد - يقول النقيدان - أن يعاد النظر في كثير من أفكار الوهابية الجذرية الاساسية التي كانت سبب نشأتها والتي منحتها البريق.. لأن الكثير من الافكار نفتقد قيمتها وعصارتها حينما طرأ اليوم تغير في مفهوم الدولة ومفهوم المجتمع؛ نحن اليوم نعيش مفهوم الدولة الحديثة، الدولة السعودية اليوم دولة مؤثرة في اقليمها، دولة مهمة في عالمنا المعاصر تعيش عصر الحداثة، وثمة مشكلة كبيرة جداً ما بين الخطاب السياسي والخطاب الديني الذي ينبغي أن يكون متوازياً مع هذا الخطاب...

يقول النقيدان في محور مهم: (لا بد من الاعتراف بحقيقة مرة، وهي

أنني حينما أرجع إلى أدبيات (الجماعة الإسلامية) و(جماعة الجهاد) في مصر بعد مقتل السادات، وكثير من أدبيات (القاعدة) وغيرها كما نجد في مجلة صوت الجهاد اللسان الناطق لتنظيم القاعدة في السعودية، هي ليست بعيدة كل البعد عن الاصول الفكرية للوهابية، الولاء والبراء؛ التكفير: موجبات التكفير، شروطه وموانعه وما هي مسبباته.. هذه الاشياء كلها موجودة فيها (الوهابية) وبالتالي لا يمكن أن نفك هذه الافكار عن أصولها. غير أنها ليست الوهابية نفسها هي المسؤولة عنها أساساً، هذه هي مشكلة الفكر السلفي بعامه).

ويقول: (... الوهابية هي عقيدة ثورية منذ الاساس.. كان وراءها نشأة الكيان الذي تعرض أكثر من مرة للصدمات ثم قام مرة ثانية وثالثة. ومع كل مرة كانت تضاف أخطاء أخرى.. غير أن السياسي (**النظام الحاكم**) استطاع أن يسيطر على نقاط التوتر وبؤر التوتر في هذا الفكر، وبالتالي تحجيمه ضمن مؤسسة تعقلن هذا الخطاب ونتماشى مع الخطاب السياسي الموازي لها. أن الملك عبد العزيز نجح نجاحاً باهراً في هذا المقام. واستطاع أن ينشىء كياناً كبيراً واستطاع أن يتلافى كوارث هذا الفكر كما حصل في عام ١٩٢٦ في معركة سبلا مع الاخوان.

غير أن التعامل مع الفكر ليس كالتعامل مع الظواهر الحسية. الفكر دائماً لا يموت، أن كثيراً من الافكار هي أشبه بالفايروسة الكامنة القابلة دائماً لتفجيرها، قابلة دائماً لتفعيلها.

○○○

استحضار الخطاب الطائفي في العراق
والرهان على الدعم الاقليمي لتفعيل الازمات

تبنى الجيلُ الثالث من سياسيّي الدولة القومية المشاركين بحذرٍ الآن في العملية السياسية، بعد انهيار الدولة القومية الثانية بزعامة صدام حسين، نفسَ الخطابِ الطائفي التقليدي، بكل آلياتِه وأنساقِه المعادة التي استهلكها قاموس النبز والتحقير والشتائم المتداول قرابة تسعين عاماً، بعد ارتماء أول جيل منهم في أحضان الانكليز عام ١٩٢١ مجندين وضداً نوعياً للاغلبية العربيةِ الشيعية التي قاومت الاحتلال الانكليزي وأجنداتِه المريبة في ثورة العشرين وقبلها.

ولم تكن عمليةُ إقصاء وتهميش هذه الاغلبية قد تمت دون تخطيطٍ محكم من قبل المحتل وحلفائه البراغماتيين، الذين كانوا بالامس ذراعاً للدولة العثمانية وسنداً لها. وقد تخلوا عنها حال وقوعِها في النزَع الاخير. إذ كانت تلك فرصتَهم الذهبية للتسللِ للسلطة ثانية في هذا البلد الذي يبدو عصياً وصعباً، وادارته بنوع من الحكم التعسفي البعيد عن ديمقراطية المحتل المتداولة في بلده والتي كان يراها مناسبة لمواطنيه وغير قابلة للتصدير.

ولم يكن الخطابُ الطائفي المتداول على نطاق السلطة والنخَب الحاكمة غائباً أو مركوناً في أي وقت، وإنما شخَصَ دائماً ليس على أساس الانتصار لمذهب فقهي بدوافع دينيّة أو عقائدية، وإنما كوسيلة للامساك بزمام السلطة وتعزيزها والحفاظ عليها حتى لا تكون رهنَ الاغلبية الشيعية

المنبوذةِ والمهملةِ طيلة حكمِ السُلالات الوراثية المستبدة بدءاً بالامويين وانتهاء بالعثمانيين.

ورُغم غيابِ الدور الديني عن حياة القادة المنخرطين في المشروع الانكليزي منذ بدايته، ورُغم قلةِ الخلافات المذهبية في نطاق الحياة العامة المتداولة والتعامل اليومي بين الشيعةِ والسنّة المشتبكين في أغلبِ المناطق بعلاقات أسرَية وعشائرية متداخلة وروابطِ حسنِ جوارٍ قديمة؛ فإن إشهار ورقة الطائفية بدت ضرورية بنظر هؤلاء القادة لتوسيع الشرخ بين مكونات الشعب العراقي، واستهداف المكوّن الشيعي الاكبر الذي جعلوه خصماً وضحية بنفس الوقت **لابعاده عن كعكة السلطة ومركز القرار**. وكان ادعاؤهم الذي لاقى هوى لدى الانكليز بعدم عروبة الشيعة واعتبار أغلبيتهم من الفرس كافياً لمحاولةِ اقصائهم وسلب حقوقهم في المشاركة بإدارة شؤون العراق.

إن موقف الشيعة منذ البداية ضد تغلغل القوة البريطانية الهائلة وتعطيل زحفها إلى بغداد بإمكاناتهم البدائية، رغم اضطهادهم من قبل الدولة العثمانية على مدى قرون، ورغم وعود البريطانيين بإزالةِ الحيف العثماني بحقهم، أعطى هؤلاء انطباعاً بأنّهم لا يمكن أن يكونوا حلفاء أو تابعين مخلصين لهم. وأن عليهم أن يبحثوا عن حليف مستعد للاستجابة لكل ما يُطلبُ منه.

وكما أثار استغرابهم؛ رفض المنبوذ والمضطهد، الذي كان يمثل أقلية في محيط الاقاليم التابعة للدولة العثمانية مصافحة اليد التي تمد إليه بالعون، ويتمسك بالدولة التي اضطهدته، فإن الامر الآخر الذي أثار استغرابهم استعدادُ النخب السياسية والدينية والعشائرية المتموضعة مع الدولة العثمانية والمقربة منها حتى وقت قريب، للتخلي عنها حالاً وابداء

الاستعداد للتعاون مع الدولة الخصم. لم تكن تلك معادلة بسيطة يمكن فهمُها وهضمُها جيداً إلا بدراسةِ الوضع الاجتماعي العراقي السائد وخلفيّات عناصره ومكوناته.

ففي الوقت الذي تعاملت فيه الاغلبيةُ الشيعية على أساس الاستجابة لفقهاء المؤسسة الدينية التي انطلقت من بعد عقائدي وثوابت والتزامات دينية ووطنية وعروبية خالصة، تعاملت النخب السنية على أساس براغماتي بحت. قد لا يكون هنالك مجال لتحميل الاغلبية الشعبية من السُّنةِ مسؤولياتِ ونتائج تصرفات هذه النخب القائدة التي جرتها وراءها لأنها لم تكن بمستوى من الوعي يتيح لها التصرف دون توجيه أو إدارة. وربما لا يزال لهذه النخب تأثيرُها الفاعل لحد الآن رغم ارتفاع حصيلة الوعي والثقافة.

غير أن ما أثار الاندهاش أعطى القرار الانكليزي صيغته النهائية وحسم أمره لاختيار الحليف الخاضع والمطيع من أبناء الاقلية السنية المتعاونة معه ابتداء من عبد الرحمن النقيب الذي عُيّن أول رئيس للوزارة بعد (ثورة العشرين) التي دفعت الاغلبية الشيعية ثمنها من دماء ابنائها والتي هُمشت بعد ذلك حتى مع اختلاف اشكال انظمة الحكم - إلا في فترة حكم عبد الكريم قاسم - وحتى عام ٢٠٠٣ عام اقتلاع أعتى نظام قمعي دكتاتوري.

○ ○ ○

لقد ظل الخطاب الطائفي المتأزم على امتداد تداوله متفجراً وملغوماً ومشحوناً بعناصر القطيعة والنبذ والدعوة لإقصاء أو سحق (الآخر) المذهبي بعد استصدار الحكم عليه بالمروق والردة. وقد استخدمَ فقهاءُ التطرف، وهم موظفون مرموقون في جميع بلاطات الامبراطوريات **(الإسلامية)** رصيدهم الحديثي المزوّر والمنسوب لرسول الله ﷺ لتخوين ووصم أي

معارض للسلطان الذي جعلوه بأحاديث مزوّرة أخرى وليّ الامر الذي تجب طاعتُه بقاموس كامل من النقائص والشتائم والتحقير.

وقد كانوا على الدوام جزءاً فاعلاً من آلة اعلامية حكومية متمرسة أحكمتْ أدواتها في ظل أجواء القمع والتجهيل التي لجأت إليها دولُ الاستبداد الوراثية. وكان لديهم مُسوّقون ومستهلكون لمنتوجهم الفقهي دون مناقشة.

ومع أن الشعوب الإسلامية في مضمار الحالة المعرفية والثقافية العامة لم تتقدم كثيراً وظلت مرهونة بأجواء الجغرافية المذهبية المحدودة التي يعلو فيها صخب المتطرفين عادة، فإن حجم التلاقح الفكري والحضاري مع العالم وإن كان محدوداً، جعل العديدين يلتفتون إلى ضحالة الخطاب الطائفي الموروث وعدم فعاليته إلا في نطاق ضيق - في تأجيج أي صراع حقيقي رغم ما تبذل من جهود وأموال من قبل بعض الدول الآن مثل قطر والسعودية وبعض الجمعيات الفاعلة في دول الخليج. إن آخرين ينتمون لحركات (إسلامية) متطرفة ذات مرجعية وهابية، تحظى بدعم هذه الدول والجمعيات يصرون على تبني هذا الخطاب الذي أوشك على الاندثار واستخراجه من كهوفه المظلمة واستخدام نفس الاليات النسقية التلقينية البائدة التي كانت رائجة في كتاتيب عصر القرون الوسطى وبنفس الاداء المتخلف لتمرير أجنداتهم في الهيمنة والنفوذ.

○ ○ ○

إن دخولَ الوهابية الآن على خط الشحن الطائفي، أعاد لها الامل بالقدرة على استنفار أكثر بؤر التطرف غلواً لتنفيذ مشاريعها الجديدة في أقطار عديدة منها العراق. ويحاول الوهابيون الآن (بواسطة القاعدة) إعادة تجربتهم الفاشلة قبل حوالي قرن للتموضع داخل هذا البلد من خلال بعض

النخب الدينية فيه، بواسطة نخب دينية وسياسية هذه المرة ليكونوا بديلاً للنظام البعثي المنهار بعد أن تحالفوا مع بعض عناصره الذين غيروا خطابهم القومي وانضموا إلى التيار السلفي لغرض احتوائه فيما بعد والاستفادة من حراكه الدموي العنيف أملاً بعودة أخرى وكذلك الاستفادة من التوجهات المذهبية المشتركة.

وقد يجري التفكيرُ بنمطٍ من دولة بعثيةٍ هجينة ذات طابعَ ديني يفسح المجال لتزاوجٍ جديد بين رفاق البعث وشيوخ القاعدة.

ولم يكن أمراً غير مدروس، عندما أقدم صدام منذ أيام قادسيته في الثمانينات وأيام الحصار بعدها على توسيع الحراك الطائفي وتلقيحه بالاداء الوهابي وإفساح المجال لتداول الافكار الوهابية والتمهيد لقدوم المتطرفين الوهابيين للتموضع داخل العراق في حواضن مناسبة وإقامةِ تحالف غيرِ معلن لتكريسِ التوهيب وفق انساقٍ مستحدثةٍ لم يتعرف عليها العراقيون من قبل، عبّرت عنها فيما بعد مشاهد العنف والتدمير التي أحالت العراق إلى مستنقع دموي. وهذه نتيجةً طبيعية لتموضع الوهابيين من خلال حركاتهم المتطرفة في هذا البلد وفي كل بلد. إذ أنهم لا يتمكنون من استقطاب الناس من منطلق حواري اقناعي ولكن بأساليب قمعية شبيهة بتلك التي سادت نجد وشبه الجزيرة العربية أيام موجات الغزو الوهابية منذ سنة ١٧٤٦ وما بعدها عندما تشكلت نواة الدولة الوهابية السعودية الأولى بشراكة الشيخين الطموحين (**محمد بن عبد الوهاب**) و(**محمد بن سعود**).

إن أحلام السيطرة على بلاد الرافدين الغنيّة بمائها وكنوزها كانت تؤرق الوهابيين قبل اكتشاف البترول وتؤجج دائماً اسباب التصادم الاحترابي. أما الآن فإن الموجة السلفية القادمة والمدعومة من دول الخليج الأغنى من العراق وخصوصاً الحاضنة الأم (**المملكة السعودية**). تبدو كمن يسعى

لتحقيق حلم قديم اندثر منذ مئات السنين، رغم عدم حاجتها الماسة إلى أموال العراق. إذ أن هذا البلد يحتضن في المخيال الشعبي الإسلامي العام عاصمة أكبر امبراطورية إسلامية غابرة رفعت شعار الخلافة وحكمت باسم أدبياتها التاريخية المتداولة، وكان لاسم بغداد عاصمة الرشيد وقعٌ جميل على الأسماع التي تريد إعادة عهود الخلافة.

إن الاهداف التي كانت وراء محاولات الغزو السابق الذي لم يتحقق لا تزال قائمة. وبدلاً من انحسار التشيع في بلاد الرافدين التي كانت من أكبر بؤر الانحراف بنظر شيخ الوهابيين، فإن نتائج أعمالهم وغزواتهم والفظائع التي ارتكبوها في الجزيرة العربية سببت هجرة قبائل كثيرة إلى العراق وانتشار التشيع بين أبنائها وترسيخه في أوساطه الأولى واتساع الكتلة الشيعية القادرة على مواجهة مشروعهم التدميري.

ومن هنا فإن حراك التشيع في العراق حتى وإن لم يستهدف وجودهم، يظل صاعقاً ومؤرقاً في المشهد الوهابي لعموم جماعاتهم التي تطورت الآن فعالياتها واساليبها القتالية والحركية التنظيمية والتي ظهرت بمسميات جديدة لاستقطاب جميع أبناء السنة من غير الوهابيين. انهم بنظر هؤلاء لا يختلفون عن الشيعة شركاً ومروقاً عن الدين ما داموا لم يتبنوا كلَّ ثوابت الرؤية الوهابية. وقد أدركت غالبية أبناء السنة في الانبار وغيرها عندما أرادت القاعدةُ أن تجعلها حاضنةً لها وبعدما عانوا من تصرفاتها الغريبة التي لم يعتادوا عليها وقد ألفوا مذاهبهم الإسلامية المتسامحة المتعايشة، أنهما لا يمكن أن يكونوا ضمن دائرة التوسع الوهابي ورؤيته المتشنجة البعيدة عن الإسلام.

إن مشروع الوهابية القادم الذي أوقف من قبل أبناء السنة في العراق قبل غيرهم يسعى لتكريس الطائفية وتصدير العنف إليه حتى (تنظيفه) من

(الروافض الارجاس الانجاس أبناء الزنى الفرس المجوس الصفويين) ومن الذين يتعاونون معهم من أبناء السنة والذين يريدون إقامة دولة مدنية بآليات ديمقراطية تحقق العدالة للجميع.

هذا هو مشروعهم القادم الذي يبدو لهم مشروعاً تنويرياً خالصاً كما أراده المؤسس الاول، أن يجبروا الجميع على التخلي عن قناعاتهم السابقة بالاكراه وتبني الوهابية عقيدة ومنهجاً، ولا بأس من التعامل المؤقت عبر آليات البراغماتية المصلحية حتى طرد العدو الشيعي الذي لا يبدو الآن بسيطاً وأعزلاً وإنما يحاول الدفاع عن نفسه بآليات تقتضيها طبيعة المواجهة وحركة العالم ورصد كل أحداثه بعد أن أصبحت كلُ منطقة فيه أمام أنظار الشعوب ومنظمات الحقوق المدنية مما لا يتيح لأحد فرصة التطهير العرقي كما يريد والايغال في وسائل القتل والتدمير دون حدّ أو انضباط كما كان يحصل في الغزوات والاجتياحات الوهابية في المناطق المعزولة البعيدة عن الرصد والمراقبة.

لم يتبق الآن سوى بعث المشروع الطائفي لتدمير العراق وإثارة نزاعات وحروب أهلية ماراثونية تستمر عدة عقود لا تتحقق فيها إلا الخسارة المؤكدة للجميع. . ومن هنا نرى أسباب الدعم اللامحدود من قبل قطر والسعودية والجمعيات الإسلامية الخيرية في الخليج التي يمتلك بعضها ميزانيات دول لدعم النزاع الطائفي غير المنضبط وسعيها لتقسيم العراق طائفياً حتى من خلال عملية الانتخاب التي قد تنتج ممثلين طائفيين وعنصريين ما دام الناخب قد أريد له أن يتمحور خلف هذين المفهومين حسب الفهم القديم باعتباراته سيتحقق مصالحه من خلالهما، وهذا لا ينم عن نضج حقيقي ومعرفة اكيدة بهذه المصالح طالما ظل اسير تصورات قديمة لم تحقق له شيئاً في الماضي كما أنها لن تحقق إلا الصراع غير المجدي في المستقبل.

○ ○ ○

ويبدو أن قوة المكبوت الطائفي لدى الشيعة الذين كانوا مشروعاً للاضطهاد والتهميش طيلة مئات السنين لم يكن بمستوى ما لاقوه من ظلم تصاعدت وتائره إلى أقصى حد خلال ثلاثة عقود متعاقبة سبقت سقوط آخر نمط لأشرس وأغنى حكم قمعي عام ٢٠٠٣. مع أن شرخاً قوياً قد أحدث في بنية ذلك الحكم وسلطته المتسلحة بكل أدوات ووسائل القمع والترويع وذلك في انتفاضة شعبان عام ١٩٩١ وأزال جدار الخوف عندما اكتسحت جماعات من الشباب البواسل عصاباتِ السلطة وأجهزتها الأمنية ذات الخبرة الكبيرة خلال ساعات وأثبت بفرعيتها الصادقة هشاشة النظام الدموي وقدرتها على إقتلاعه بسهولة لو لم تتدخل إرادة دولية لابقائه بناء على توصيات اقليمية من دول لا تزال لديها نفس النظرة الطائفية الاقصائية من الشيعة وفي مقدمتها المملكة السعودية وبعض إمارات الخليج. بل أن التنظيمات الجهادية السلفية قد استنفرت أتباعها منذ ذلك الوقت **(للجهاد)** في العراق وبدأ حراكها يتصاعد بهذا الاتجاه خصوصاً بعد أن بدأ صدام يمهد لمزاوجة جهادية بينه وبينها خلال فترة التسعينات وقبيل سقوطه.

وما حدث بعد قمع الانتفاضة هو تهجيرُ الثوار الذين أفلتوا من قبضة النظام وحجزهُم في معسكر صحراوي حدودي محاط بأسلاك شائكة وحراسة مشددة في المملكة السعودية ليمضوا فيه فترات متفاوتة شاقة وبعضهم مع عوائلهم، قبل أن تنقل أغلبيتهم إلى مهاجر أوروبية بعيدة بدل استقبالهم في دول الجوار العربية، ما عدا سوريا المحطة المؤقتة. وكان دافع عدم قبولهم طائفياً بامتياز. فقد نُظر إليهم كفايروسا قاتل يتعذر إدخالهُ في أي جسم. وهم الآن لا يحضون حتى من قبل الجهات التي تدعي تمثيلهم بالامتيازات المزمع منحها الاجهزة وعناصر البعث السابقة في بلدهم.

وطبيعي أن يوغل النظام بممارسة هواياته الدموية بعد قمع الانتفاضة

ضد الاغلبية الشيعية والاكراد والتركمان ويذهب إلى حد غير معقول في ذلك ويوسع أجهزته الامنية باستحداث فدائيي صدام وجيش القدس. وهما نوع مستجد من ميليشيات عسكرية بربرية تدين بالولاء لصدام شخصياً ولا تخضع لأي مفهوم اخلاقي مقبول وقد أنيطت قيادتها بمقربين من رمز النظام مثل العريف - الجنرال حسين كامل.

فترة الرعب الجديدة في التسعينات والحصار الاقتصادي المزدوج الذي افتعله النظام لا يمكن أن تعبر عنه المشاعر العادية. والمحارق (**الهلكوست**) في الرضوانية وأبي غريب والسجون العامة ومراكز الامن والمخابرات في كل محافظة أنتجت ذعراً وخراباً في البنية الاجتماعية والاقتصادية لا يمكن إصلاحه إلا بعد عقود. لقد انتهكت كلُّ عائلةٍ عراقية بكل أنواع الظلم المبتكرة.

ورغم ذلك، وبعد السقوط السريع والسهل للنظام، لم تبرز الروح الانتقامية التي كانت متوقعة من الاغلبية الشيعية المدمَّرة، ولم تحدث الا حوادث ضئيلة ضد بعض من أوغلوا في إجرامهم. لم يكن هناك انفجار مزلزل للمكبوت الطائفي الشيعي مساوٍ لدرجة القمع والامتهان التي تعرضوا لها بل أن دعوات التسامح بدأت تتصاعد في أوساطهم في غمرة الابتهاج بالتخلص من مضطهيهم.

وكان من المتوقع أن تتم عملية اعتذار كبرى من قبل البعثيين أولاً ومن قبل شريحة أبناء السنة للشيعة والاكراد والتركمان بعد أن جعلهم النظام السابق حاضنة له، رغم أن بعضهم لم يسلم من أذاه.

هنا لا بد أن ننوه أن هذا النظام أراد أن يجعل العراق كله حاضنة له. ولعل أداء البعثي (**الشيعي**) المجند في منظومة الحزب يفوق أداء البعثي السني غير المتهم بولاءات طائفية أو مذهبية مناقضة لتمذهب السلطة فهو

يظل بنظرها متهم بأصوله الشيعية. وهي تهمة خطيرة تجعله ينظر لنفسه بدونية واحتقار، ويحاول الارتقاء إلى مستوى الرفيق السني حتى ولو كان أقل منه مرتبة حزبية أو وظيفية. وعليه لكي يلمع صورته أن يكون ملكياً أكثر من الملك وأن يخضع أكبر عدد من أبناء طائفته بوسائل التنكيل المبتكرة التي تجاوزت صلم الاذن وقطع اللسان إلى حفلات الاعدام العلنية التي تنفذ أمام ذوي الضحايا وأبناء مدينتهم، ليكون مؤهلاً بجدارة للقبول في منظمة الموت البعثية ولا يكون موضع شك من قبلها. مع أن ذلك كله لم ينقذ الكثير من هؤلاء المغفلين من مصير مرعب على أيدي رفاقهم بسبب أخطاء تافهة أو شكوك غير قائمة على أساس واضح.

○○○

بعد سقوطِ النظامِ في آذار ٢٠٠٣ واختفاءِ رموزه وهروبهم، ظل العراقُ هادئاً قرابة ستة شهور، وربما توقعت الحاضنة السنية في غرب العراق التي هرب إليها الابناء العائدون من مراكز القمع والسجون ومنظمات الحزب أن تتم عملية انتقام كبرى ضدها بمستوى ما تعرض له المضطهدون من الشيعة والاكراد والتركمان. وربما استعدوا لتقديم اعتذاراتهم عما صدر من أبنائهم المشاركين في انتهاكات السلطة كما فعل بعض شيوخ زبيد عندما عاتبهم آل الشيخ كاظم الريان على سلوك ابنهم محمد الزبيدي مع عشيرته حجام بعد قمع الانتفاضة العراقية عام ٩١.

غير أن هدوء الوضع وعدم اهتمام الشيعة بدمهم المهدور وميلهم للتسامح جعل الامر يتوقف عند ذلك الحد... إذ لم يتم الانتقام وحتى المطالبة بالاعتذار.. فكيف يتم الاعتذار إذا لم يرتفع صوت للمطالبة به؟

أما المفارقة الآن فهي أن المطالبين بالاعتذار أصبحوا هم الذين يطالبون به باعتباراتهم أصبحوا مهمشين بعد أن كانوا هم سادة العراق.

ولهذه المفارقة أسبابها التي تكمن في انقلاب المعادلة تماماً. فلم يعد هناك خطر ملموس من الاغلبية المضطهدة في السابق التي سادت فيها أجواء التسامح بعد الفرح بإزالة الكابوس البعثي الذي كان مقرراً له أن يستمر لعدة أجيال لاحقة.

إن فترة الاشهر الستة الهادئة - على قصرها. أقامت أن تكون المناطق الغربية ذات الاغلبية السنية وبعض مناطق بغداد التي عاد إليها أبناؤها الذين كانوا يديرون مراكز القمع والسجون في الجنوب والشمال - حاضنة للتطرف النزيل والوافد من دول الجوار والذي رفع شعارات إسلامية طائفية منتزعة من الادبيات الوهابية القائمة على كره الشيعة وتكفيرهم.. وهكذا اتسعت آمال (القاعدة) والحركات المتطرفة لجعل العراق أفغانستان أخرى بعد أن أصبحت هي نسخة من طالبان.

هنا بدأت صفحة عنف وتنكيل بالشيعة غير مسبوقة وبأدوات دمار مستحدثة في غياب دولة نظامية ذات مؤسسات منتخبة، وحتى بعد ذلك حيث أقرَّ الدستور وانتُخب مجلس نيابي، فقد أصبح العراق جبهة متقدمة لمواجهة الارهاب وحشدت فيه مجاميع الارهابيين الانتحاريين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي تسللوا إليه عبر كل دول الجوار التي اتحدت تحت غطاء طائفي يدعي الانتصار لأهل السنة من الشيعة المتعاونين مع المحتل. لقد شعر كلُّ هؤلاء أن عهداً جديداً يوشك أن يطل على المنطقة إذا ما تقدم العراق خطوة على طريق ممارسة الانتخابات على أساس الاغلبية العددية واعتمدت ديمقراطية جديدة بدلاً من الانظمة الوراثية الملكية أو الجمهورية.

لقد بذلت مساع كبيرة لافشال هذه التجربة واستنفرت طاقات وبذلت أموال طائلة وبُعث الخطابُ الطائفي المهلهل ورُفع دون خجل أو اعتبار

لأية مشاعر إنسانية ووظفت جهات أدعت مشاركتها بالعملية السياسية **(عدنان الدليمي - طارق الهاشمي وفيما بعد العيساوي والنجيفي غيرهم)** لشل هذه العملية تحت غطاء الحصانة الحكومية والواجهة الرسمية التي تتيح لهم التحرك دون مراقبة أو رصد.

لقد تلاحقت الاحداث ضد العراقيين الشيعة بحيث لم تتح لهم الفرصة لالتقاط انفاسهم واحصاء خسائرهم الحالية والماضية والخروج من حالة القهر المزمنة التي ظلوا فيها في غياب من يدافع عنهم.

أصبح البعثي طاهراً وشريفاً بمجرد أن دخل مغطس الشعارات الإسلامية وتحالف مع ارهابيي القاعدة وجيش الإسلام وجند محمد واعضاء الطريقة النقشنبدية وغيرها وأصبح الدفاع عن النفس ضد هؤلاء يعني الانتماء للميليشيات الشيعية الموهومة التي جعلوها شماعة وبعبعاً وذريعة لاستقطاب كل مجاميع التطرف في العراق.

وإذ أن البعثيين محنكون ولهم تجربة عريقة في التآمر والعمل السري رغم إمساكهم بالسلطة فقد نجحوا بعرض أنفسهم والشريحة التي تنتمي لها قياداتهم على أنهم مظلومون مهمشون بعد أن اعتادوا أكل الشجرةِ والثمرة. ينبغي أن نذكر أن العديد من الواجهات السنية في غرب العراق وأغلب زعماء القبائل ورجال الدين وبعض السياسيين والمثقفين لم ينساقوا وراء الاطروحة البعثية الجديدة ورأوا أن اتحاد العراقيين هو الذي يؤمّن مصالحهم وأمنهم لا الجري خلف مغامرات جديدة يقودها متخلفون أمثال عزت الدوري.

مع الجو العربي الحاكم **(الطائفي)** المتماهي والمتعاون معهم.. يريدون إقناع الجميع أنهم على حق وأصبحوا يطالبون بعودة البعث والغاء قانون المسائلة والعدالة، وكأن البعث حقق لأغلبية العراقيين الازدهار والامن وكأنهم لم يتخلفوا قرناً إلى الوراء.

لقد وجهت تهمة الطائفية للشيعة، لكن كيف يمكن أن يكون المضطهد المزمن والمنكسر المحكوم عليه بالانزواء والموت وهو لا يملك الادوات والسلطة طائفياً ومواجهة الطائفيين الحقيقيين الذين جسدو طائفيتهم فعلاً مدمراً ولم يحصروها في حدود الاعتقادات الشخصية التي لم يتمكن حتى التعبير عنها وظلت في مربع المسكوت عنه والممنوع الذي لا يمكن الجهرُ به؟

○ ○ ○

غير أن ما هو ضارٌ يمكنُ أن يكونَ نافعاً ولو بعد حين. والوقوع في الازمات، بل الازمات الشديدة لا بد أن يتجه إلى حلول رغم المصاعب التي ترافق ذلك والمدة الطويلة التي سيستغرقها. ويؤسفنا أن غيرنا استطاع اكتشاف حقائق مهمة بخصوص مآزق الخلاف المذهبي لدينا قبل أن نستطيع نحن اكتشاف أن هذه المآزق والخلافات على الصعيد العقائدي لم تكن لتتصاعد لولا أطماع أولئك الذين اعتادوا السلطة والثراء على مر الازمان، بل أن السلطة هي التي أوجدت المذاهب وسدت أبواب الاجتهاد قبالة مذهب أهل البيت الذي لم يكن معتنقوه على نفس المستوى الثقافي والمعرفي ليستطيعوا مواجهة ألاعيب السلطة بروح المسؤولية والوعي والانضباط التي أرسى دعائهما أئمة أهل البيت ليتبينوا أن جميع الخلافات بين المسلمين يمكن تجاوزها لو تجاوزوا تلك الألاعيب.

ومن المؤسف أن كل عناصر المجتمعات الإسلامية اتسمت بقلة الوعي والانضباط وانساقت وراء مؤامرات السياسيين كما يحدث الآن في العراق حينما يراد تصدير العنف إليه بعناوين وشعارات وأهداف مستحدثة.

يقول برنارد لويس: **(إن الخلاف السني الشيعي أقلُّ خطورة من الخلاف الكاثولوكي - الروتستانتي على الصعيد اللاهوتي. . وأن العرب يظلون أسرى ماضيهم)**.

والواقع أن هذا أمر لم يختص به العرب وحدهم، **(الذين جرّوا معهم المسلمين الآخرين إلى ذلك)**.

وإنما وقع فيه الاوروبيون قبلهم الذين كانوا أيضاً أسارى ماضيهم حتى صفوا حساباتهم معه وغربلوا تاريخه وتخلصوا من عراقيله وتراكماته. وقد استطاعوا ذلك عن طريق التنوير الديني وغربلة التراث غربلة شاملة ووضعه على محك النقد التاريخي الصارم. كما يقول الاستاذ هاشم صالح في كتابه الانسداد التاريخي.

ومع ذلك، رغم أننا ينبغي أن نتجه ذلك الاتجاه فإنّ جهات عديدة تسعى باتجاه مضاد يدعو للريبة، لأن الدعوات المتصاعدة لإعادة كتابة التاريخ لا لتصفيته وتنقيته من الشوائب وإنما لإضافة شوائب وشكوك جديدة، تبدو محاولة أكيدة لتوسيع الشرخ السني الشيعي لا ردمِه ومحوه. وكأن ما حصل فيه من تزوير لم يعد كافياً لتضليل الجميع. وتبدو طرق الحوار التي تتصدى لها فئات متشنجة متحمسة تلجأ إلى اسلوب الشتائم والصراخ والتهديد عن طريق الفضائيات ومنابر الخطابة وغيرها، وكأنها تمهد لتعقيد الملفات العالقة لا لحسم النزاع بأساليب موضوعية مقنعة خصوصاً وأن مجتمعاتنا نفسها بدأت تسأمُ الاساليب المتشنجة.

وبنظر الدولة السعودية الوهابية المتنفذة الآن بين الدول الإسلامية والتي تمسك خيوط أَلاعيب كثيرة فيها، تبدو ورقة اثارة الخلافات المذهبية وتعقيدها، الورقة الرابحة الوحيدة لمنع التقارب بين المسلمين الذي إذا ما تم فإن دورها سيظل هامشياً، وستظل ادعاءاتها بشرعية وجودها وتدخلاتها غير قائمة وستغطس أو تموت حالاً في ظل حوارات ناضجة وغير منفعلة. لأن منظومة المفاهيم الملفقة منذ عهد الدولة الاموية بخصوص شرعية الحاكم وضرورة الخضوع له حتى وإن كان ظالماً أو فاسقاً ستنهار وتتفكك

ولن يكون القرآن الكريم والاحاديث النبوية بعد غربلة سندها ومضمونها إلا دليلاً قاطعاً على عدم شرعية الكيانات التي تسللت إلى الحكم ولاة أمر وخلفاء وأمراء للمؤمنين مفترضي الطاعة بمراسم وأوامر الهية ملفقة ومدسوسة.

سيظل الاحتراب المذهبي والطائفي قائماً ما دامت هذه الفئة من الحكام تتمسك بحق الهي أو عائلي لقيادة الشعوب بشكل تعسفي. ومن حسن الحظ أنها لا تزال تتموضع في بؤر وجغرافيا محدودة. وربما لن يطول بها الامد إلى اكثر من ربع قرن لاحق، مع أن آثار تعسفها لن تزول في القريب العاجل، وقد ترثها جماعات متطرفة تمهد لمشاكل وخلافات أعمق على أساس السعي لاقامة خلافات إسلامية ولن يبدو المستقبل مشرقاً بوجود مثل هذه الجماعات التي تتسع سطوتها ولن يتم التخلص منها ما لم تقتنع الشعوب بعدم جدارتها وعدم امتلاكها برامج حقيقية للاصلاح أو الحكم تستجيب لحاجاتها الحقيقية في هذا العصر الحساس المتغير. وإلى أن يتم ذلك فإن جهوداً وأوقاتاً ثمينة ستهدر وأن ثمناً باهظاً من دماء غزيرة أخرى سوف تدفعه. إذ أنها لن تسمع من هذه الحركات المتطرفة إلا شعارات براقة مثل الإسلام هو الحل، وبعد أن تجد في هؤلاء دعاةً حقيقيين إلى عهود التخلف والانحطاط التي لم تنتج أثراً ثقافياً أو إصلاحاً اجتماعياً حقيقياً بدعوى العودة إلى الإسلام النقي والتي لن تكون سوى دعوى لتبرير القتل والانتهاك كما فعل محمد بن عبد الوهاب قبل قرنين ونصف.

التغيير لا بد أن يحدث. غير أنه لا يتم عادة بهدوء ومرونة ودون دفع ثمن باهظ في أجواء لا تعيش القوانين الطبيعية، كما هو الحال في العراق الذي عاش في فوضى طيلة مئات السنين وكان مسرحاً لعمليات غير منضبطة لحكام لم يكن يحاسبهم أحد.

ترى هل ألف العراقيون الشيعة أن يجدوا أنفسهم منبوذين مضطهدين طيلة تاريخهم فاستسلموا لذلك باعتباره قدراً مقضياً؟ إذ أن ما حصل لهم رغم شدة مرارته وقسوته لم يكن كافياً لتفجير الحزن المكبوت من الآلام والمعاناة.

كانوا يذبحون في ظل سلطات دكتاتورية قمعية تعمدت إذلالهم كما حصل أيام يزيد والحجاج والمتوكل وصدام وكانت تلك السلطات تحكم أدواتها ومؤسساتها القمعيَّة وتوظف لذلك أموالاً طائلة... أما الآن بعد أن أتيحت لهم الفرصة للتخلص من آخر دكتاتور والتنفس بعد مئات السنين من الكبت يأتي وافد غريب على جناح **(القاعدة)** مثل **(الزرقاوي)** والمصري والبغدادي وأخيراً العدناني بعقله التدميري الخارج من كهوف العهود المظلمة ليجدد مأساتهم بأدوات ذبح غير مألوفة مثل السيارات المفخخة والعبوات الناسفة بمباركة بقايا تلك الدولة المستبدة التي لا يزالون يعيشون آثار قهرها واستهتارها المفرط بهم. وهكذا فإن على الجميع، وخصوصاً أولئك الذين كانوا سبباً في كل ذلك أن يتوقعوا الآن انفجار تخزين المكبوت من غضبهم وآلامهم. فليس من المعقول أن يصبروا إلى الابد، بل أن هذا الخزين المتفجر ربما لمن يتوقف عند حد وستبدأ مسيرة الالف ميل إلى بر الامان بعد أن أنجزت الخطوة الأولى، ولو بمزيد من المعاناة...

مشكلة العراقيين الشيعة أنهم ليسوا كالزرقاويين الغارقين في المغطس الوهابي، فثقافتهم لا تسمح بتدمير الاخرين لمجرد فتوى من فقيه جاهل. وموروثهم الفقهي عن جعفر الصادق لا يتيح لأحد منهم تفجير نفسه حتى لا ينال ولو بريئاً واحداً من بين الف مجرم... المذاهب الإسلامية الاخرى - عدا الوهابية - لا تسمح أدبياتها بذلك.. وحده البعثي غير المقيد بدين أو مذهب، الا مصلحته وأجنداته الخاصة يريد تدمير كل شيء حتى يعود ويضحي.. لكن ليس بنفسه وإنما بآخر انتحاري وهابي مغفل من القاعدة

وفروعها. . فهو ينشد الجنة لنفسه على هذه الارض بعد أن يحرم منها الآخرين بينما يجدها ذاك في السماء ويريد أن يستأثر بها لوحده. .

ولا أدري كيف اكتشف شاعر ملهم نظرية المعاناة والشقاء التي ستوصل إلى السعادة حتماً في بيت شعري واحد يقول الشاعر عبد الحميد السماوي:

عارضي موج المنايا تجدي أسعد الساعات ساعات الشقا

إذ كيف ستكون ساعات الشقاء هي أسعد الساعات. . اللهم إلا بما ستتمخض عنه من ساعات سعيدة أُخرْ في المستقبل بعد أن يحسم المرء أو الشعب أمره - سيّان - لتشخيص تلك الساعة الشقية والتخلص منها. . . وكيف ستكون الفوضى المدمرة خلاقة إلا بعد أن يدرك الناس أنها فوضى وأنها مدمرة ويجب التخلص منها حالاً والوصول إلى الهدوء والتعقل وإدراك ضرورة الحديث الهاديء والتحاور وتجاوز حماقات الماضي التي لم يستفد منها أحد والتي استهلكت حياتنا وحياة شعوب أخرى دون جدوى بعد أن انساقت وراء محتالين وطامعين لم يفكروا إلا بأنفسهم ومصالحهم الشخصية.

(هناك تسريع لحركة التاريخ في العراق الآن - كما يقول هاشم صالح - بفعل عوامل خارجية وداخلية. وإذا كانت آلام الشعب العراقي، سوف تؤدي في نهاية المطاف إلى تفكيك الايويولوجيا العربية بكل انغلاقاتها والعنف المخزون في أحشائها، فإنها لن تذهب سدى إذا ما أدت إلى تفكيك اليقينيات العدوانية التي تهيمن على عقولنا منذ مئات السنين وأنها ستقدم خدمة كبيرة لكل العرب والمسلمين، فالمعركة الجارية حالياً تخص كل العرب وليس العراقيين فقط الذين يدفعون ثمنها نيابة عنا جميعاً). .

فربيع العراق رغم أنه ساخن فقد بدأ قبل عشر سنين أي قبل أي ربيع

عربي آخر، بل أنه ربما فتح الباب أمام كل ربيع قادم لتهب رياحه على جميع الاقطار المجاورة، وقد بدأ التغيير الزلزال لتفكيك الايديولوجيا العربية المتحكمة والمتخشبة والتي لا يريد البعثيون قبل غيرهم رغم كل ما فعلوه التخلي عنها. ربما كانت نتائج هذا التغيير غير ملحوظة جيداً وربما ستستغرق وقتاً طويلاً غير أنه بدأ وسيسبق العراقُ غيره إلى الديمقراطية التي توصل أصوات الجميع إلى الجميع عبر مؤسسات ومنابر حرّة. غير أن ذلك لا يتوقع أن يتم برمشة عين.. وهكذا حسب العرب أنهم يوجهون ضربة استباقية للعراق الذي بدأت مسيرته ولا يمكن إيقافها، وأنه سينهار حالاً ولا يزال رهانهم قائماً لاسقاطه في براثن دكتاتور جديد.

العراقيون الذين امتلكوا مناعة مدهشة ضد القهر والانكسار أوشكوا أن يكملوا عامهم العاشر في ظل أصعب المراحل التي مروا بها وواجهوا اصطفاف الايديولوجيا البعثية والسلفية الوهابية التي لبست قبعة واحدة لمنع التغيير الواقع، وأصبحت سوريا البعثية حاضنة لبعثيي العراق الفارين وحركات التطرف الوهابية مثل القاعدة وغيرها واحتضنتهم في بؤر حساسة كانت من قبل ملاذاً للمتطرفين السوريين أنفسهم الذين كانوا فاعلين في الداخل السوري حتى أوقفهم الاسد الأب بقذائف المدفعية والدبابات والطائرات قبل أكثر من ثلاث عقود. ورغم اختلاف الايديولوجيا فقد اتحدوا واشتغلوا بحماس وكل يضمر هدفاً مختلفاً. فالبعثيون أرادوا استخدام الوهابيين الانتحاريين مطايا لايقاف تجربة العراق ثم ترحيلهم فيما بعد إذا أنجزت المهمة، وهؤلاء وجدوها فرصة سانحة للتموضع في سوريا بالتعاون مع حاضنتهم القديمة والعمل في معسكرات وأماكن عديدة لتصنيع الاسلحة وتدريب الارهابيين لارسالهم للعراق. وبالتأكيد فإنهم وضعوا في حسابهم في حالة نجاح مهمتهم في العراق أن يتمددوا في سوريا نفسها وإلى

أقطار مجاورة أخرى. فهم يحملون تصوراً امبراطورياً للخلافة لا يختص ببلد واحد وإنما بجميع بلدان الإسلام وربما غير البلدان الإسلامية التي يطمحون لضمها لدولتهم المرتقبة.

لقد تصوروا جميعاً أن تجربة العراق الجديد فاشلة لا محالة ووضعوا حساباتهم على أساس ذلك.

غير أن تلك الحسابات خابت تماماً. فسوريا قد وقعت في مستنقع الحركات المتطرفة التي تريد السيطرة على الحكم الآن بعد أن أوشكت منافذ العراق أن تسد بوجهها وبعد أن أدركت الحاضنات السابقة لها في العراق عدم جدوى التعاون معها إذ أنها أحدثت شرخاً واضحاً في النسيج الاجتماعي السني نفسه الذي تريد جهات عديدة منه الآن أن ينأى بنفسه عن الصراعات غير المنضبطة التي تديرها جماعات غريبة عنها والتي أدركت أنها لا تستطيع إيقاف الشعور المتنامي بضرورة الاستفادة من معطيات التغيير الحاصل وبعد أن أصبحت الشعارات الطائفية القديمة مستهلكة وغير ذات نفع إلا للذين روجوا لها أول مرة.

وما وقعت فيه سوريا حينما احتضنت الارهابيين ثم لم تستطع التخلص منهم بعد ذلك، وهو خطأ استراتيجي واضح ما كان لدولة عريقة في التآمر أن تقع فيه، ربما ستقع فيه تركيا الآن بعد أن جعلت نفسها حاضنة بديلة لهذه الحركات بفعل الاغراءات المالية لدول البترول واجندات الدول الغربية التي تحاول تركيا استرضاءها. ربما أرادت تركيا عرض نفسها راعية للحركات الإسلامية لغرض استقطابها في مكان أو بؤرة ما منها ثم تساعد فيما بعد على توجيه ضربات ساحقة لها... فالارهابيون لا يمكن أن يظلوا مبعثرين ومختفين في آلاف الخلايا النائمة في كل أنحاء العالم، إذ أن ذلك لا يتيح رصدهم ومراقبتهم وضربهم كما يجري الآن عندما يتجمعون في بؤر معلومة في السعودية وأفغانستان والعراق أولاً ثم في اليمن وسوريا

والمغرب العربي ومصر وغيرها فيما بعد وربما سيكون تجمعهم الأخير في الصومال أو القرن الافريقي أو غيره وعلى أي حال فهم أوراق رابحة يمكن استغلالها ثم اتلافها فيما بعد.

○○○

بالتزامن مع مظاهرات الانبار والمناطق الغربية وطرح مطاليب مشروعة وغير مشروعة في سلة واحدة في أجواء حماسية تقافز أغلبُ سياسيي القائمة العراقية فرحاً ورأوا أنّ تلك فرصتهم المناسبة لكسبٍ أكبر إلى جانبهم فدخلوا على خط الدول الراعية للازمة أصلاً (**السعودية وقطر وتركيا**)، وربما هم لم ينفصلوا عن ذلك الخط أصلاً، لدراسة إمكانية تأجيج الوضع وعدم السماح باستقراره لغرض إيجاد أزمات أخرى وإسقاط المالكي الآن بعد الانفراد به باعتبار أن ذلك مطلب شعبي ثم الانقضاض على بقية رؤوس القائمة الوطنية التي أسقطوا بعضها قبل ذلك. . وهم هنا يتصرفون بذكاء عندما لا يستهدفون كل هذه الرؤوس دفعة واحدة، ويحاربون في جبهة عريضة إذ أن ذلك سيكون دافعاً لاتحاد أعضاء القائمة ووقوفهم بصلابة ضد ذلك المخطط. غير أن السير على نظرية الثور الأبيض تبدو هي المناسبة الآن حتى لا يتحسس الجميع رقابهم خوفاً من مقصلة القائمة العراقية ومن يقف وراءها.

البعثيون - أبطال التآمر والاتفاقات السرية والعمل في الظلام - لم يكونوا غائبين عن المشهد في أي وقت. وهذه فرصة مناسبة لخوض بعض رهاناتهم.

لقد استخرجوا عزت الدوري من كهفه بعد تحنيطه وإلباسه لباس الماريشاليه المزوق بكل رتبة ونياشينه المضحكة ليلقي خطاباً موميائياً أراده أن يتسم بالصرامة ليخيف به العراقيين الشيعة بعد أن استعار بعض المفردات البغيضة التي اعتاد صدام استعمالها من قبل.

وعزت، كما يعلم الجميع كان ظلاً باهتاً لسيده، وقد تدرج في السلطة من جندي إلى جنرال بجرة قلم وعُيّنَ نائباً لرئيس الجمهورية والامين العام للحزب. لقد تصاغر امام سيده بحيث لم يجد فيه منافساً حقيقياً بل خادماً مخلصاً. ولا يمكن نسبته إلى السياسيين المحنكين أو إلى الثقافة والمثقفين. بل أنه لم يفهم حتى الهلوسات الضبابية والغائمة لصدام وعفلق وبقية المنظرين البعثيين وهم يجهدون أنفسهم لبلورة نظرية أو خطاب بعثي معقول. فهو لا يعرف إلا (الدرباشة) ولم يدرس حتى مقدمات الطريقة النقشبندية التي يدعي رعايتها، باعتباره من صنف المتدينين في الحزب، لكي يوظفها فيما بعد - كما فعل - للقيام بعمليات ارهابية ضد العراقيين.

وإذ أنه لا يمثل أي خطر حقيقي لا من قبل ولا من بعد، فلم يكلف أحد من أبناء الشعب العراقي نفسه مؤونة البحث عن حفرته، كما أن سلطات الحرب الاميركية التي وضعته ضمن المطلوبين العشرة الاوائل غضت النظر عنه إذ أدركت أن دوره لا يتعدى دور فزاعة (خرّوعة خضرة) لا تخيف حتى العصافير.

لقد حاول بصوت الاموات المنبعث من القبور أن يستعير في خطابه الاخير - دعماً لمطاليب البعثيين الذين اندسوا في المظاهرات وحاولوا توجيهها - الكثير من المفردات والشتائم الطائفية البغيضة التي كان يستعملها سيده مضيفاً إليها ما استحدث في قاموس مجمع الشتائم والنبز الوهابية ليصم بها أكثر من عشرين مليون عراقي عربي شيعي. وهو يحسب أنه بذلك يسترضي أبناء السنة الذين سئمت أغلبيتهم مثل هذا الخطاب، وأدركت أن السبب في كل كوارث العراق هو المنظومة الحزبية الملفقة للبعثيين التي خاضت حروباً ومغامرات غير مبررة.

إنه يصنف الشيعة، وهو يحسب أنه يرضي السنة، ببقايا الفرس

المجوس والصفويين وما إلى ذلك من النعوت والشتائم التي ترددت في أسماع العراقيين بصخب خصوصاً أيام قادسية صدام وبعد سقوط الانتفاضة الشيعية الباسلة وحتى السقوط. إن ذلك في قاموس المساجلات والمعارك والمروءة العربية يدل على العجز والضعف لا القوة والثبات.

شتائم عزت لم تستثني حتى البعثيين الشيعة (عبد الزهرة وحسين وكاظم ومهدي..) فهوياتهم وأسماؤهم تفصح عن انحدارهم من أصول شيعية، لكنهم بعثيون، وقلوبهم مع عزت.. فهل ستظل هذه القلوب معه رغم هذه الشتائم؟ ألا يضعهم ذلك - إذا ما تقبلوها وقد اعتادوا على ذلك - بمواقف حرجة أمام أهليهم وذويهم؟ فهو قد وصم جميع الشيعة بالمجوس والكفرة بما فيهم رفاق الامس الذين يريدون أن يستنهضهم ثانية لاعادة البعث، فانتماؤهم له لم يطهرهم من وصمة العار هذه. فهل راحت جهودهم هباء واستخدموا مطية ضد أهليهم؟ الا يدل ذلك على أنهم مغفلون لا يعرفون عدوهم من صديقهم؟ وإذا ما تذرعوا بأنهم كانوا مجبرين على أن يكونوا ضمن منظومة البعث وتنفيذ كل مخططاته الفتاكة بحق أهليهم، فما الذي يجبرهم اليوم على أن يتمنوا عودته؟ هل أن هذا ما يدل عليه التعبير القرآني: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٨٧].

الاقرار بالذنب والاعتذار في أدبيات المسلمين هو توبة.. فهل يحتاجون إلى صاعق أشد من شتائم عزت الدوري ليدركوا أنهم لم يكونوا سوى آلة تافهة ترمى بعد انتفاء الحاجة إليها، وأنهم لم يكونوا إلا هامشاً لا قيمة له خدماً وعبيداً..

هل انحدر وعي العراقيين إلى الحد الذي أصبحوا معه لا يدركون أن (البعث) لم يكن إلا كذبة كبرى وأنه لم يعد يتردد إلا على لسان شخص

ميت.. وهل يستطيع أحد أن يراهن على ميت. أصحيح أن البعض يرون في عزت شخصاً يمتلك حيوية وفكر القادة التاريخيين؟

○○○

إن تمذهب العروبة وربطها بمذاهب أهل السنة اطروحة يراد ترويجها دائماً لتترسخ وتبدو حقيقة بنظر أجيال معاصرة وقادمة لم تتح لها معرفة الحقائق جيداً. وقد أريد لهذه الاطروحة أن تستمد القوة من كل آليات التحريض والتحقير الوهابية رغم خطابها المستهلك الذي ربما كان فاعلاً وقوياً أيام صدام مع أنه لم يعد كذلك الآن وربما كان مفعوله عكسياً إذ ربما يثير ضحية الامس الطائفية وهم الاغلبية الشيعية العربية من أبناء العراق ويجعلهم يعيدون النظر في تعاملاتهم السابقة مع الاطراف السياسية التي جعلت من نفسها ناطقاً باسم أهل السنة وممثلاً لهم.

في معارك الاقصاء لن ينجح أحد. والتاريخ لن يعيد نفسه إلا لمن لم يقرأ التاريخ. ولم يعد ممكناً الآن تغييب قرابة عشرين مليون إلا بحملات تطهير عرقي وهو أمر غير ممكن في ظل التشابك السكاني والرصد العالمي لكل ما يحدث وانتشار منظمات الدفاع والحقوق المدنية.

ولا يمكن الاعتماد على أجندات جيران العراق وأنظمتهم الهشة رغم ضجيجهم الاعلامي وقنواتهم الفضائية ذات الاداء المحنك. فلديهم مشاكل جدية حقيقية وربما ستقع في مطبات ربيع عربي قادم أشد من أي ربيع قائم في المنطقة..

إن التغييرات والاحداث الكبار وحتى الثورات قد تفرز متآمرين من الطراز الاول لا مصلحين أو خدماً حقيقيين للشعب، مع أن هؤلاء المصلحين قد يكونون موجودين غير أن أصواتهم قد تكون خافتة.

والعراقيون ربما يمرون بإحدى محطات التغيير المهمة. وإذا ما حسبت فئة أنها بارعة حقاً في خططها وتآمرها فستجد مقابلها في أجواء الحرية المتاحة فُتاتاً وأحزاباً أخرى لا تقل عنها براعة في إحكام الخطط ونسج مؤامرات مقابلة.. فالظروف العصيبة أفرزت مخططين محنكين بهذا المجال وهي خطط لا يمكن أن تكون لمصلحة المجموع ضمن عراق واحد..

كما أن التغييرات الحاصلة والتي ستحصل في المنطقة ستنسف الكثير من هذه المؤامرات والخطط وستحبط كل مشاريع الانفصال غير المدروسة والمستعجلة.. فقد كان هناك من يراهن على سوريا والاردن وقد بدأت الاوضاع تتدهور في الأولى وتتخبط في الثانية كما لا يمكن لأحد أن يتكهن بأوضاع تركيا بعد عقد من الزمن أو السعودية أو قطر أو غيرها.

المراهنة الناجحة لا بد أن تكون على الشعب العراقي نفسه وإذا كانت جهات كثيرة منه منغمسة في لعبة سياسية غير واضحة يديرها أغراب عن الشعب العراقي فلا بد أن تدرك خطر هذه اللعبة وخطر الذين يجرونه إليها.. وربما تكون هذه الطبقة السياسية الحالية منبوذة بعد ذلك.. بل أن بعض أطرافها أصبحت منذ الآن منبوذة من جماهيرها.

فنحن لا نعيش أيام حكومة النقيب قبل تسعين عاماً والوعي يزداد بشكل مفاجيء بعد تطور وسائل الاتصالات.

لا بد في الختام أن نشير إلى ملاحظات عالم اجتماع عراقي متمرس في ختام أحد كتبه وخلاصة رأيه في أوضاع العراق والخروج من أزماته إلى الابد رغم أنه لم يدّع أنه من السياسيين.

يقول الدكتور علي الوردي في نهاية كتابه (**دراسة في طبيعة المجتمع العراقي**) الذي وضعه قبل خمسين عاماً: «**إن الشعب العراقي منشق على نفسه، وفيه من الصراع القبلي والطائفي والقومي أكثر مما في أي شعب**

عربي آخر - باستثناء لبنان - وليس هناك من طريقة لعلاج هذا الانشقاق، أجدى من تطبيق النظام الديمقراطي فيه، حيث يتاح لكل فئة منه أن تشارك في الحكم حسب نسبتها العددية. ينبغي لأهل العراق أن يعتبروا بتجاربهم الماضية، وهذا هو أوان الاعتبار! فهل من يسمع؟!».

ونكرر هنا ما قاله وأن كنا نختلف معه في الكثير من أفكاره..

أم لعلنا لن نستمع إلا بعد نصف قرن أو قرن آخر وبذلك سنضيع أجيالاً من أبنائنا.

٢٠/ ١/ ٢٠١٣ ديربورن

الفهرس

الموضوع الصفحة

الفصل الأول: العصر الوهابي

الفصل الأول: العصر الوهابي ٧
ـ ١ ـ ٧
ـ ٢ ـ ٩
ـ ٣ ـ ١١
ـ ٤ ـ ١٣
ـ ٥ ـ ١٦
ـ ٦ ـ ١٨
ـ ٧ ـ ٢١

المرجعية الوهابية للحركات الإرهابية المتطرفة

توظيف الدين لتمرير مشاريع الهيمنة والغزو ٢٧
ـ ١ ـ ٢٧
ـ ٢ ـ ٢٨
ـ ٣ ـ ٣٠
ـ ٤ ـ ٣١

ـ ٥ ـ ٣٣
ماذا لو لم يبعث ابن تيمية: سؤال صاعق ٣٤

التطرّف الديني
توظيف الأيديولوجيا لبسط الهيمنة

التطرّف الديني: توظيف الأيديولوجيا لبسط الهيمنة ٤٥
ـ ١ ـ ٤٥
ـ ٢ ـ ٤٧
ـ ٣ ـ ٥٢
ـ ٤ ـ ٥٥
موجات الغزو الوهابية: الإرهاب لإقامة الدولة ٦٠

على هامش كربلاء
دولة الظلم بين شرْعَنة الانحراف
ومشاريع طمس الأضرحة والعمائر الإسلامية

على هامش كربلاء ٨٣
دولة الظلم تعيد نفسها.. والتاريخ يعيد نفسه لمن لا يقرأ التاريخ ٨٣
محو التاريخ الإسلامي ٨٨
محاولة لمنع التواصل وانكار وعدم التحقق من وجود الشخصيات التاريخية / الرسول وأهل بيته ﷺ ٨٩
بين الآثار الإسلام الموجودة ومعبد اورشليم الذي لا يوجد إلا في الخيال ٩١
اهتم المسلمون منذ البداية بالاضرحة والمساجد ٩٣
دوافع الغزو والنهب ٩٤
تغييب جرائم الاعداء ٩٥
الظهور بمناقبية ومظهر الحريص على التوحيد ٩٦

تعزيز الطائفية والتقاتل بين المسلمين ٩٧
التعامل بتحقير مع المقدس ٩٧
الذريعة: الظهور بمظهر الاصلاح وتنقية الإسلام من الشوائب ٩٨
الوهابية: منهج في التطرف والعنف ١٠١
أنا أفتخر أنني تلميذ المدرسة الوهابيّة ١٢٣
تمدد الوهابية ١٣٢
لماذا التكفير.. هل هو ضرورة؟ ١٤٠
إخوان «الاخوان»... مشاريع للخلايا النائمة «إخوان بريدة» و«إخوان نيويورك» ١٤٨
استحضار الخطاب الطائفي في العراق والرهان على الدعم الاقليمي لتفعيل الازمات ١٧١